شهر رمضان

والتنمية الثقافية

شهر رمضان

والتنمية الثقافية

الشيخ حبيب الخباز

حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الأولى

١٤٤٦هـ - ٢٠٢٥م

بسم الله الرحمن الرحیم

الإهداء

أُهدي هذا العمل المتواضع إلى روح الفقيد المرحوم الشيخ جعفر بن كاظم المقداد، نسأل اللَّه أن يتقبَّل ذلك، وأن يُوضع في ميزان أعماله، وأن يتغمَّده بواسع رحمته، ويحشره مع محمد وآله.

وإلى كل من ساهم في إعداده نُقدِّم له الشكر الجزيل.

تمهيد
شهر رمضان والبيئة الثقافية

ما يشهده العالم من تحوُّلات مؤثِّرة على كلِّ الصُّعد والمجالات الَّتي تمسُّ حياة الإنسان والمجتمعات والدُّول تقتضي الشُّعور بالمسؤوليَّة والتَّفكير الجادِّ على مستوى الأفراد والجماعات والدُّول، من أجل الاهتداء إلى الطُّرق والسُّبُل الَّتي تمنحنا القدرة والاختيار لما هو مفيد وبنَّاء، وكلَّ ما يخدم مصالحنا وقضايانا في الحياة وما يرتبط بالمصير.

وهنا نشير إلى أهمَّ تلك التَّأثيرات والانعكاسات الحادَّة في ظلِّ الانفتاح والتَّطوُّر في حياة المجتمعات والَّتي تقف عاجزةً أو مُتلكِّئة في التَّعامل والتَّعاطي مع هذه التَّأثيرات، ودون وجود رؤية صحيحة وبنَّاءة وقادرة على التَّكيُّف مع إيقاعات العصر ومخرجاته، والأهمّ الاستفادة من هذا الانفتاح حتَّى بالنِّسبة إلى تلك الدُّول غير الإسلاميَّة. وبعبارة: إنَّ هذه التَّأثيرات تُهدِّد الكيانات وتهتك الخصوصيَّات وتصهر الهويَّات، فهي تُشكِّل تحدِّيًا حضاريًّا. وهنا نشير إلى أهمَّ تلك العوامل والتَّأثيرات:

الأول: التطوُّر في وسائل التواصل الاجتماعي (السوشال ميديا):

وبسبب ذلك تقلَّصت المسافات والأزمان، فأصبح العالم كالقرية

وأصغر من ذلك، فمجرَّد الضَّغط على الزِّرِّ يمكن للإنسان أن يطَّلع ويشاهد كلّ ما يختار ويريد من معارف أو علوم وقيم وعادات، فيتأثَّر ويُؤثِّر سلبًا وإيجابًا. أي إنَّ هذا الانفتاح له جانبان: إيجابيّ وسلبيّ، وهذا يتطلَّب وجود الوعي عند كلِّ إنسان صغيرًا وكبيرًا، رجلًا أو امرأة، وكذلك الشُّعور بالمسؤوليَّة ليس فقط عند الأفراد، وإنَّما أيضًا عند الجميع جماعات وحكومات؛ لأنَّها تأثيرات عامَّة ومهامُّ لا يمكن النُّهوض بها إلَّا بالتَّعاون والتَّكاتف من كلِّ الجهات، وخصوصًا من قبل الحكومات؛ لأنَّها تهيمن على الكثير من الأجهزة والوسائل والنَّوافذ للدُّخول إلى أيِّ مجتمع، كما أنَّ للدُّول القدرة على السَّيطرة على الكثير من البرامج والمحتويات الَّتي تُخِلُّ بالأنظمة والأمن والاستقرار، فليست المجتمعات على مستوى واحد، فهناك مجتمعات متقدِّمة ومتطوِّرة في العلوم والتّكنولوجيا وأخرى متخلِّفة، وأمام هذه الاختلافات والتَّناقضات يقع التَّأثير المتبادل. والسُّؤال المهمُّ كيف يستطيع الإنسان والمجتمعات أن تتأقلم وتتعايش؟ والأهمُّ كيف تُحافظ على الخصوصيَّة والثَّوابت في العقيدة والأخلاق، ولا تقبل المساس بها؟ وغير ذلك ممَّا يتَّصل بكرامة الإنسان ومصيره.

ويعتبر الإنترنت والوسائل الذَّكيَّة من أهمِّ المؤثِّرات الَّتي تستقطب الاهتمام والتَّفاعل، فهي تتيح للإنسان كلّ ما هو مجهول، وتعمل على تدفُّق المعلومات بلا حدود، وكذلك نقل الصُّور والمشاهدات باحترافيَّة غير مسبوقة، كلُّ ذلك يجعل من مهمَّة الاختيار أمام هذه الخيارات صعبةً ومهمَّةً شاقَّةً، وبسبب ذلك تقلَّصت الخصوصيَّات، وذابت الهويَّات، وانهارت القيم والعادات، وتزلزلت المعتقدات، حتَّى لا يستطيع الإنسان أن يقف معزولًا،

فلا يمكن أن ينفصل عن هذه الوسائل والأجهزة وفي مقدِّمتها الجوَّال وما يعرف بالموبايل (الجهاز الخلويّ)، الَّذي سرق مشاعرنا وأحاسيسنا وأوقاتنا ونومنا، وكذلك علاقتنا مع الأهل والأسرة والنَّاس وكلّ الرَّوابط الحياتيَّة والاجتماعيَّة دون الشُّعور بذلك، وعند غالبيَّة النَّاس الَّذين يفتقدون إلى أدنى المستويات من الوعي والثَّقافة.

النظرة السوداوية:

يقول الشاعر[1]:

أيـهـا الـشـاكـي ومـا بـك داء ... كيف تغدو إذا غـدوت عليلا
إن شرَّ الجناة في الأرض نفس ... تتوقَّى قبل الرحيل الرحيلا
وترى الشوك في الـورود وتعمى ... أن تـرى فوقها الـنـدى إكليلا
هـو عـبء على الـحـيـاة ثقيل ... مـن يظن الـحـيـاة عبئًا ثقيلا
والـــذي نـفـسـه بـغـيـر جمال ... لا يرى في الوجود شيئًا جميلا

وآخر يقول:

وعين الرضا عن كل عيب كليلة ... وعين السخط تبدي المساويا

(١) إليا أبو ماضي الشَّاعر اللُّبنانيّ الَّذي تربَّى في كنف أسرة مسيحيَّة وبسيطة فهاجر إلى مصر بسبب الفقر والفاقة الَّتي عمَّت لبنان في القرن العشرين، وشاءت الأقدار أن يلتقي مع أدبائها من بينهم أنطوان جميل صاحب مجلَّة الزُّهور، فأعجب هذا الأخير بذكاء إيليا فدعاه للمشاركة في المجلَّة، فانطلقت شرارته وارتفع صيته، ودوَّن الكثير من قصائده في ديوانه الأوَّل (تذكار الماضي) الَّذي نُشر عام ١٩١١م عن المطبعة المصريَّة، وهو في عمر الثَّانية والعشرين، فتوسّع فكتب عن الظُّلم والاستبداد، وواجه العراقيل، ممَّا اضطرَّه للهجرة إلى الولايات المتَّحدة وأقام فيها أربعة أعوام، فاشتغل بالتِّجارة. ومن دواوينه (الخمائل، تبر وتراب الجداول، ديوان إيليا أبو ماضي تذكار من الماضي). وتوفِّي سنة ١٩٥٧هـ.

وبالرَّغم من التَّطوُّر الإيجابيّ في تلك الوسائل لتحقيق وتيسير سبل الحياة والرَّفاهية، لكن تبقى المشكلة هي في الجانب السَّلبيِّ، من خلال نقل الثَّقافات والأفكار والأخلاق السَّيِّئة. وبسبب ذلك نجد تلك النَّظرة السَّوداويَّة عند الكثير من النَّاس، وردة الفعل من التَّعاطي مع الواقع ومواجهته، فمن شأنها أن تشلَّ حركة الإنسان وتفكيره، وتضعف من همَّته وإقدامه على علاج وإصلاح الأمور، وربَّما دخل في دوَّامة من الصِّراع النَّفسيِّ وحالة من الاكتئاب، وهذه مشكلة بذاتها.

أمّا النَّظرة الموضوعيَّة والإيجابيَّة فإنها تمنح الإنسان فرصة التَّفكير السَّويِّ، والقدرة على وضع الحلول أو البدائل للأزمات. وهذا التَّوازن في التَّفكير بين ما هو سلبيّ وإيجابيّ، ومن خلال المعطيات، يجنِّب الإنسان الأحكام الخاطئة على الأمور، ويضع الأمور في نصابها.

من هنا يجب الحذر وتجنُّب المبالغة في وصف الواقع والتحولات، وكذلك التَّقييم للقضايا. كما ينبغي التَّركيز على الإمكانات والقدرات والطَّاقات الَّتي تخدم الإنسان، وتعمل على تفعيل الجانب الإيجابيِّ. أمَّا تضخيم الجانب السَّلبيِّ فهو سبب لفقد التَّوازن في نفس الإنسان، وتعطيل قدراته الخلَّاقة، والمواهب الَّتي أودعها اللَّه في نفسه، ولا بدَّ من التَّفكير في كلِّ ما حبانا اللَّه به من نِعَم وطاقات، وسخَّرها لنا من أجل سعادتنا، ومن أجل مواجهة الصِّعاب وكلِّ ما يطرأ علينا من ابتلاءات أو فتن. وهذه هي فلسفة الابتلاء وحقيقة الإيمان والصَّبر عند الشَّدائد. ومن أجل ذلك لا بدّ من الاهتمام ببعدين أساسيَّين كي نحقِّق النَّظرة الموضوعيَّة ونحكم على الأمور والمستجدَّات، ولكيلا نفقد الدَّور والتَّعاطي الصَّحيحين في ظلِّ التَّحوُّلات،

فتكون النَّظرة سوداويَّةً متوغِّلةً في الإنكار والرُّوح السَّلبيَّة النَّاقمة على كلِّ شيء، ولذا نحتاج إلى ركيزتين:

الأولى: ينغي أن نميِّز بين ما هو مفيد وخير وصلاح للبشريَّة، وما هو شرّ وضارّ؛ لأنَّ الحكم على الأمور والأشياء خصوصًا فيما يتعلَّق بالتَّحوُّلات والمستجدَّات الحياتيَّة والاجتماعيَّة والعالميَّة لا بدَّ من رؤية ونظرة موضوعيَّة معمَّقة قادرة لتحقيق الفرز والتَّمييز في ذلك. أمَّا النَّظرة السَّلبيَّة والمسبقات الخاطئة الَّتي تخلط كلَّ الأمور والمفاهيم في سلَّة واحدة، وتنطلق من أفكار وأيديولوجيَّة مغلقة، فهذا يسبِّب الإرباك والتَّشنُّج في المواقف، وعدم القدرة في مواجهة التَّحدِّيات والتَّكيُّف مع المتغيِّرات. فالواقع السَّيِّئ يمثِّل جانبًا من الحياة وفي الجملة، لكن هناك جوانب إيجابيَّة حاصلة نتيجة التَّطوُّر والانفتاح، فلا يجب أن نغفل عنه ونصادره.

فالمشكلة ليست في هذه الوسائل إنَّما في طبيعة تفكيرنا ورؤيتنا، مثل إطلاق الأحكام على كلِّ ما هو جديد لم نعهده في الماضي، أو نعتبر الكثير من المتغيِّرات في الموضات من لباس وقصَّات الشّعر أو استخدام الآلات في تعداد الأذكار، بأنَّها بدعة مثلًا، وكذلك قيادة المرأة للمركبة والسَّيَّارة محرَّمة لأنَّها لم تكن في الماضي. وهل كلُّ بدعة في الدِّين والدُّنيا (أي المستحدثات والإبداعات) يعتبر بدعةً محرَّمةً؟ حيث ما حكمنا عليه في الماضي بالحرمة كقيادة المرأة أصبح اليوم وفي العصر الحديث ضرورةً من الضَّروريَّات، أم إنَّ ما أسَّسنا عليه من قواعد فقهيَّة ما هو إلَّا استحسان وظنون وسدّ للذَّرائع؟ فهذا غير صحيح قطعًا، بل هو مخالف للأصول العامَّة الَّتي تحلِّل وتبيح كلّ شيء حتَّى يثبت العكس، وهذه مهمَّة العالم الفقيه الَّذي

يُمعن النظر في الأدلَّة وتصحيحها والإحاطة بها، وليس ينطلق من الظُّنون أو المخاوف أو التَّعصُّب أو مخالفة الآخرين من خارج المدرسة الَّتي ينتمي إليها.

إنَّ إطلاق مثل هذه الفقَّاعات والصَّرخات دون بذل الجهد أو الخوف من ربِّ العباد لا يمكن أن يكون مطلقها عاقلًا فضلًا عن أن يكون عالمًا فقيهًا. فقد ابتليت الأمَّة بهذا النَّوع والنَّموذج السَّلبيِّ الفاقد للأهليَّة في العلم والفقاهة، فضلًا عن القيادة للإنسان والمجتمع، وهذا سبب ومن العوامل في تأخير المجتمعات الإسلاميَّة عن ركب الحضارة والإصلاح والتَّغيير، بل سبب لتشويه صور الإسلام ونعته بالتَّخلُّف والقُصور وأنه أفيون الشُّعوب، فهل نقبل هذا المسار، أم أنَّه انحراف ومخالف لبديهيَّات العقل والمنطق والفطرة السَّويَّة، فضلًا عن الدِّين المنزَّه من كلِّ نقص وعيب بطلان، كما قال تعالى: ﴿**فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ**﴾[1].

إذًا كلّ ما يُعيق حركة العقل والتَّفكير في طريق البناء والإصلاح والازدهار فهو ليس من الدِّين، وكذلك كلُّ الاجتهادات والفتاوى والمواقف في هذا الشَّأن لا تدلُّ على العلم والفقه، بل على الجهل، والجهل المركب، لأنَّ أصحابها يعيشون خارج الكوكب وفي الظَّلام، ولا يقبلون الحركة ولا النِّقاش والنَّقد، لأنَّهم يشعرون بأنَّهم أعلى مستوًى من البشر، ومن سماتهم الجمود والتَّقوقع على ما هو قديم، ولا يستندون إلى دليل صحيح وراجح.

(١) سورة الروم، الآية ٣٠.

فمن بديهيَّات العقل والمعرفة أنَّ الدِّين لا يتعارض مع العلم في كلِّ أبواب الحياة وشؤونها.

الثَّانية: أن نتسلَّح بالوعي والثَّقافة الصَّحيحة للحياة والدِّين بالخصوص، فنحن كمسلمين لنا هويَّتنا الخاصَّة والأهداف والتَّطلُّعات المشروعة الَّتي تتميَّز عن سائر الأمم والحضارات، وإن الوعي بذلك يمنحنا القدرة على التَّكيُّف والتَّعاطي مع كلِّ الملفَّات والقضايا والظُّروف ومواجهة التَّحدِّيات؛ ولذلك فإنَّ من أهمِّ أسباب التَّأثيرات السَّلبيَّة والانعكاسات الحادَّة على واقعنا في كلِّ المجالات هو غياب هذا الوعي والالتزام والحصانة الكافية، فكثير من أبناء الأمَّة لا يعرفون عن الثَّقافة الإسلاميَّة إلَّا الشَّيء البسيط أو القشور، فتصبح معرَّضةً لأيِّ هجوم أو غزو ثقافيّ أو أخلاق؛ لأنَّها تفتقد إلى الحصانة، فهي أرضيَّة مهيَّأة لاستقبال ما هبَّ ودبَّ، وكذلك تفتقد إلى التَّعاطي الصَّحيح حتَّى مع الوسائل المفيدة والمتطوِّرة من العلوم والتَّكنولوجيا، فتجد الاستغلال السَّيِّئ والصَّريح لهذه الوسائل، ممَّا ينعكس سلبًا على الإنسان والحياة دون إدراك للهويَّة وقيمة الدِّين والقيم والمبادئ في صورة مبعثرة ومشوَّهة للحضارة الإسلاميَّة، دون أدنى إدراك للمخاطر والأزمات في الحاضر والمستقبل.

ولقد بدت مؤشِّرات هذه المخاطر في كلِّ شؤون حياتنا، ولا نملك سوى التَّأفُّف ولعن الزَّمان أو الانجراف والذَّوبان، حتَّى نجد بعض أبناء هذه الأمَّة قد انسلخوا من كرامتهم وعزَّتهم ليلتحقوا بتلك الأمم المادِّيَّة، فيعودوا إلى تلك الجاهليَّة الأولى، ويرفعوا مبادئها الهدَّامة وقيمها الشِّرِّيرة؛ ولذلك لا نستغرب أن نجد في شبابنا من يرفع شعار الإلحاد والرِّدَّة، ويغوص في

أوحال الرَّذيلة تأسِّيًا بتلك الحضارة المادِّيَّة دون النَّظر إلى الجانب المظلم والمآسي الَّتي أوجدتها في الحياة والمجتمعات البشريَّة.

من هنا نحن بحاجة ماسَّة وانقلاب كامل لصياغة حياتنا وتحديد هويَّتنا وترشيد أفكارنا وتوجُّهاتنا وتطلُّعاتنا نحو الحاضر والمستقبل، وفي ظلِّ التَّحوُّلات والتَّأثيرات المختلفة من خلال المعايير والمبادئ الدِّينيَّة الصَّحيحة. فثقافة الإسلام هي الَّتي تجسِّد هذه المبادئ، ولأنَّ الدِّين يدعو إلى قيم الحضارة ولا يتعارض مع العلم والعقل والتَّطوُّر والازدهار فكذلك هي الثَّقافة الإسلاميَّة، وهي الَّتي تهدينا إلى سبل الخير والصَّلاح. وعلى هذا الأساس لا بدَّ من الوقوف ضدَّ كلِّ الانحرافات والضَّلالات والثَّقافات السَّقيمة، سواء من منطلق لباس الدِّين أو لباس الحضارة والعلمانيَّة والعولمة الَّتي تجتاح العالم. وهذا يتطلَّب أمرين أساسيَّين وهما:

١ - الوقوف بحزم تجاه تلك الموروثات الدِّينيَّة الَّتي أشرنا إليها، والَّتي لا تتَّفق مع الدِّين والقرآن والسُّنَّة المطهَّرة، والَّتي قدَّمت الصُّورة المشوَّهة للإسلام، وأخَّرت الأمَّة قرونًا، وما زالت تعبث وتقيم كلَّ الحواجز والكوارث في الحياة وتحت شعار الإسلام، ليصبح شعار التَّكفير والإرهاب والفتن سمةً لهذه التَّيَّارات والمذاهب المنحرفة، فهذه التَّيَّارات أضرَّت بالأمَّة أكثر من الأعداء، فهؤلاء هم أهل النِّفاق في الأمَّة، ولقد صدَّق الإمام علي عليه السلام في حقِّهم: «وَلُبِسَ الْإِسْلَامُ لُبْسَ الْفَرْوِ مَقْلُوبًا»[1]، فكما أن الخوارج في التَّاريخ حيث وقفوا في وجه الحقِّ باسم الإسلام؛ فكذلك اليوم وفي العصر

(١) غرر الحكم ودرر الكلم، ص ٤٢١.

الحديث، حيث تكرّس هذا النَّهج وعبر قرون من الزَّمن بسبب السِّياسات الحاكمة والحكومات الظَّالمة.

٢- في ظلِّ تأثيرات الحضارة المادِّيَّة ومواجهة التَّحدِّيات والإغراءات ينبغي أن نتحرَّر من التَّبعيَّة المطلقة للغرب الَّذي لا يهمُّه في الحياة سوى اللَّهث وراء متطلَّبات الأهواء والشَّهوات، فيُقيم من أجل ذلك الحروب والاستعمار والهيمنة على ثروات العالم والمجتمعات دون رادع أو قانون كما قال تعالى: ﴿**وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ**﴾[١]، فلماذا نربط حياتنا بحياتهم ومصيرنا بمصيرهم؟

إنَّ القرآن يشير لنا بكلِّ وضوح أنَّه لا حياة وكرامة وعزَّة وبناء وإصلاح وتقدُّم ورفاهية إلَّا في ظلِّ الدِّين والمبادئ الإنسانيَّة والإيمانيَّة، قال تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ**﴾[٢]، وقال: ﴿**وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آَمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ**﴾[٣].

إذًا لا بدَّ من العودة إلى ثقافتنا الأصيلة الَّتي تزخر بالمفاهيم والقيم والأفكار الَّتي تصوغ لنا الموقف الإيجابيُّ من الحياة، وكذلك التَّعاطي مع الواقع بكلِّ ثبات وتفاؤل وحيويَّة من أجل أن يكون لهذه الأمَّة شأن يذكر ومكانة بين الأمم الحاضرة، وتساهم كذلك في الإصلاح، وتُقدِّم الإنجازات، وليس فقط التَّغنِّي بالأمجاد وسرد البطولات والتَّاريخ والفتوحات في حقبة من التَّاريخ الإسلاميِّ الَّذي لا يخلو أيضًا من الانتقادات والشَّوائب.

(١) سورة محمد، الآية ١٢.
(٢) سورة الأنفال، الآية ٢٤.
(٣) سورة الأعراف، الآية ٩٦.

وينبغي التَّأكيد على أصالة هذه الثَّقافة وعمقها الدِّينيِّ والحضاريِّ والأخلاقيِّ، وأنَّها قادرة أنَّ تحقِّق كلّ الأهداف والتَّطلُّعات، وتواجه التَّحدِّيات في كلِّ عصر ومكان، وتواكب التَّطوُّر، لكنَّ دون تحايل أو ترقيع وترميم أو زيف، مثل الَّذين يفصِّلون الأمور حسب المصالح والأهواء. إنَّ الدِّين لا يقبل التَّلوُّن والتَّفصيل والتَّقسيم، وكذلك هي ثقافة الإسلام، فهي المعبِّرة عن الحقِّ والحقيقة، وهي الَّتي تضيء لنا دروب وسبل الحياة، قال تعالى: ﴿**فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ**﴾[١].

ولقد ابتليت الأمَّة بأنصاف الفكر والثَّقافة والدِّين[٢]، ليسمحوا لأنفسهم بالانتقاد والتَّعريض والهرج والمرج والانتقاص لثقافتنا الإسلاميَّة واتِّهامها بأشدِّ الاتِّهامات، ومنها أنَّها لا تصلح لأن تواكب العصر. ولم يكتفوا بذلك بل أصبحوا وسيلةً ومطيَّةً للتَّرويج لتلك الثَّقافة الغربيَّة تحت الانبهار والتَّخدير، ودون الوقوف عند انحرافاتها ومساوئها، فوصموا ثقافة الإسلام بالتَّخلُّف والجمود، فأين هو الإنصاف والحقيقة، وأين هي المعايير الصَّادقة؟

وفي هذا المجال لا بدَّ من الإشارة إلى ضعف دور رجالات الدِّين والعلماء والمراكز والمؤسَّسات في تلك الحقبة بالخصوص، حيث كان محدودًا ومنطويًا دون تأثير ومواجهة للمدِّ الرَّجعيِّ من الشُّيوعيَّة والرَّأسماليَّة واللِّيبراليَّة وغيرها، ممَّن يمثِّل الامتداد لهذه المرجعيَّات الفكريَّة والفلسفيَّة

(١) سورة يونس، الآية ٣٢.

(٢) حيث وقعوا تحت تأثير تلك الحضارة المادية وانبهروا بإنجازاتها دون أن ينظروا إلى الجوانب الأخرى، وهذا ما حصل في تركيا ومصر بالتحديد، حيث نقلوا ثقافة الإفرنج ونادوا بالعلمانية وشككوا في مفاهيم الدين.

الَّتي شكَّلت أخطبوطًا، بينما الجهل والفقر وكلُّ عوامل التَّخلُّف يعمُّ أكثر البلاد الإسلاميَّة من أقصاها إلى أقصاها.

الثاني: الآثار السلبية والاجتماعية (التحولات الاجتماعية):

إنَّ الاستعمار في العصر الحديث هو أكثر خطورة من الاستعمار العسكريِّ في الماضي، حيث يُواجه بالقوَّة المباشرة، أمَّا اليوم فإنَّه يغزو العالم من خلال الثَّقافة والأخلاق، والتَّسويق لبضاعته وأمركته دون القدرة على المواجهة والصّد، ودون معاناة وتكبُّد للخسائر، ولذلك نجد التَّأثيرات السَّلبيَّة وربَّما الخضوع والاستسلام لكلِّ ما يصبُوا إليه العدوّ خصوصًا مع عدم وجود الحصانة الكافية. وهنا نشير إلى أهمَّ تلك الآثار والانحرافات الَّتي أصابت الأسس والبنى الاجتماعيَّة:

١- هدم كيان الأسرة:

فالدَّعوة للتَّحرُّر والحرِّيَّة المطلقة كان الهدف منه هو تقويض كيان الأسرة ودعائمها، وتكوين العلاقة بين الرَّجل والمرأة خارج نطاق الزَّوجيَّة، ولهذا تكرَّس مفهوم الإباحيَّة الَّتي لا تراعي الحدود والضَّوابط والأهداف المشروعة الَّتي من أجلها خلق اللَّه البشر، ومن حكمته أوجد الاختلاف في الجنس البشريِّ من أجل التَّكامل والتَّجانس والتَّكاثر، وبعد ذلك حدَّد للإنسان الوظيفة والطَّريق المستقيم لتحقيق هذه الغاية، واعتبر الخروج عن هذا الخطِّ والحدود جريمةً شنعاء؛ لأنَّها خلاف الحكمة والفطرة السَّويَّة والإخلال بالنِّظام العامِّ للحياة والسُّنن الاجتماعيَّة؛ ولذلك نجد القرآن يحذِّر من هذا المسلك والانزلاق والانحطاط، قال تعالى: ﴿**وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَا**﴾[1]،

(١) سورة الإسراء، الآية ٣٢.

فالزِّنا هو فعل شنيع أوَّلًا، وكذلك هو خلاف السُّنن الرَّبَّانيَّة والاجتماعيَّة، بينما الزَّواج المطلوب في ظلّ (التَّشريعات الدِّينيَّة والمدنيَّة الَّتي تنظِّم الحياة) على أسس قويمة يُعتبر من أعظم الحقائق والفلسفات الَّتي يهتدي إليها أهل الإيمان والعقول ومن يطلب الطَّهارة والنَّزاهة والشَّرف، قال تعالى: ﴿**وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا**﴾[١]، وهذا هو مقتضى التَّنوُّع في الخلق قال تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى**﴾[٢].

إذًا الزَّواج المشروع هو البناء الصَّحيح للجنسين وللمجتمعات والحضارة، وليس الفوضى في إشباع الرَّغبات واتِّباع الأهواء تحت ستار الحرِّيَّات والحقوق، أو تحرير المرأة.

وأكثر من ذلك خطورةً هو الدَّعوة إلى الجندريَّة[٣] والمثليَّة، وسنَّ

(١) سورة الروم، الآية ٢١.

(٢) سورة الحجرات، الآية ١٣.

(٣) الجندرية (التنوع الاجتماعي) هو أداة لتحليل العلاقات بين الرجال والنساء وأثر ذلك على أدوارهم ومكانتهم في المجتمع وقد عقد مؤتر بكين وهو المؤتمر الدولي الرابع حوال المرأة الذي عقد في ١٩٩٥يؤكد ان المفهوم ليس أداة تحليل فقط بل هو نظرية عامة مبادئها في بنود العلاقات الدولية الخاصة بالمرأة والشباب وفي هذا بالخصوص خرجت اكبر تظاهرة نسائية تنادي بحقوق الشواذ، والمقصود هو عدم التمايز والخصوصيات بين الرجل والمرأة، وان من يحدد الجنس بينما هو قرار شخصي فلكل منهما الحق في اختيار الجنس التذي يتفق مع ميوله وقناعته، لكن تلك المجتمعات الغربية لم تضع مفهوما واضحا في فهم هذا المصطلح بالرغم من انشاء مراكز ومؤتمرات تؤسس لهذا المفهوم ليجد طريقه في عالم المجتمعات دون ادراك للمخاطر والاثار لهذا المنحى، بل سعت لوضع اقوانين لحمايته واقراره في منظومة القيم والحقوق الإنسانية، مما اثار البلبلة في قيم وعادات وثقافات المجتمعات خصوصا العربية والإسلامية والتحفظ على ذلك .

قوانين وتشريعات حقوقيَّة لذلك، فهل هذا يعكس قيمًا ونبلًا ومبادئ وتطلُّعات إنسانيَّةً؟ وماذا يجني العالم من تسويق مثل هذه الدَّعوات سوى الفساد والضَّياع والتَّذمُّر والتَّمزُّق لعرى الإنسانيَّة وروابطها.

إنَّ هذا الانحراف السَّافر والتَّخبُّط ما هو إلَّا نتيجة للبعد عن اللَّه سبحانه ومنهجه القويم، فهذه الحضارة المادِّيَّة تزداد طغيانًا وكفرًا باللَّه والدِّين، فهي تعاني من الخواء الإيمانيِّ والرُّوحيِّ والنَّفسيِّ، لتستبدل به كلَّ طريقة وميول يخضع لطموحاتها ورغباتها وما يزيِّن به الشَّيطان للإنسان، قال تعالى: ﴿**زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ**﴾[1]، فإطلاق العنان للشَّهوات هو المدخل للشَّيطان الرَّجيم؛ ولذلك لا نستغرب من التَّركيز على ثقافة الجنس وتحرير المرأة، في ثقافة الغرب، وتعتبرها تجارة رابحة، ويتمُّ التَّرويج لها بكلِّ السُّبل والوسائل العصريَّة عبر شبكات التَّواصل الاجتماعيِّ والمواقع الإباحيَّة، للتَّأثير على الإنسان وسائر المجتمعات، فالشُّذوذ والإباحيَّة والمثليَّة ما هي إلَّا عناوين بارزة وحصيلة ليست نهائيَّةً للهبوط في المستوى الفكريِّ والأخلاقيِّ والحضاريِّ، وإن العواقب والأزمات المختلفة تُهدِّد هذه المجتمعات مهما أظهرت من تماسك وقوَّة وشعارات، فإنَّ المؤشِّرات تؤكِّد على ما وصلت إليه من انهيار وظلام لمصيرها المجهول، وإنَّ المخاطر تحدق بها من كلِّ جانب وفي داخلها وصميمها.

خلاصة: إنَّ الأسرة المسلمة في العصر الحديث تواجه تحدِّيات خطيرةً، وتعرَّضت إلى عوامل كثيرة أفقدتها التَّوازن والسَّيطرة والاستقرار

(١) سورة آل عمران، الآية ١٤.

والدَّيمومة، فشُلَّت قدرتها وتماسكها وتأثيرها التَّربويِّ والتَّوجيهيِّ، ومن أهمّ هذه التَّحدِّيات هو تأثير الغزو الثَّقافيِّ والأخلاقيِّ في ظلِّ الانفتاح والتَّواصل الاجتماعيِّ، ممَّا يتطلَّب المزيد من الوعي والمعرفة، والشُّعور بالمسؤوليَّة والكفاءة الَّتي تعي متطلَّبات العصر وما يدور حولنا من مفاهيم، وما يحيط بنا من أزمات، فليس الماضي كالحاضر. وما كثرة الطَّلاق المبكِّر أو تأخير الزَّواج أو كثرة المشاكل والاختلافات بين الزَّوجين أو في الأسرة إلَّا ظواهر سلبيَّة وانعكاسات تحتاج إلى وقفات وتأمل، وعودة حقيقيَّة إلى ثقافة الإسلام الَّذي أعطى كلّ شيء حقّه، خصوصًا تلك التَّعاليم والتَّوجيهات الَّتي أحاطت بكيان الأسرة والزَّواج، واعتبرته من أهمَّ وأوليَّات سُلَّم القضايا المصيريَّة في حياة الإنسان والمجتمعات، وأعطاه وأحاطه من القدسيَّة ما لا مثيل لها، بدءًا من اختيار الزَّوجة، إلى العلاقة بين الزَّوجين، إلى مهامّ ودور التَّربية الصَّالحة. فالأسرة هي اللَّبنة الأولى والينبوع الَّذي يُقام ويُشيَّد عليه بناء المجتمعات وصرح الحضارات؛ ولذلك يشير الحديث عن الرَّسول الكرم ﷺ: «ما بني في الإسلام بيت أفضل من التَّزويج»، فكيف ينبغي أنَّ نشيد هذا البيت؟ وما هو الأساس الَّذي يقوم عليه والثَّقافة الَّتي ننطلق منها؟

٢- ضعف الروابط الاجتماعية:

من عاش بين الجيلين الأخيرين يدرك تمامًا تلك الفوارق في الرَّوابط الأسريَّة والاجتماعيَّة، وما أصاب هذه الرَّوابط في هذا العصر من ضعف وتقاطع وانهيار كامل أحيانًا، ويعزو الكثير من النَّاس السَّبب الرَّئيسيِّ إلى ما حصل من انفتاح وتطوُّر في وسائل التَّواصل الاجتماعيِّ الافتراضيِّ. أي إنَّ هذه الوسائل شغلت النَّاس عن حياتهم ومسؤوليَّاتهم وعلاقاتهم، وفرضت

نفسها على الواقع، وحازت على الكثير من الاهتمام الذي لا يمكن نتصوَّره أو نضع حدودًا له. لكنَّ السُّؤال المهمَّ في ظلِّ المعطيات والظُّروف: ما هو دورنا ومسؤوليَّاتنا؟ وكيف نواجه هذا التَّحدِّي بحيث لا يؤثِّر على ثقافتنا وسلوكنا وأخلاقنا وعن ديننا؟ إنَّ البعض من الصَّالحين وهم كثر من الجيل الأوَّل يترحَّم على الماضي ويتشاءم من الواقع لكنَّ دون تغيير أو تأثير وإصلاح، وهذا لا يكفي ولا يُعفينا من المسؤوليَّة، ولا يخدم مصالحنا في الدِّين والدُّنيا.

بنظرة عميقة للواقع وللحقيقة يصل الإنسان إلى ما هو مطلوب في ظلِّ التَّحوُّلات وتأثيراتها، وهو تعميق الإيمان باللَّه والمعرفة في مواجهة الواقع السَّلبيِّ الَّذي يمثِّل حلاوة الدُّنيا وزينتها، والحديث هو عن الجانب السَّلبيِّ فليس الانفتاح كلُّه شرًّا، كلا ولكن ما يشغلنا عن ديننا وهويَّتنا وأخلاقنا وروابطنا وعلاقتنا الحسنة هو الَّذي يحتاج إلى مقاومة ورفض تامّ، أمَّا الاستسلام والذَّوبان والخضوع إلى ثقافة الواقع فهو الَّذي يبرِّر لنا كلّ ما يواجهنا ونتأثَّر به، وهذا يتطلَّب الإيمان العميق والرَّاسخ وكذلك الالتزام الصَّادق، فالحياة تحدٍّ وصراع بين الخير والشَّرِّ، والحقُّ والباطل، وكذلك الدُّنيا سجن المؤمن.

واليوم يتجلَّى هذا الامتحان والتَّحدِّي في مواجهة تلك المفاسد والمحتويات الهابطة والأخلاق الفاسدة، وتلك المواقع الإباحيَّة الَّتي تخدش الحياء، والصُّور والمشاهد الَّتي تملأ العيون وتأسر القلوب وتسحر العقول لتصبح طائشةً، فماذا بعد ذلك؟ وماذا يبقَ للإيمان والتَّقوى في حياتنا؟

من هنا يؤكِّد القرآن على العلاقة بين الإيمان والعمل الصَّالح، وبين

الإيمان والتَّقوى، وبين الإيمان والأخلاق، فهذا العلاقة تُجسِّد العنوان الصَّحيح وتُمثِّل الواقع المطلوب، والثَّقافة الَّتي نتسلَّح بها في مواجهة كلِّ ما هو شرّ وباطل وثقافات سقيمة في كلِّ زمان. فالإيمان ليس شعارًا أو التزامًا سطحيًّا وقشريًا، وإنَّما هو روح وتحدٍّ وتفاعل نحو التَّغيير والإصلاح وحمل المسؤوليَّة، فلا يكتفي الإنسان المؤمن والمتَّقي بالتَّململ أو التَّذمُّر والانزواء أو الرُّوح السَّلبيَّة اتِّجاه الواقع، كلا إنَّما يسعى للمواجهة ضدَّ المنكر في كلِّ شأن.

إنَّ ضعف هذه الرَّوابط الاجتماعيَّة هي نتيجة طبيعيَّة لضعف هذه الرُّوح الإيمانيَّة الخلَّاقة، والانشغال بمتع الدُّنيا الَّتي لا حدود لها.

وقد حذَّرنا القرآن من هذه الدُّنيا الَّتي تفتن النَّاس عن دينهم وآخرتهم، قال تعالى: ﴿**وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ**﴾[1].

لقد كثر الحديث في القرآن عن الدّنيا ومفصَّلًا من أجل الحذر ومقاومة إغراءاتها، فهي الَّتي تسلب روح الإيمان والتَّقوى، أي تُضعف الالتزام فلا يبقى إلَّا القشور، فربَّما تجد المسلم يُصلِّي لكنَّه لا يتورَّع عن ارتكاب الحُرمات، أو تجده قاطعًا للرَّحم أو يسيء الأخلاق مع النَّاس، ويسرق ويكذب، ولا يؤدِّي حقوق ما عليه من ديون.

فهذا المواقف المتزلزلة أو القشريَّة لا يمكن أن تقاوم الواقع السَّلبيَّ، بل لا بدَّ من الإيمان العميق الَّذي ينفذ إلى القلوب ويُقوِّم السُّلوك ويُكرِّس الأخلاق، قال تعالى: ﴿**لَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنِ**

(١) سورة آل عمران، الآية ١٨٥.

اتَّقَى وَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾[١].

وفي هذا السِّياق تأتي أهمِّيَّة الرَّوابط والعلاقات الاجتماعيَّة والعودة إلى العادات الحسنة، وهذا من أهمِّ الأبعاد الَّتي يُركِّز عليها الشَّهر الكريم كي تنمو في حياتنا، وخصوصًا الرَّوابط الأسريَّة والأقربين بالذَّات، قال تعالى: ﴿**وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ**﴾[٢]، ويقول الإمام علي عليه السلام: «عليكم بالتَّواصل والتَّراحم، وإيَّاكم والتَّقاطع والتَّدابر»[٣]، وقطيعة الرَّحم من الكبائر، وفي الحديث: «إنَّ قاطع الرَّحم لا يشمُّ ريح الجنَّة من مسافة ألف عام»[٤].

الثالث: ثقافة الاستهلاك:

في ظلِّ الانفتاح والتَّطوُّر في وسائل التَّواصل الاجتماعيِّ حيث أصبحت التِّجارة والتَّسوُّق قضيَّةً عالميَّةً وسياسات اقتصاديَّةً عابرةً للحدود والقوانين الَّتي تحكمها منظَّمة التِّجارة العالميَّة، وهي خاضعة للعرض والطَّلب، وكذلك للهيمنة للدّوليَّة الَّتي تكرِّس تحرير هذه التِّجارة من القيود لصالح الدُّول الصِّناعيَّة، بينما أغلب الدُّول العربيَّة والإسلاميَّة هي دول فقيرة ومستوردة لكنَّها تملك المال والثَّروة، ولهذا السَّبب أصبحت هذه الدُّول أسواقًا مفتوحةً، ولا تستطيع أن تغلق الأبواب، لأنَّها لا تمتلك الإرادة والقرار، فكلُّ شيء أصبح متاحًا وقابلًا للشِّراء والبيع والإيجاد في المكان والزَّمان

(١) سورة البقرة، الآية ١٨٩.
(٢) سورة النساء، الآية ١.
(٣) نهج البلاغة.
(٤) ميزان الحكمة، ج١، ص٤٣٠.

المحدَّد، حتَّى من دون وسائط ووكلاء.

وبسبب ذلك يكون التَّأثير السَّلبيُّ في إيجاد الرُّوح الاستهلاكيَّة وانفتاح الشَّهيَّة، وتوسيع دائرة الاهتمامات والمقتنيات والشَّراهة في تلبية الرَّغبات، والطَّمع المتزايد لتحقيق أقصى متعة التَّسوُّق والحاجات دون ضابط وحدود وضرورات.

وهذه سياسات خاطئة بالطَّبع، ولا تتَّفق مع المعايير الإنسانيَّة والإيمانيَّة والأخلاقيَّة الَّتي تؤكِّد على الهدف السَّامي من الحياة من جهة، وكذلك التَّأكيد على سياسة الاقتصاد. وتتعمَّق هذه الأفكار والسِّياسات والثَّقافات بالخصوص في المجتمعات المتخلِّفة الَّتي تفتقد إلى مقوِّمات الاقتصاد النَّاجح، وهو سياسة الاستقلال والإنتاج، لتزداد الهوَّة والفوارق بين الدُّول الصِّناعيَّة والإنتاجيَّة وبين الدُّول الاستهلاكيَّة الَّتي تحتاج إلى تلك الدُّول في كلِّ الحاجات والمتطلَّبات حتَّى أبسط الأمور، حتَّى إلى الإبرة لأجل الخياطة.

وعلى هذا الأساس تتوسَّع رقعة التَّسوُّق والتَّبضُّع، وفتح الأسواق والمجمَّعات (المولات) لتأمين كلِّ ما هو مرغوب وما يفتح الشَّهيَّة، سواءً كان ذلك ضروريًّا أم غير ذلك. وحتَّى في قضيَّة الأكل والشُّرب والغذاء اليوميِّ يكون من خارج المنزل ليكون ذلك هو الأساس والعادة، وأنَّ المائدة المنزليَّة هي الاستثناء، فكثرت البوفيهات والمطاعم في كلِّ البلاد العربيَّة والإسلاميَّة لتصبح علامةً فارقةً، كما نجد البيوت أصبحت ترسانة للمقتنيات والمجسَّدات للألعاب والصُّور الرُّموز والهوايات من دون تفكير وحكمة.

من هنا تأتي أهمِّيَّة ودور الثَّقافة لتحديد هويَّة الإنسان والمجتمعات من

خلال الهدف السَّامي للحياة، وكذلك الدَّور الَّتي تلعبه في البناء الحقيقيِّ للإنسان والإصلاح والتَّنمية وإيجاد البيئة الصَّالحة في صناعة الاقتصاد والتَّطوُّر والتَّقدُّم والازدهار، وهذه الثَّقافة هي الَّتي ترسم لنا الفلسفة والقاعدة في التَّعاطي مع الحاجات والرَّغبات وشهوة المال والممتلكات؛ لأنَّ «المال مادَّة الشَّهوات»[١]. وهذه الفلسفة هي: هل الإنسان جاء للحياة ويعيش من أجل الأكل والشُّرب، أم يأكل ويشرب من أجل أن يعيش، ويحافظ على صحَّته؟

إنَّ ثقافة الإسلام تؤكِّد على تحديد الهدف من الحياة قبل كلِّ شيء وهو عبادة اللَّه والتَّمحور حول هذا الهدف، قال تعالى: ﴿**أَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي**﴾[٢]، وقال: ﴿**قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ**﴾[٣]، ثمَّ بعد ذلك التَّفكير والاهتداء إلى المنهج الرَّبَّانيِّ في العلاقة مع الدُّنيا على أساس الإعمار والاستثمار والإصلاح في ظلِّ القيم والمبادئ والرُّؤى الصَّحيحة حتَّى لا نميل ولا نتخبَّط، فنفتقد إلى التَّوازن الإيمانيِّ والرُّوحيِّ والنَّفسيِّ، لذلك يؤكِّد الإسلام على سياسة الاعتدال في كلِّ شيّ، في الأكل والشُّرب والحاجات والرَّغبات، فليس من الصَّحيح أن يصبح الهدف هو للدُّنيا أو تلبية الرَّغبات والشَّهوات بدون حدود وغاية؛ ولذلك يحذِّرنا القرآن من التَّكاثر والطَّلب المتزايد على أمور الدُّنيا، وفي غفلة عن ذكر اللَّه قال تعالى: ﴿**أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ**﴾[٤]، وفي الرِّواية: «من كانت همّته ما

(١)غرر الحكم ودرر الكلم، ص ٣٨.
(٢) سورة طه، الآية ١٤.
(٣) سورة الأنعام، الآية ١٦٢.
(٤) سورة التكاثر، الآية ١.

يدخل بطنه كانت قيمته ما يخرج منه»[١]، فمقتضى كرامة الإنسان، والمؤمن هو الاقتصار على الحاجات واللَّوازم الضَّروريَّة، وفي رواية أخرى: «إنَّ من الإسراف أن تأكل كلّ ما تشتهيه»[٢]، وآخر: «مَا أَقْبَحَ بِالْمُؤْمِنِ أَنْ تَكُونَ لَهُ رَغْبَةٌ تُذِلُّهُ»[٣].

إذًا، إنَّ سياسة الإسلام سواء في المال أو غيره هي الاعتدال في الأمور، فلا إفراط ولا تفريط،، والتَّركيز دائمًا على الهدف والغاية الكبرى كما قال تعالى: ﴿**وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ**﴾[٤]، فالهدف يحدِّد الوسيلة، وشهر رمضان يعتبر موسمًا متكاملًا لترسيخ هذا الهدف، وهو العبادة من منطلق الوعي والفهم والتَّفكير والثَّقافة؛ لأنَّه شهر القرآن والهداية والتَّسلُّح بالقيم والصَّلاح من جهة، ومن جهة أخرى ترسيخ العادات والسُّلوكيَّات الحسنة والبنَّاءة الَّتي تُضيء لنا الحياة ومنعطفاتها وتشعُّبها، لأن «العادات قاهرات»[٥].

فنحن في هذا الشَّهر بحاجة إلى التَّأمُّل والمراجعة لعاداتنا وسلوكنا وتفكيرنا من أجل صياغتها على أسس سليمة وحسنة تقودنا إلى الهدف السَّامي والسَّعادة، فالصِّيام لمدَّة شهر كافية لتربية الإرادة، وتقويتها حتَّى لا تخضع وتنحاز إلى رغباتها وتتحكَّم في نفس الإنسان، وهذه هي الفلسفة من الصِّيام بعد الإخلاص والعبادة للَّه سبحانه، ففي الحديث عن أبي عبداللَّه عليه السلام يقول: «ليس الصيام من الطعام والشراب أن لا يأكل الإنسان

(١) غرر الحكم و درر الكلم، ص ٦٤١.
(٢) ميزان الحكمة، محمد الريشهري، ج٢، ص١٢٩٦.
(٣) الكافي (ط - دار الحديث)، ج٣، ص ٧٧٨.
(٤) سورة القصص، الآية ٧٧.
(٥) مجموعة ورام، ج٢، ص ١١٣.

ولا يشرب فقط، ولكن إذا صمت فليصم سمعك...»[١]، لكنَّ ما نجده من العادات السَّلبيَّة هو عكس ذلك، حيث يتمُّ الاهتمام والانشغال بالأكل والشُّرب وإعداد الموائد الرَّمضانيَّة الَّتي تزخر بكلِّ ما لذَّ وطاب أكثر من الأيَّام الأخرى أو ما جرت عليه العادة، بل يتمُّ التَّحضير لذلك قبل الشَّهر من خلال التَّسوُّق وملأ العربات الَّتي أُعدَّت لذلك، ثمَّ التَّعسكر كطوابير وازدحام في صورة لا توجد إلَّا في أثناء الحروب والأزمات، فهل هذا يعكس حقيقة وفلسفة الصِّيام؟ ولماذا حرم اللَّه على الإنسان المسلم الطَّيِّبات في هذا الشَّهر دون غيره؟ هل لمجرَّد الإضراب عن الطَّعام والشُّرب حتَّى إذا انقضى النَّهار وأقبل اللَّيل انتقمنا لأنفسنا وفتحنا لها المجال للتَّعويض وزيادة، فتحدث الانتكاسة وتحلُّ الأضرار وتتفشَّى الأمراض، وأحيانًا يكون حتف الإنسان بسبب ذلك، أليس ذلك ضياعًا لمهمَّة ودور الصِّيام، ليصبح مناسبةً عابرةً وروتين في حياتنا، وأنَّ تكراره في كلِّ عام لا يغيِّر فينا شيئًا. إذًا متى يتغيَّر الإنسان إن لم يكن في هذا الشَّهر بما يحمل ويحيط به من خصائص ومميِّزات فريدة وتأثير؟ أليس شهر رمضان موسمًا متكاملًا ودورة تدريبية وإعدادًا متكاملًا للمسيرة؟! ولذلك جاء في خطبة للرَّسول ﷺ قبيل شهر رمضان: «فإنَّ الشَّقيَّ من حرم غفران اللَّه في هذا الشَّهر العظيم»[٢]، فهو تأكيد على أهمِّيَّة التَّغيير والإرادة والتَّزكية والالتزام بأبعاد الصِّيام المختلفة.

الخلاصة: إنَّ السِّياسة الإسلاميَّة المتَّبعة والنَّهج القويم هي الاعتدال، وهو حسن التَّدبير للأمور والمال والعيش، وليس من ذلك التَّبذير والإسراف

(١) جامع أحاديث الشيعة، السيد البروجردي، ج٩، ص٢٤٤.
(٢) وسائل الشيعة، ج١٠، ص ٣١٣.

المحرَّم وليس كذلك هو البخل، وإنَّما المطلوب هو القصد والاقتصاد، قال تعالى: ﴿**وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا**﴾[١]، فالمال هو قوام للإنسان وعصب للحياة، ولأجل ذلك لا بدَّ من سياسة حكيمة وتدبير، ففي الرِّواية: «الاقتصاد نصف المؤونة»[٢]. فالمطلوب هو سياسة الادِّخار لكلِّ ما هو زائد عن المأمونة، من أجل مواجهة الظُّروف والتَّحوُّلات والأزمات الاقتصاديَّة، وحالات الفقر الَّتي تضرُّ بالإنسان ودينه، كما في الرِّوايات بأنَّ الفقر يقود الإنسان إلى الكفر، ولذلك جاء في الرِّواية أيضًا: «ما عال من اقتصد»[٣]، والتَّوسعة في الإنفاق على النَّفس والأولاد والأهل في حدود وضوابط لا ينافي الاقتصاد، بل هو مستحبّ شرعًا، كما ينبغي النَّظر في أهمِّيَّة الإنفاق على الفقراء والمحتاجين من أجل انتشالهم من الانحرافات، فذلك مقتضى الإيمان والتَّقوى والأخلاق والإحسان، قال تعالى: ﴿**وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَعْلُومٌ * لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ**﴾[٤]، فكلُّ ذلك يخدم هدف الإنسان ومصيره وإصلاح الحياة للنَّاس والتَّطلُّع إلى مستقبل مشرق.

كما ينبغي النَّظر في تلك السِّياسات الاقتصاديَّة من قبل الحكومات من أجل تأمين الكرامة الإنسانيَّة وتحقيق العيش الرَّغيد والرَّفاهية والاستقرار والأمن الَّتي تتطلَّع إليها الشُّعوب، وتحقيق البناء والتَّقدُّم والازدهار، ولا تكتفي وتعتمد على سياسات من شأنها تهميش الإنسان وإذلاله وتكريس التَّبعيَّة للآخرين، بل لا بد من الاستقلاليَّة وسياسة الإنتاج لتحقيق الاكتفاء

(١) سورة الفرقان، الآية ٦٧.
(٢) غرر الحكم ودرر الكلم، ص ٣٨.
(٣) نهج البلاغة، ص ٤٩٤، الحكمة رقم ١٤٠.
(٤) سورة المعارج، الآية ٢٤ - ٢٥.

الذَّاتيِّ، ولكي لا نرى تلك المظاهر السَّلبيَّة مثل التَّسوُّل والجرائم مثل السَّرقات وتعاطي المخدِّرات الَّتي باتت تهدِّد الأسرة والمجتمعات، وتُسبّب بالقيام بأبشع صور الجريمة من قتل وحرق دون وعي وإدراك.

فالمطلوب إذًا هو وضع السِّياسات الاقتصاديَّة الحكيمة أوَّلًا، والاستغلال الأمثل للنِّعم والخيرات وتوجيه الطَّاقات والإمكانات في سبيل التَّقدُّم والتَّطوُّر والنُّهوض وتحقيق الرَّفاهية، والتَّطلُّع إلى مستقبل مشرق.

رابعًا: هدم الدين والأخلاق:

هذا هو المستهدف أوَّلًا وأخيرًا، حتَّى يسهل على الاستعمار الجديد السَّيطرة المستحكمة، وحينها لا يجد المسلمون تلك المقاومة مثل ما كان أمام القوَّة العسكريَّة في الماضي، من هنا نجد الهجمة الشَّرسة عبر الأفكار وموجة الإلحاد والتِّجارة بالجنس والدَّعوات للمثليَّة والمخدِّرات وتشويه صورة الإسلام واتِّهامه بالإرهاب والتَّخلُّف، عناوين مختلفة لكنَّها تصبُّ في هدف واحد، ولقد استغلَّ الغرب تمام الاستغلال الوسائل المتطوِّرة والأجهزة الذَّكيَّة لتحويل هذه الثَّقافة إلى مشروع من مهمَّته استهداف الدِّين وتقويض مبادئه وقيمه بعد أن سيطر على ثروات وخيرات المجتمعات العربيَّة والإسلاميَّة.

وكان لهذه الثَّقافة والمشروع تأثير كبير على أبناء الأمَّة وشبابها، فترى هذا الهدم والتَّأثير في فكرهم وعاداتهم وسلوكهم، حيث نجد البعد والعزوف عن الدِّين والتَّمسُّك بالقشور والانشغالات عن الاهتمامات والمسؤوليَّات الحياتيَّة والاجتماعيَّة، ولهذا نجد تلك التَّحوُّلات الخطيرة في حياة الأمَّة

والَّتي تعيق مسيرتها، وكذلك مواجهتها للتَّحدِّيات ومشاريع العدوِّ الَّذي لا يرحم.

إذًا ما هو الحلُّ والمخرج وما هو السَّبيل؟ خصوصًا إذا نظرنا إلى تلك التَّحدِّيات الدَّاخليَّة الَّتي لا تقلُّ تأثيرًا سلبيًّا، من خلال تلك السِّياسات الحاكمة والَّتي تصبُّ في خدمة الأعداء. وبعبارة أخرى: إنَّ هذه السِّياسات الدَّاخليَّة تُكرِّس القابليَّة لتلك التَّأثيرات الاستعماريَّة ولا تقف في وجهها، ولهذا يجب العودة لثقافة الإسلام وتجذيرها وليس الاكتفاء ببعض حدوده، إنَّما ينبغي أن تُعبِّر هذه الثَّقافة عن مبادئه وقيمومته وأهدافه وأهليَّته، وقدرته على مواجهة كلِّ التَّحدِّيات والمخاطر والظُّروف والأزمات، وهذا لا يكون إلَّا بالاستجابة العقديَّة والفكريَّة والثَّقافيَّة أوَّلًا، لأنَّها الأساس في التَّغيير والتَّحوُّل سواء على مستوى الأفراد أو الأمَّة، وهذا هو التَّحدِّي الأكبر في المشروع الإسلاميِّ، فما زالت الأمَّة مقيَّدةً ومكبَّلةً من كلِّ النَّواحي نفسيًّا وفكريًّا وثقافيًّا بسبب ما أحاطها من ظروف في الماضي والحاضر، ولذلك نجد العزوف وقلَّة الاهتمام بثقافة الإسلام خصوصًا عند الشَّباب المسلم، وفي ظلِّ تأثيرات العصر والانفتاح، وهذا هو سبب آخر وهو ضعف الحصانة والوقاية أمام الغزو الثَّقافيِّ.

من هنا يجب العودة الحقيقيَّة والفعليَّة إلى ثقافة الدِّين والقرآن وتاريخ الأمجاد والقدوات الَّذين ضحَّوا بكلِّ ما يملكون من أجل العزَّة والكرامة ونصرة الحقِّ والدِّين.

إذًا الخطوة الأولى والأساسيَّة في إحداث التَّغيير المأمول هو الاستجابة للنِّداء القرآنيِّ، قال تعالى: ﴿**اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا**

يُحْيِيكُمْ﴾[١]، ولا تقتصر هذه الاستجابة على بُعد واحد، بل هي شاملة لكلِّ الأبعاد الحياتيَّة والاجتماعيَّة وحتَّى السِّياسيَّة، أي شموليَّة الدِّين لكافَّة الحياة وليس الاقتصار على العبادات والشَّعائر التَّكليفيَّة المحدودة من صلاة وصوم وحجّ.

ولذلك نرى الفجوة الواسعة بين الإسلام والواقع، وبين الشَّباب بالخصوص، من هنا جاء التَّأكيد على أهمِّ الأبعاد، قال تعالى: ﴿**وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ**﴾[٢]، إذًا هناك أبعاد حيويَّة تركِّز عليها الآية المباركة ترتبط بالحياة والأمَّة، والَّتي ترتبط بمسيرتها ومصيرها، تبرز حيوية المجتمع وخياراته الحيويَّة، فمن دونها يفقد النَّاس كرامتهم ومبرِّر وجودهم، فهي رسائل ضروريَّة وحضاريَّة نشير إليها من الآية:

١- البعد الدِّينيُّ والرُّوحيُّ، ﴿**وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ**﴾، فالصَّلاة رمز للدِّين والعقيدة والعبادة والالتزام، وتجسيد للإيمان والصَّلاح، قال تعالى: ﴿**الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ**﴾[٣]، فهي الترجمان ودائمًا في المقدَّمة لسائر التَّكاليف، والصَّلاة المعنيّ بها لا تكون إلَّا عن معرفة وليس مجرَّد التزام وطقوس، قال تعالى: ﴿**قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ * الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ**﴾[٤]، فهذه المعرفة هي أساس التَّأثير والخشوع وتحصيل التَّقوى

(١) سورة الأنفال، الآية ٢٤.
(٢) سورة الشورى، الآية ٣٨.
(٣) سورة البقرة، الآية ٣.
(٤) سورة المؤمنون، الآية ١ - ٢.

واجتناب المعاصي والذُّنوب، قال تعالى: ﴿**إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ**﴾[1]، فهذه حقيقة القيام بالصَّلاة، وليس مجرَّد أدائها وإتيانها.

٢- البُعد السِّياسيُّ: ﴿**وَأَمْرُهُمْ شُورَى**﴾، وهو الَّذي يُعبِّر عن إرادة الشَّعب[2] فيما تحكمه من سياسات وقرارات ومناهج تصوغ حياة المجتمعات؛ ولذلك يجب على الشُّعوب أن تختار لمسيرتها الدَّساتير والمرجعيَّات الَّتي تتضمَّن القوانين والقيم والمبادئ الكفيلة بتحقيق كرامتها وتقدُّمها وازدهارها، ولا يتمُّ ذلك إلَّا عبر صيغة وتوافق أو عقد اجتماعيّ ينبثق منه دستور للتَّوثيق، يقوم بكتابته مختصُّون، ليُعبِّر عن إرادة الشَّعب.

إنَّ تجاهل وتهميش هذا الدَّور المصيريِّ يعدُّ كارثةً في حياة الإنسان والمجتمعات، بأن يتحكَّم في مصيرها من لا شرعيَّة له ولا أهليَّة، من خلال فرض القوَّة وسياسة الاستبداد والقهر والغلبة، ولذَّلك ينبغي على الشُّعوب أن تُكافح من أجل حرِّيَّتها واستعادة كرامتها وقدرتها على تحقيق أهدافها وتطلُّعاتها المشروعة والحضاريَّة.

ومن المؤسف أنَّنا نجد: من يُبرِّر هذه السِّياسات الظَّالمة والاستبداديَّة الَّتي تتربَّع اليوم على إرادة الشُّعوب العربيَّة والإسلاميَّة، وتتحكَّم في مصيرها، وتكرِّس التَّخلُّف والتَّبعيَّة لسياسات الأعداء باسم الدِّين والشَّرع، وتحت

(١) سورة العنكبوت، الآية ٤٥.

(٢) أي النظام السياسي والمعمول به هو النظام الليبرالي الذي يقسّم السلطة إلى ثلاث: السلطة التشريعية (الشورى/ البرلمان)، السلطة القضائية، السلطة التنفيذية (الحكومة)، وخلفية هذا التقسيم هو لضمان النظام الرأسمالي الذي يُكرّس الطبقية والدفاع عنه ضد الفقراء والمحرومين. ومع ذلك يعتبر هو النموذج الأمثل والقابل للتطبيق دون النظر إلى خلفيات الأيديولوجية إلا أن يكون هناك تطور في المستقبل.

تعاليم وتوجيهات مكذوبة ولا أساس لها من الصِّحَّة والدِّين، بل هي مخالفة صريحة للقرآن الَّذي يؤكِّد على إنكار الظُّلم والفساد، قال تعالى: ﴿**لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ**﴾[1]، ﴿**وَلاَ تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ * الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ**﴾[2].

إنَّ الدِّين يرفض هذا السِّياسات الخطيرة والأيديولوجية الفاسدة، والثَّقافة المنحرفة؛ ولذلك حذَّر من علماء السُّوء والمنافقين الَّذين يكرِّسون مثل هذا العقيدة والثَّقافة باسم الدِّين، بينما هم يطيعون الطُّغاة ويُنفِّذون أوامرهم ويشرعون سياساتهم، فينبغي الحذر وكشف هذه الأقنعة والتَّبريرات الَّتي تقوم على أساسها، ونقدها بالطُّرق السِّلميَّة والمشروعة.

٣- رسالة العطاء ﴿**وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ**﴾: وهي تمثِّل روح الأخلاق والحضارة، وحيويَّة المجتمع، فالعطاء هو عنوان للإنسان الواعي وضميره الحيِّ، وكذلك الشُّعوب الخيِّرة والواعدة، والَّتي تتطلَّع إلى البناء والإصلاح والتَّقدُّم، ولذلك نجد في الإسلام أهمِّيَّةً بالغةً لقيمة العطاء لما لها من تأثير على شخصيَّة الإنسان، ومن جهة أخرى لتقوية أواصر المحبَّة والرَّحمة والتَّعاون، فالمجتمع الَّذي تسوده هذه الرُّوح يصبح مرشَّحًا للسَّعادة، ويساهم في القضاء على الكثير عوامل التَّخلُّف وتفشِّي الجريمة والسَّير في متاهات الحياة، ولذلك نجد القرآن ومفاهيم الإسلام تركّز على هذا البعد الإيمانيِّ والأخلاقيِّ والحضاريِّ، فمن جهة تعتبر البخل والأنانيَّة وحبَّ الذَّات والانطواء من عوامل السُّقوط في شخصيَّة الإنسان، وعقبة في طريق الخير

(١) سورة البقرة، الآية ١٢٤.
(٢) سورة الشعراء، الآية ١٥١ - ١٥٢.

والصَّلاح، قال تعالى: ﴿**فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ * فَكُّ رَقَبَةٍ**﴾[١]، وقال: ﴿**وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ**﴾[٢].

فطريق الفلَّاح يأتي من تجاوز هذا العقبة، ومن التَّفكير السَّويِّ لقيمة العطاء، فهناك تلازم في ثقافة الدِّين والإسلام بين الإيمان والأخلاق، وبين الأخلاق والعطاء، ولا تفريق بينهما؛ لأنَّ ذلك له دواعٍ سلبيَّة وإبعاد خطيرة في إيمان الإنسان ودوره في الحياة والمساهمة في بناء المجتمع، والدَّلائل على ذلك كثيرةً لا حصر لها في الحثِّ على البذل والعطاء سواء للفقراء أو المحتاجين وكذلك في كلِّ وجوه الخير والصَّلاح الَّتي تنهض بالمهامِّ والمسؤوليَّات.

ومن هنا ينبغي التَّأكيد على القدوات في هذا المجال الَّذين لم يكتفوا بالعطاء بالمال أو الكلمة، وإنَّما ضحَّوا بأنفسهم وأهليهم من أجل الدَّين والكرامة. فحينما يتحدَّث القرآن عن سيرة النُّبلاء والكرماء والإيثار كلّ ذلك من أجل أن يرسم لنا الطَّريق المُعبّد إلى الجنَّة وإلى الفلَّاح في الدُّنيا، يشير القرآن إلى ذلك قال تعالى: ﴿**وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا**﴾[٣]، ﴿**وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ**﴾[٤]، وفي الرِّواية عن الإمام الرِّضا عليه السلام: «السخي قريب من اللَّه قريب من الجنَّة قريب من النَّاس»[٥].

(١) سورة البلد، الآية ١١ – ١٣.
(٢) سورة الحشر، الآية ٩.
(٣) سورة الإنسان، الآية ٨.
(٤) سورة الحشر، الآية ٩.
(٥) عيون أخبار الرضا عليه السلام، ج٢، ص ١٢.

والعطاء فضيلة عظيمة، لا بدَّ أن تتحوَّل إلى ثقافة عامَّة في المجتمع وأن يشجّع النَّاس عليها والدَّفع بهذا الاتِّجاه، يقول تعالى: ﴿**خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ**﴾[١]، لأنَّها تجسِّد المحبَّة والتَّلاحم والرَّحمة، قال تعالى: ﴿**وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ**﴾[٢]، وقد اختصر أحد العلماء فلسفة العطاء وقال: «أنفقوا كي تتقدَّموا»[٣].

أمَّا الحديث عن الأخلاق بشكل عامّ فسوف يكون موضع اهتمام ومفصَّل في طيِّ الكتاب لأنَّها الجسر الحقيقيُّ لحيويَّة المجتمع وعلاقاته وروابطه، والمعيار والمؤشِّر كذلك للوعي والالتزام الصَّحيح، ولهذا يسعى الأعداء للدِّين ولهذه الأمَّة لمسخ العقيد ة والأخلاق، وتفريغها من مضامينها وتأثيراتها، لتحلَّ بدلها الرُّوح الأنانيَّة والمصالح الشَّخصيَّة.

أمَّا اليوم فالمهمَّة هو القضاء على الدِّين والأخلاق في كلِّ الأبعاد، لكنَّ هذا الدِّين عصيّ عليهم، فهو الصَّخرة الَّتي لا يمكن تفتيتها بمعاولهم؛ لأنَّه يمثِّل الأصالة والحقيقة، وينسجم مع الفطرة الإنسانيَّة، ويتَّفق مع ناموس الكون وسُنن الحياة، ولكن تبقى المهمَّة الأخرى تكمن في دور الأمَّة ووعيها ووحدتها وكذلك عطائها؛ لأنَّ ذلك شرط أساسيّ في تحقيق البناء، ولذلك جاء الحثُّ على العطاء بالمال والجاه وحتَّى بالكلمة الطَّيِّبة، قال تعالى: ﴿**أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَاعَةٌ**

(١) سورة التوبة، الآية ١٠٣.
(٢) سورة البلد، الآية ١٧.
(٣) السيد محمد الشيرازي قدس سره.

﴿وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾[١]، وفي الرِّواية عن الإمام علي عليه السلام: «من أيقن بالخلف جادّ بالعطيَّة»[٢].

والحديث عن كلِّ ذلك في الشَّهر الكريم والمبارك هو فرصة ثمينة للأخذ بالأسباب والمعالجات والإصلاحات، فشهر الصِّيام يعتبر موسمًا كاملًا لتحقيق ما نصبوا إليه، فهو شهر العبادة، وكذلك شهر التَّغيير وبناء الإرادة والقدرة والوحدة؛ لما يحمل من شعارات ومضامين في كلِّ الأبعاد، لكن من الضَّروريِّ والأساسيِّ أن ينصبَّ الاهتمام بالبعد الثَّقافيِّ والفكريِّ، لسببين رئيسين وهما:

١- لأنَّ الثَّقافة هي الأساس في التَّغيير والوعي في حياة الإنسان والمجتمعات، فهي الخطوة الأولى، وكلَّما كان هناك اهتمام بهذا الجانب اقتربنا من هذا الهدف، خصوصًا الثَّقافة الإسلاميَّة لما لها من أصالة وروح وعمق إيماني وأخلاقيّ، فهي متجذِّرة تمسُّ حياة البشريَّة وواقعها، ولذلك لا تقبل الهزيمة مهما واجهت من تحدِّيات، وهذا ليس كلامًا سرديًّا أو عاطفيًّا ولكن من صميم التَّجربة الإنسانيَّة والأحداث والتَّاريخ، فقد تجد عبر التَّاريخ أفول لهذه الثَّقافة وخفقات أحيانًا بسبب إمَّا التَّخلُّف أو الهجوم الشَّرس والحملات العدائيَّة من قبل الأعداء لتشويه الصُّورة ورشقها بالاتِّهامات المختلفة، لكن كلّ ذلك لا يكفي لضمورها وإخفائها بشكل كامل وتامّ.

٢- هو ما نجده من الاهتمام بالجانب العباديِّ فقط، من الصِّيام

(١) سورة البقرة، الآية ٢٥٤.
(٢) وسائل الشيعة، ج١٦، ص ٢٨٨.

والصَّلاة وحتَّى قراءة القرآن والدُّعاء، وإحياء ليالي القدر، لكن بصورة قشريَّة لا تنفذ إلى المضمون والمحتوى والأهداف، ولذلك نجد تأثير ذلك موقَّتًا وآنيًّا لا يتعدَّى مدَّة الشَّهر، بينما المطلوب أن يكون الشَّهر الكريم محطَّةً للانطلاق وقطار للتَّغيير والتَّقدُّم في كلِّ الأبعاد، وهذا لا يتمُّ إلَّا من خلال الاهتمام بالقراءة والثَّقافة.

فمن أهمّ خصائص هذا الشَّهر هو نزول القرآن الكريم فيه، ممَّا يعني مناسبة لتخليده وكذلك الاهتمام بقراءته والتَّدبُّر فيه، وليس القراءة من أجل البركة أو الاقتصار على قراءة السُّور المستحبَّة بخصوص ليالي القدر؛ لأنَّ هدف القرآن ونزوله هو الهداية للدِّين والتَّسلُّح بالثَّقافة وتبنِّي الرُّؤى والأفكار، قال تعالى: ﴿**شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ**﴾[١]، فما أحوجنا إلى القرآن والالتصاق به وفهمه وتفسيره، فهو المخرج لكلِّ المشاكل والفتن والأزمات، وهو الهادي إلى الصِّراط المستقيم.

من هنا جاء التَّأكيد على التَّدبُّر في آياته وليس الاكتفاء بالقراءة العابرة، قال تعالى: ﴿**أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا**﴾[٢]، وقال: ﴿**كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ**﴾[٣]، فهو كتاب مبارك، ولتحقيق هذا البركة والنُّموّ والتَّنمية للعقول والنُّفوس وتحريرها من الجهل والعقد والعادات والحجب نحتاج إلى التَّدبُّر والتَّأمُّل؛ لأنَّ القراءة وسيلة للتَّدبُّر والفهم، ولذلك ينبغي الاهتمام بالكيف وليس بالكم، وفي الحديث

(١) سورة البقرة، الآية ١٨٥.
(٢) سورة محمد، الآية ٢٤.
(٣) سورة ص، الآية ٢٩.

عن الرَّسول ﷺ: «ولا يكن هم أحدكم آخر السُّورة»[١]، فكيف إذا استُغلَّ وقُرئ وفُسِّر على غير هدى أو من أجل المصالح وتكريس السِّياسات الظَّالمة، أو لا يجد الطُّرق للعمل والتَّطبيق، فكلُّ ذلك لا ينفع الإنسان، بل يصبح وبالًا وإثمًا وسوءًا، ففي الحديث: «كم من قارئ للقرآن والقرآن يلعنه»[٢]، وفي وصيَّة الإمام علي عليه السلام لولديه (الحسن والحسين عليهما السلام) وفي الشَّهر الكريم: «اللَّه اللَّه في القرآن، لا يسبقنكم بالعمل به غيركم»[٣]، فهو تأكيد لهذه الحقيقة والفكرة.

ومن المهمِّ أن نعطي اهتمامًا للثَّقافة من خلال الاهتمام بالقراءة والاطِّلاع، وتكون البداية والانطلاق والتَّأسيس من هذا الشَّهر، ولتصبح مشروعًا في حياة كلِّ إنسان مسلم.

وممَّا يشار إليه هو العزوف شبه الكامل عن القراءة خصوصًا من فئة وشريحة الشَّباب، فكثير منهم يستثقل ذلك، والبعض يكتفي بالاستماع إلى عالم أو الخطيب حسب المناسبات، لكن لا يكون ذلك برنامجًا أو في قائمة الأولويَّات، وهذه مشكلة وأزمة حضاريَّة في حياة الأمَّة، وانتكاسة لبنيتها الأساسيَّة، حتَّى قيل عن ذلك: «أمَّة اقرأ ولا تقرأ: نسبة للآية في قوله تعالى: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾[٤]، ﴿اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ * الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ﴾[٥]، والآية نفسها تدلُّ أعلى أهمِّيَّة القراءة لتحقيق المعرفة باللَّه سبحانه، فأيُّ

(١) الكافي (ط - دار الحديث)، ج٤، ص ٦٢٩.
(٢) مستدرك الوسائل و مستنبط المسائل، ج٤، ص ٢٥٠.
(٣) نهج البلاغة، ص ٤٢٢.
(٤) سورة العلق، الآية ١.
(٥) سورة العلق، الآية ٣ - ٤.

كرامة ومكرمة أعظم من العلم، من هنا تبرز قيمة الإنسان وتفاضله عن غيره من النَّاس، يقول تعالى: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾[١]، ويقول الإمام علي عليه السلام: «قيمة المرء ما يحسنه»[٢] أي يعلمه.

والجدير بالذِّكر أنَّنا نجد صعوبة في إقناع الشَّباب من الجنسين للاهتمام بالقراءة الدِّينيَّة والإسلاميَّة، بينما نجدهم يصرفون ويهدرون الكثير من أوقاتهم في متابعة المسلسلات وقراءة الصُّحف والمجلَّات الرِّياضيَّة والفنِّيَّة وغيرها من الألف إلى الياء وفي أدقِّ التَّفاصيل. وفي الحاضر سهَّلت وسائل التَّواصل نقل المعلومات التَّفصيليَّة عن النُّجوم والمشاهير في هذه الميادين عن حركاتهم وتنقُّلاتهم وأجورهم وحتَّى عن حياتهم الخاصَّة، وقد وجدنا بعض الأطفال دون سنِّ التَّكليف والبلوغ من يحفظ كلّ ذلك عن ظهر قلب وكأنَّه يقوم بعملية تحضير لمادَّة الاختبار، فما ذا يعني ذلك؟

إذًا نحن بحاجة ضروريَّة إلى غربلة وتصفية للعقول والنُّفوس قبل أيِّ شيء، وشهر رمضان فرصة للتَّقييم والمراجعة والنَّقد البنَّاء بهذا الخصوص، كي نستثمر هذا الشَّهر الكريم خير استثمار والحياة بشكل عام، قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾[٣].

(١) سورة الزمر، الآية ٩.
(٢) بحار الأنوار (ط - بيروت)، ج٦٢، ص ٤٩.
(٣) سورة الرعد، الآية ١١.

مقدمة

شهر رمضان الكريم موسم ليس فقط للعبادة، وإنَّما أيضًا حقل للمعرفة والقراءة والثَّقافة، من أجل نقلة نوعيَّة، واستفادة حقيقيَّة، واستثمار للوقت الثَّمين للشَّهر الكريم وللحياة، وإحاطة كاملة للمضامين والمحتويات والأبعاد الحيويَّة الَّتي يزخر بها شهر الصِّيام؛ ولذلك نجد ذلك الاهتمام في القرآن والإسلام على الرَّابطة والتَّوثيق بين العبادة والعلم والتَّفكير، ففي الحديث: «ليست العبادة كثرة الصِّيام والصَّلاة، العبادة التَّفكُّر في أمر اللَّه جل وعلا»[1]، بل إنَّ أساس الدِّين وأوَّله هو معرفة اللَّه، وهذه هي الغاية الأسمى.

من هنا ينبغي التَّركيز على هذا البعد، بينما نجد ذلك التَّهميش للمعرفة والثَّقافة. ويمكن الوقوف عند هذه الآية المباركة لنستجلي هذا البعد المعرفيِّ وأهمِّيَّته خصوصًا في الشَّهر الكريم، قال تعالى: ﴿**الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ**﴾[2]، فهي تشير إلى حقائق:

١- الذِّكر للَّه ﴿**يَذْكُرُونَ اللَّه**﴾ وهو المعرفة للَّه واستحضار عظمة

(١) الفقه المنسوب إلى الإمام الرضا عليه السلام، ص ٣٨٠.
(٢) سورة آل عمران، الآية ١٩١.

الخالق وجلاله في النُّفوس والقلوب، وأنه من يستحقُّ العبادة الخالصة، ويتجلَّى ذلك في الإقبال على اللَّه والخشوع، قال تعالى: ﴿**إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ**﴾[١]، فالخشوع هو نتيجة لهذه المعرفة.

من هنا نعرف أنَّ كلَّ العبادات والالتزامات والتَّكليفات ما هي إلَّا وسيلة لتحقيق هذا الذِّكر دائمًا وأبدًا، ولا يقتصر هذا الذِّكر على العبادات الخاصَّة المكلَّف بها الإنسان، بل في كلِّ الحياة الَّتي تشمل حركة الإنسان وسعيه وتطلُّعاته، ويترسَّخ ذلك بالالتزام بالمنهج الرَّبَّانيِّ والسَّير في الخطِّ المستقيم، قال تعالى: ﴿**قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ**﴾[٢]، إذًا حتَّى الصَّلاة الَّتي تتقدَّم على سائر العبادات والتَّكاليف وتؤدَّى خمس مرَّات في اليوم واللَّيلة ما هي إلَّا وسيلة لتحقيق الذِّكر، قال تعالى: ﴿**أَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي**﴾[٣].

٢- التَّفكُّر ﴿**وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ**﴾، وهو الوسيلة الناجعة لتحقيق مفاهيم الإسلام، ولذلك يعتبر من أهم العبادات وأفضلها، فهو أيضًا السَّبيل لتحقيق وتعميق المعرفة باللَّه أوَّلًا، بالأدلَّة والبراهين، والوصول إلى اليقين، أي إلى الحالة من الثَّبات والاطمئنان. فالتَّفكير السَّويُّ هو الَّذي يقود الإنسان إلى اللَّه سبحانه، وإلى التَّمسُّك بالدِّين الصَّحيح، وكذلك يقود الإنسان إلى الالتزام بالتَّعاليم، ويُسلّحه بالوعي والثَّقافة الحياتيَّة وأبعادها المختلفة. وهذا الأمر يعتبر من أهمِّ الغايات للدِّين، يقول الإمام

(١) سورة فاطر، الآية ٢٨.
(٢) سورة الأنعام، الآية ١٦٢.
(٣) سورة طه، الآية ١٤.

علي عليه السلام: «إنَّ للدِّيَان غايات فانتهوا به إلى غاياته»[١]، فهو السَّبيل إلى التَّديُّن والأخذ بالحقائق وليس التَّديُّن القشريّ والالتزام القهريّ النَّابع من الجهل أو اتِّباع العادات والتَّقاليد أو الاحتكام إلى الأهواء والمصالح، ليصبح الدِّين مطيَّةً وفي حدود معيَّنة، قال تعالى: ﴿**وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ**﴾[٢]. وليس التَّفكُّر المطلوب من فراغ، إنَّما التَّفكُّر في الموجودات والآيات الَّتي خلقها اللَّه وأوجدها وأبدعها من لا شيء، فهي تُمثِّل المادَّة الخصبة الَّتي تدلُّ على قدرته وحكمته وعلمه، وكلِّ صفاته، وعلى الهدف المرسوم والفلسفة من الخلق، قال تعالى: ﴿**الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى**﴾[٣]. وهذه الهداية هي الهداية الَّتي تقودنا إلى الهدف من الحياة والفلسفة من الخلق. وهذا ردّ على تلك الاتِّهامات والأكاذيب الَّتي تصم الدِّين بأنَّه خرافة، والقول بالصُّدفة، أو أنَّه دين قاصر ولا يواكب الحضارة، وهذا هو منطق العبثيَّة والجهل، قال تعالى: ﴿**أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا**﴾[٤]، وهذا هو الفارق بين التَّفكير السَّويِّ القائم على الأدلَّة والمعطيات الحياتيَّة والكونيَّة، وبين الأضاليل من الأفكار والثَّقافات والنَّظريَّات المخترعة نتيجة الفراغ واتِّباع الأهواء وعدم الانصياع لنداء الفطرة الَّتي فطر اللَّه النَّاس عليها. ولو بحثنا في قاموس مادة التفكير والتفكر في القرآن والسنة المطهرة لوجدنا العجب العجاب على كثرتها في النصوص، مما يدل على قوامة ومتانة هذا الدين والإسلام، الذي يدعو الى البناء المحكم ويشيد أركان الحضارة الإنسانية.

---

(١) نهج البلاغة، خطب الإمام علي عليه السلام، ج٢، ص٩٢.
(٢) سورة الحج، الآية ١١.
(٣) سورة طه، الآية ٥٠.
(٤) سورة المؤمنون، الآية ١١٥.

٣- دخول الجنَّة ﴿**وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ**﴾، وقبل ذلك هنا تأكيد على تسبيح الله، أي تنزيهه من عيب وعبث ونقص، فهو القدرة والحكمة المتعالية، وهو ما يستلزم وجود العدل والهدفية التي تفضي إلى السعادة الأبدية وهو الجنة، أو العذاب ودخول النار، وهو المطلب والغاية الَّتي يتطلَّع كلّ مؤمن ليجاور الصَّالحين ويفرُّ من مجاورة اللِّئام وأهل النَّار، قال تعالى: ﴿**فَمَنْ زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ**﴾[1]، فمن الواضح أنَّ دخول الجنَّة مطلب وغاية عظيمة، لكنها أيضًا صعبة المنال، أي يتطلَّب أوَّلًا الهداية من اللَّه بأن يسير الإنسان على هدى اللَّه من خلال الوعي والفهم والثَّقافة الإسلاميَّة الصَّحيحة، ومن أهمِّها التَّدبُّر للقرآن الكريم، فهو مائدة الرَّحمن، وكذلك الالتزام بالنَّهج النَّبويِّ والعترة الطَّاهر؛ لأنَّهما المنجيان والمعصومان من الانحراف والضَّلال، قال تعالى: ﴿**قُلْ إِنَّ الْهُدَى هُدَى اللَّهِ أَنْ يُؤْتَى أَحَدٌ مِثْلَ مَا أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَاجُّوكُمْ عِنْدَ رَبِّكُمْ قُلْ إِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ**﴾[2]، وقال: ﴿**وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا**﴾[3]، وقد أمرنا الرَّسول ﷺ باتِّباع العترة الطَّاهرة ووصَّى بهم، فيجب الاسترشاد بهما، وتحقيق الرُّؤية والبصيرة الإيمانيَّة في الحياة، ثمَّ بعد ذلك تحويل هذه الإيمان والرُّؤية إلى مشروع وبرامج وعمل جادّ وسعي وكدح.

ولذلك لا يمكن الاعتماد والاتِّكال على الأمنيات والأحلام والشِّعارات، كما هو ديدن اليهود والنَّصارى وغيرهم، حيث تحدَّث عنهم

(١) سورة آل عمران، الآية ١٨٥.
(٢) سورة آل عمران، الآية ٧٣.
(٣) سورة الحشر، الآية ٧.

القران وفضح أفكارهم وعقائدهم وأطماعهم، فمن أحلامهم قالوا: ﴿**لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَةً**﴾[١]، وقالوا: ﴿**لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلاَّ مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ**﴾[٢].

ثمَّ يضع اللَّه سبحانه الأساس والقاعدة الَّتي تقوم عليها المعايير ليوم الحساب والجزاء: ﴿**بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ**﴾[٣]، فهذا هو القانون العامُّ والعدل وما جاءت به الرِّسالات، فالجميع يخضع لهذه الموازين الإلهيَّة الَّتي لا تتأثَّر بموازين الدُّنيا لأنَّها عدالة مطلقة، قال تعالى: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ آَمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آَمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآَخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ**﴾[٤].

أمَّا قوانين الدُّنيا فهي تخضع وتتأثَّر بعوامل كثيرة، مثل الواسطة والمال والقوَّة، والَّتي أشارت إليها الآية المباركة من أجل الحذر واليقظة: ﴿**وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنْفَعُهَا شَفَاعَةٌ وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ**﴾[٥].

فالعقيدة الفاسدة والانحراف في الرُّؤية هي أسباب هذا الضَّلال والانحراف والتَّخبُّط؛ ولذلك نجد أهل البيت والعصمة عليهم السلام يؤكِّدون بالخصوص على اتِّباعهم وشيعتهم من عدم الاتِّكاليَّة في حياتهم وآخرتهم

(١) سورة البقرة، الآية ٨٠.
(٢) سورة البقرة، الآية ١١١.
(٣) سورة البقرة، الآية ١١٢.
(٤) سورة البقرة، الآية ٦٢.
(٥) سورة البقرة، الآية ١٢٣.

على الشَّفاعة والحبِّ لأهل البيت عليهم السلام دون العمل والطَّاعة والالتزام والتَّقوى، فقد ورد الكثير من الأحاديث والرِّوايات الَّتي لا حصر لها، لكن من أجل الاختصار نقتطف هذه الرِّواية الدَّالَّة والواضحة على المقصود والمقام، روي عن الإمام الرِّضا عليه السلام: «لا تدعوا العمل الصَّالح والاجتهاد في العبادة اتِّكالًا على حبِّ آل محمَّد عليهم السلام، ولا تدعوا حبّ آل محمَّد عليهم السلام والتَّسليم لأمرهم اتِّكالًا على العبادة، فإنَّه لا يقبل من أحدهما دون الآخر»[1]، فهذه العقيدة الوسطية ومنهج الاعتدال.

الخلاصة: إنَّ هذه الحقائق تمثِّل مبدأ عامًّا وخطوطًا عريضة لصياغة جديدة في حياتنا، كي نعبر من خلالها إلى بقيَّة الأمور والاهتمامات، خصوصًا فيما يتعلَّق بالدِّين والإسلام كرسالة للحياة والبناء والتَّقدُّم والحضارة، وشهر رمضان يعتبر نافذةً واسعةً نُطلُّ بها على الكثير من الاهتمامات والأولويَّات في حياة الإنسان المسلم والمؤمن والأمَّة، وحتَّى لا يغرق الإنسان في اتِّجاه واحد تاركًا بقيَّة الأمور الأخرى الَّتي تصبُّ في الهدف نفسه ويحقّق التَّكامل.

أنَّ شهر رمضان بطابعه المتميِّز وخصائصه يؤكِّد على التَّكامليَّة في الأبعاد والاهتمامات بما يحقِّق الغاية، ومن أهمَّ هذه الأبعاد هو التَّأكيد على البنية الثَّقافيَّة والمعرفيَّة، فهي لا تقلُّ أهميةً في هذا البرنامج والإعداد، بل يعتبر هو أسَّ التَّغيير وتحقيق الثَّمرة من العبادات والطَّاعات المتنوِّعة والكثيرة الأخرى. إذًا البنية الثَّقافيَّة هي المدخل لبناء علاقة دائمة ومتأصِّلة وإيجابيَّة على كلِّ المستويات، وتتجلَّى في:

---

(١) الفقه المنسوب إلى الإمام الرضا عليه السلام، ص ٣٣٩.

أ- علاقة الإنسان بربه:

بأن تكون علاقة زاخرة بالإيمان والمعرفة والحبِّ والحيويَّة والنَّشاط، ليس لها حدود ولا فتور، حيث يتطلَّع فيها الإنسان المؤمن إلى رحاب فضل اللَّه وإحسانه، منيبًا إليه في كلِّ أوقاته، بحيث لا يجد غيره بديلًا ولا مأوًى، وإذا ما انحرف عن هذه الجادَّة أو أساء وأخطأ شعر بالذَّنب أو التَّقصير ليطلب من اللَّه العفو والمغفرة، قال تعالى: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ**﴾[1] وعبارة (طائف) تدلُّ على أنَّهم بعيدون عن وساوس وأضاليل الشَّيطان في الأساس، ونتيجةً لذلك يسير الإنسان والعبد في طريق التَّقوى، وهي المطلب الحقيقيُّ من الشَّهر الكريم، قال تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ**﴾[2]، فهذه العلاقة عابرة للزَّمان والمكان، ولا تتأثَّر بالظُّروف، ولا تقيِّدها المناسبات، ولا تحكمها المصالح الذَّاتيَّة، بل هي علاقة منفتحة على كلِّ الأبعاد الَّتي تُقرِّب الإنسان إلى ربِّه، وهذا هي الحكمة للشَّهر الكريم وبرنامجه المتنوِّع، ولهذا جاء في الحديث: «أيسر ما افترض اللَّه على الصَّائم في صيامه ترك الطعام والشراب»[3]، فالصَّوم يمثِّل بعدًا وجانبًا واحدًا فتأمَّل.

ب- علاقة الإنسان بالدنيا:

فطبيعة النَّفس البشريَّة أنَّها إمَّارة بالسُّوء، وتتطلَّع دائمًا إلى الامتلاك وحبِّ البقاء والثَّروة والجنس، قال تعالى: ﴿**زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ**

(١) سورة الأعراف، الآية ٢٠١.
(٢) سورة البقرة، الآية ١٨٣.
(٣) وسائل الشيعة، ج١٠، ص ١٦٤.

النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ﴾[1]، وهذه الأشياء المذكورة لا للحصر، والناس يختلفون في ميولاتهم ورغباتهم، فالتعدد في ذلك هو نتيجة لطبيعة الاختلاف، في مقابل ذلك يؤكد القرآن على التطلعات الخيرة والقيم فيقول بعد تلك الآية مباشرة: **﴿قُلْ أَؤُنَبِّئُكُمْ بِخَيْرٍ مِنْ ذَلِكُمْ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾**[2]، فيكفي في هذه المقارنة اتخاذ الموقف وتبني ما هو مطلوب في العلاقة مع الدنيا.

وفي الصحيفة السجادية المنسوبة للامام زين العابدين عليه السلام تعريف للنفس البشرية وميولاتها وأنها تعتبر العامل الأساسي في الانحراف، حيث يقول في مناجاة الشاكين: «إلهي أشكو إليك نفسًا بالسوء أمَّارة، وإلى الخطيئة مبادرة، وبمعاصيك مولعة، ولسخطك متعرضة» إلى آخره.

والحديث عن النفس هو الحديث عن الهوى الذي يزين للناس حب الدنيا، قال تعالى: **﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى * فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى﴾**[3].

وحينما يكون الهوى هو المتحكِّم في نفس الإنسان فإنه يصبح عبدًا وأسيرًا لأهوائه، ويصبح الهوى لإلها، والعياذ باللَّه، قال تعالى: **﴿أَرَأَيْتَ مَنِ**

(١) سورة آل عمران، الآية ١٤.
(٢) سورة آل عمران، الآية ١٥.
(٣) سورة النازعات، الآية ٤٠ - ٤١.

اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا﴾[١]، وهذا من أخطر أنواع العبودية وهو الهوى؛ لأنه يتلوَّن ويتصنَّع وليس له حدود، كما له تأثير في مصير الإنسان في الحياة وجوانبها المختلفة، بخلاف عبادة الأصنام مثلًا، فتأثيرها محدود، وقد يكون التأثير منفصلًا ومنقطعًا عن الحياة كما ترى.

وحقيقة هذا الأمر -أي الهوى- يتجسَّد في بعدين أساسيين هما الطغيان، وإيثار الحياة الدنيا، وهذان البعدان هما أساس في الانحراف وكل عوامل الشرور وارتكاب كل المعاصي والجرائم والفساد في الأرض، وهذا هو الفارق بين المؤمن الذي يُقيِّد مصالحه وأشياءه في إطار الشرع والعقل والمصلحة فيقول: ﴿**رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ**﴾[٢]، في مقابل من يقول: ﴿**فَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ**﴾[٣]، فقد يكون كافرًا أو منافقًا يعيش بين الناس، فهو يكتسب المال ويسعى لتحقيق الرغبات دون وجه حق، أي يسعى لتأمين ذلك بكلِّ الوسائل والسُّبل والطُّرق ولو غير مشروعة، فيكون بعيدًا عن اللَّه، وبذلك يصبح الإنسان ماديًّا؛ ولذلك يحتاج الإنسان إلى التَّوجيه والتَّربية الصَّحيحة من صغره ومرحلة الطُّفولة وحتَّى الشَّباب، فنغرس فيه القيم والمبادئ والأخلاق وتهذيب النَّفس، يقول الإمام علي عليه السلام في وصيَّته للحسن عليه السلام: «إنَّما قلب الحدث كالأرض الخالية ما أُلقي فيها من شيء قبلته، فبادرتك بالأدب قبل أن يقسو قلبك ويشتغل لبُّك»[٤]، وإلاَّ سوف ينقاد

(١) سورة الفرقان، الآية ٤٣.
(٢) سورة البقرة، الآية ٢٠١.
(٣) سورة البقرة، الآية ٢٠٠.
(٤) نهج البلاغة، ص ٣٩٣.

وينساق إلى هذه الطَّبيعة، ويؤثر نفسه على كلِّ شيء، ليصل إلى مرحلة من الطُّغيان، وحينها يسعى للخراب والدَّمار والبطش والهلاك، فلا يُقيم وزنًا للدِّين والقيم، بل يكفر باللَّه ويصدُّ عن سبيل الحقِّ، قال تعالى: ﴿**تَوَلَّى سَعَى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفَسَادَ**﴾[١]، وقال: ﴿**فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ**﴾[٢].

وما نراه من دمار وقتل وتشريد وظلم وفساد في الأرض ما هو إلَّا نتيجة لحبِّ الدُّنيا، أي إلى طبيعة التَّفكير المادِّيِّ الَّذي يكرِّس كلّ عوامل الشُّرور في الأرض، مثل التَّمييز العنصريِّ، والرَّأسماليَّة والاستعمار والاستبداد وتفشِّي الجرائم المختلفة، كلُّها نتائج لحبِّ الدُّنيا، والاستئثار بها.

وهذا يتطلَّب من الإنسان المؤمن المقاومة لهذه الرُّوح السَّلبيَّة حتى لا يترك لها مجالًا للطُّغيان أو تترعرع فتقوده إلى نسيان خالقه ونسيان يوم الجزاء والحساب، بأن يقف أمام أهوائه وشهواته، ويتربَّى على قيم الخير والعطاء ويفكِّر في الآخرين.

فحبُّ الدُّنيا لا يجتمع مع حبِّ اللَّه واتِّباع الحقِّ؛ لأنَّ الأهواء تزيِّن للإنسان الدُّنيا فيغترّ بها، وتستولي على همِّه وتفكيره فيضلُّ عن طريق الحقِّ وينسى يوم الجزاء والحساب، يقول الحقُّ: ﴿**وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ**﴾[٣].

---

(١) سورة البقرة، الآية ٢٠٥.
(٢) سورة محمد، الآية ٢٢.
(٣) سورة ص، الآية ٢٦.

فمن الضَّروريِّ وجود ثقافة صحيحة تربِّي الإنسان على الفضيلة والتَّقوى ليصبح مؤمنًا حقيقيًّا ويصطبغ بصبغة أخلاقيَّة وحضاريَّة، ويسعى لتزكية نفسه ويعتقها من البخل والأنانيَّة وحبِّ الذَّات الَّتي تقود الإنسان للتَّفكير الضِّيق والمصالح الشَّخصيَّة والآنيَّة، دون أن يكون له دور في إصلاح نفسه ومن حوله، أو يترك بصمةً في طريق النَّاس الفقراء والمساكين، قال تعالى: ﴿**لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ**﴾[١]، فالعطاء من هذا المنطلق هو منهج تربوي ورباني لما له من مردود إيجابي وتأثير على نفس الإنسان وقيادته لها، وليس العكس، الناشئ بسبب البخل والشح. ولقد حذَّرنا القرآن من ذلك، قال تعالى: ﴿**وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ**﴾[٢]، وفي الحديث: «لا يستكمل المرء الإيمان حتَّى يحبَّ لأخيه ما يحبُّه لنفسه»[٣]، فنحتاج إلى هذه التَّربية الواعية والمؤثِّرة في النُّفوس كي نحظى بالرَّحمة والعناية الرَّبَّانيَّة خصوصًا في شهر الرَّحمة البركة، وهذا من أهمِّ الدُّروس والقيم التي يؤكِّد عليها الشَّهر الكريم حتَّى قال الرَّسول ﷺ: «اتقوا النار ولو بشقِّ تمرة»[٤].

ولا يفهم من ذلك أن نزهد في الدُّنيا ونتركها للفاسدين والعابثين، وإنَّما لا تكون الهدف الَّذي يشغلنا ويستولي على همومنا ويأسر عقولنا، وأن نضع حدودًا وميزانًا للعلاقة، فالدُّنيا والآخرة ضرَّتان، فكلَّما اقتربت من أحدهما ابتعد عن الآخر، «الدنيا والآخرة عدوان متفاوتان وسبيلان مختلفان،

(١) سورة آل عمران، الآية ٩٢.
(٢) سورة الحشر، الآية ٩.
(٣) بحار الأنوار (ط - بيروت)، ج٦٩، ص ٢٥٧.
(٤) من لا يحضره الفقيه، ج٤، ص ٣٨٠.

فمن أحب الدنيا وتولَّاها أبغض الآخرة وعاداها، وهما بمنزلة المشرق والمغرب»[١]، وفي الحديث: «ليس منَّا من ترك دنياه لآخرته، ولا أخَّرته لدنياه»[٢]، فهي وسيلة ومتاع للآخرة، قال تعالى: ﴿**وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا مَتَاعٌ**﴾[٣]، والمتاع هو العمل الصَّالح والتَّقوى، وهو ما ينبغي علينا استغلالها واستثمارها في وجوه الخير، فالدُّنيا مزرعة الآخرة، وفي الختام المختصر يقول الإمام علي عليه السلام: «لا خير في العيش إلَّا لرجلين: رجل يزداد كل يوم خيرًا، ورجل يتدارك سيئةً بالتوبة، وأنَّى له بالتوبة؟! واللَّه لو سجد حتى ينقطع عنقه ما يقبل اللَّه منه ذلك إلَّا بولايتنا أهل البيت»[٤].

وهنا يتجلَّى البعد المعرفيُّ الثَّقافيُّ في طبيعة العلاقة مع الدُّنيا، وحقيقة الزُّهد فيها، وكيف نسخِّرها لتحقيق أهدافنا وتطلُّعاتنا المشروعة ودون أن نخسر آخرتنا. وهذا هو المنهج السليم والقويم، أما المناهج الأخرى فهي إما إفراط أو تفريط، فتأمل رعاك اللَّه.

ج- العلاقة مع الناس:

فكيف ننظر إلى النَّاس ونتعاطى معهم؟

إنَّ الإسلام يؤكِّد على ثلاث دوائر في طبيعة المعاملة:

الأولى: هي النَّظرة الإنسانيَّة مع جميع النَّاس، دون النَّظر إلى ألوانهم

(١) نهج البلاغة، بحار الأنوار، ج٧، ص١٤٩. الكافي، الشيخ الكليني، ج٢، ص٤٥٧.
(٢) وسائل الشيعة، ج١٧، ص ٧٦.
(٣) سورة الرعد، الآية ٢٦.
(٤) إرشاد القلوب إلى الصواب، الديلمي، ج١، ص ١٨٢.

أو إلى أديانهم وعقائدهم، فالوحدة الإنسانيَّة لا تتجزَّأ. ومن هذا المنطلق يجب حفظ حقوق الإنسان وعدم بخسه، قال تعالى: ﴿**وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ**﴾[١]؛ ولذلك نجد القرآن يؤصِّل لهذه الرَّابطة الإنسانيَّة كقاعدة للعلاقات البشريَّة والتَّعامل، والَّتي تؤسِّس لقيام منظومة من الحقوق والواجبات والقوانين الَّتي تحفظ هذه القيمة وعدم المساس بها أو تعرُّضها للإهانة أو الضَّرر، فهذا هو مقتضى الكرامة الَّتي حباها اللَّه لبني البشر على حدٍّ سواء، قال تعالى: ﴿**وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آَدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا**﴾[٢]، وقال تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ**﴾[٣].

فالنَّظرة الدُّونيَّة للإنسان على أساس العرق أو الطَّبقيَّة والعشائريَّة وغير ذلك ممَّا يقلِّل من قيمة الإنسان مرفوضةً، ولذلك نجد تعاليم الإسلام وتاريخه خصوصًا ناصع البياض خصوصًا في سيرة الرَّسول ﷺ وكذلك الإمام علي عليه السلام، يقول الرَّسول ﷺ في خطبة الوداع: «أيها الناس، إن ربكم واحد، وإن أباكم واحد، أَلَا لا فضل لعربي على عجمي ولا لعجمي على عربي ولا لأحمر على أسود ولا أسود على أحمر إلَّا بالتقوى، إن أكرمكم عند اللَّه أتقاكم، ألا هل بلغت؟ قالوا: بلى يا رسول اللَّه، قال: فليبلغ الشاهد الغائب»[٤]، ويقول الإمام علي عليه السلام في وصيَّته لمالك الأشتر

(١) سورة الشعراء، الآية ١٨٣.
(٢) سورة الإسراء، الآية ٧٠.
(٣) سورة الحجرات، الآية ١٣.
(٤) ميزان الحكمة، محمد الريشهري، ج٤.

رضوان اللَّه عليه حين ولَّاه مصر: «فإنهم صنفان، إمَّا أخ لك في الدِّين وإما نظير لك في الخلق»[١]. ولا شك أنَّ هذا البعد الإنسانيِّ يدفع البشريَّة قاطبة إلى بناء أواصر المحبَّة والتَّعايش وترسيخ الأمن والاستقرار والسَّلام، وهوما ينشده الإسلام كما قال تعالى: ﴿**ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً**﴾[٢]، وبذلك يصون الإسلام كرامة الإنسان والإنسانيَّة.

ومن جهة أخرى فالإسلام أيضًا يحارب ويقف ضدَّ من ينتقص هذه الكرامة ويصادرها بأيِّ شكل من الأشكال أو التَّبريرات، أو يساوم عليها، وكذلك من الواجب الإلهيِّ والإنسانيِّ هو عدم إهدارها وإسقاطها من قبل الإنسان أو الشُّعوب ممَّا يبرِّر التَّعدِّي والظُّلم والقهر والحرمان من كلِّ الواجبات والحقوق تجاهها، وهذا هو المحكُّ وصوت الضَّمير في مقاومة ومجابهة قوى الاستكبار والحكومات الاستبداديَّة الَّتي تسعى لإخفاء هذا الصَّوت ومصادرة كلِّ الحقوق، بينما هي ترفع شعار التَّقدُّم والدِّيمقراطيَّة والدِّفاع عن حقوق الإنسان تحت مظلَّة ولافتة هيئة الأمم ومجلس الأمن وبقيَّة المؤسَّسات الدَّوليَّة، الَّتي أنشئت من أجل تأمين مصالحها على حساب الدُّول الفقيرة وسلب خيراتها، فهي في الواقع والحقيقة لا تؤمن بمبدأ الإنسانيَّة، وكذلك هي تلك الأنظمة والحكومات الظَّالمة الَّتي تحكم في البلاد العربيَّة والإسلاميَّة باسم الإسلام وهي لا تراعي أبسط حقوق الإنسان، فضلًا عن مشاركتها ودورها في صنع القرار، فهي أسوأ بكثير من تلك الدُّول العظمى.

---

(١) نهج البلاغة، ص ٤٢٧.

(٢) سورة البقرة، الآية ٢٠٨.

ولذلك من الغرابة أن تجد الإنسان المسلم في هذه الأوطان يهاجر أو يلجأ ويهرب منها خوفًا على نفسه ودينه وماله ومصالحه، ويطارد ويلاحق حتَّى وهو في المهجر، فأين هي الحرِّيَّة الَّتي هي أهمُّ تجلِّيات الحقِّ الإنسانيِّ؟ وهذا يعكس الاتِّجاه المعاكس حيث كانت بلاد الإسلام في الماضي هي الَّتي تأوي اللَّاجئين وتُؤمِّن حياتهم من الظُّلم والتَّعذيب فيجدون الفرصة وضالَّتهم في الحياة، قال تعالى: ﴿**وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ**﴾[1].

إذًا ليست القضيَّة بالشِّعارات أو المسمَّيات، ولكنَّ القضيَّة الإنسانيَّة تتطلَّب الإيمان الرَّاسخ بهذه الكرامة والتَّجسيد عبر الممارسة والتَّجربة والواقع، وهذه هي الدَّائرة الأوسع في نطاق العلاقة بين البشر، ممَّا تحتاج إلى رؤية وأفق رحب لا يتأثَّر بالتَّنوُّع والاختلافات، بل المطلوب هو التَّعارف وتبادل المصالح المشروعة، قال تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا**﴾[2].

أما الدَّائرة الثَّانية فهي الدَّائرة الإسلاميَّة فهو حقّ آخر يضاف إلى الأولى، فكلُّ من يتشهَّد الشَّهادتين له حقّ على المسلم الآخر بألَّا يتعدَّى عليه بلسانه ويده، ويحفظ حقوقه المختلفة، فـ«المسلم من سلَّم النَّاس من يده ولسانه»[3].

والمسلمون اليوم في وضع لا يحسدون عليه بسبب الاختلافات

(١) سورة التوبة، الآية ٦.
(٢) سورة الحجرات، الآية ١٣.
(٣) معاني الأخبار، ص ٢٣٩.

الطَّائفيَّة والأزمات الاقتصاديَّة، وكذلك تلك الحدود المصطنعة الَّتي قسَّمت العالم إلى دول ومجتمعات، فأصبحت كلُّ دولة لها خصوصيَّاتها وهمومها، كما حلَّت تلك الشِّعارات والمفاهيم البديلة عن الإسلام مثل القوميَّة والقِطريَّة الَّتي تجاريّ الواقع، وغيرها ممَّا أوجد هوَّة عميقة في المشاعر والأحاسيس والحواجز النَّفسيَّة الَّتي تحول دون التَّفاعل بين النَّاس مهما كانت الظُّروف القاسية. فالمبادئ والقوانين الدَّوليَّة حاكمة على كلِّ شيء، فصار للدَّولة الواحدة حدودها الخاصَّة من أرض وجوّ وهواء، لا يسمح لغيرها بالدُّخول والعبور وحتَّى الطَّيران إلَّا بإذن وجواز المتعارف عليه، وإلَّا أصبح متعدِّيًا وخارقًا للقوانين، ولا يختلف في ذلك المسلمون عن غيرهم. ولهذا تجد المسلمين أمَّةً لها شعارها لكن بدون روح ووحدة مشاعر تِّجاه بعضهم، بل تجد الحماقات والعداوات والأحقاد والخصومات تتفشَّى بينهم، ممَّا أفقدهم الهويَّة الإسلاميَّة الحقيقيَّة فلا احترام يسود بينهم ولا حقوق محفوظة ولا حتَّى حقّ الجوار، ممَّا جعل الأمة أكثر ضعفًا وتخلُّفًا وتراجعًا. فالإسلام أصبح مجرَّد شعار وعبادات محصورة في دور العبادة وأمور الدُّنيا، وهمِّ العيش، ليس لهم هدف وتطلُّعات ولا كيان يحفظ لهم المكانة وينظر إليهم باحترام. وهذا أمر خطير للغاية، خصوصًا في عصرٍ تتكالب عليها الأمم من كلِّ جانب، ولقد صدق وأخبر الرَّسول ﷺ عن البلاء والمصير حيث قال: «يوشك أن تداعى عليكم الأمم من كل أفق، كما تداعى الأكلة على قصعتها، قالوا: من قلة بنا يومئذ؟ قال: أنتم ذلك اليوم كثير، ولكن غثاء كغثاء السيل»[1]، فأين هي أمَّة المليار ونصف المليار؟ وأين

(١) حلية الأولياء، ج١، ص١٨٢.

هويَّتها وخصوصيَّتها ووحدتها وقوَّتها؟ من هنا نحتاج إلى عودة ومراجعة دينيَّة وثقافيَّة لأوضاعنا وديننا ومصيرنا، حتَّى لا نعيش الغربة في هذا العالم، وكذلك هو الدِّين أصبح غريبًا بيننا؛ لأنَّنا لا نُعظِّم له حرمة ولا نحترم له شعارًا، ولا نلتزم بمبدأ، ولا نتحاكم عنده بشرع ولا نُقيم له حدودًا، فكما جاء الإسلام غريبًا سوف يعود غريبًا. وها نحن اليوم نشهد على هذا الحال ونُقرُّ به، لكن دون موقف وتغيير وإصلاح. وصحَّ فينا قول المتنبي:

غاية الدين أن تحفوا شواربكم يا أمـةً ضحكت من جلها الأمم

إنَّ الشَّهر الكريم دعوة وصحوة لتفعيل القيم البنَّاءة خصوصًا على المستوى الأمَّة والمصير، وإيجاد العوامل والمحاور من أجل انتشالها من الواقع السَّيِّئ والتَّخلُّف.

أمَّا الدَّائرة الثَّالثة هي الإخوة في الإيمان، قال تعالى: ﴿**إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ**﴾[1] فأين هذه الأخوَّة؟

من الصَّعب إدراك هذه الرُّوح خصوصًا على مستوى الأمَّة، وفي ظلِّ الخلافات والانحرافات والغزو الثَّقافيِّ والأخلاقيِّ والتَّحدِّيات. والسُّؤال هنا ليس في وجود هذه النُّخبة الإيمانية، وإنَّما في اتِّساعها ودورها الفاعل والمشروع الَّذي تتبنَّاه في مواجهة الواقع، وكذلك في مواجهة التَّحدِّيات الكبرى والمشروع الغربيُّ بالخصوص.

وهنا لا بدَّ أن نشير إلى بعض الملاحظات في العلاقات الإيمانيَّة الَّتي تُعتبر النَّموذج والقدوة والطَّليعة في الأمَّة، ومنها الخلافات والمشاحنات

(١) سورة الحجرات، الآية ١٠.

والخصومات بسبب الخلافات في المسائل العقديَّة أو الفقهيَّة أو في جانب العمل والدَّعوة، ممَّا يتسبَّب في ضعف هذه البنية ووحدتها ودورها وسعيها نحو أهدافها.

وأخصُّ في ضمن هذه الدَّائرة العلماء، فهم الأقرب إلى تطبيق تعاليم الإسلام وتمثيله ثمَّ الدَّعوة إليه، فهو النَّموذج المعوَّل عليه في تبنِّي المشروع الإصلاحيِّ في الأمَّة وقيادتها، وتكريس عوامل الأخوَّة والإيمانيَّة والوحدة الإسلاميَّة، والنُّهوض بها وتخليصها من الكوارث الإنسانيَّة والتَّخلُّف، وإنقاذ مصيرها.

لكن من المؤسف ذلك الدَّور السَّلبيِّ لبعض الزَّعامات والقيادات والعلماء الَّذين لا يريد حلولًا للمشاكل والأزمات الَّتي تُواجه الأمَّة، بل يعملون على تكريسها، والسَّعي نحو تفريق الأمة وتفتيت وحدتها باسم الإسلام. وهنا نقول: أين هي الأخوَّة الإيمانيَّة أيها المؤمنون؟

من هنا يجب الحذر من هؤلاء، والتَّسلُّح بالوعي الإيمانيِّ الأصيل، ولا نسمح بهذه الشِّعارات والأكاذيب الَّتي تقودنا إلى المتاهات والبعد عن الدِّين، والارتكاس في أوحال التَّخلُّف.

د- الأخلاق الإسلامية:

الحديث عن الأخلاق لا ينفصل عن تلك المحاور، فهو مبدأ عام وثابت لا يخضع للظُّروف والأمزجة والتَّحوُّلات والمتغيِّرات على صعيد الواقع والحياة بأسرها، وهي جسر العلاقات والرَّوابط المختلفة، لكن هذا المبدأ الإنسانيِّ والدِّينيِّ تعرَّض إلى كثير من التَّأثيرات السَّلبيَّة خصوصًا في

حياة الأمَّة الإسلاميَّة، والسَّبب هو سريان الرُّوح المادِّيَّة في حياتها؛ ولذلك من الطَّبيعيِّ أن تسود المشاكل والسَّلبيَّات، والأدهى هو القطيعة بين النَّاس، إلَّا إذا كانت هناك مصلحة، والوصول إلى غاية ذاتيَّة أو فئويَّة وحزبيَّة وغير ذلك من الأغراض الدُّنيويَّة، فكثير من العلاقات قائمة على أساس هذا النَّفع، ونتيجةً لذلك أنَّها لا تدوم وليس لها ثبات، بل هي معرَّضة للخلافات والصِّراعات والتَّصادم والتَّفرقة والتَّباعد والبغضاء والمشاحنات.

فالصَّديق اليوم يصبح عدوًّا والعكس، فهذه الرُّوح تجسيد إلى تلك المبادئ المادِّيَّة الَّتي تُبرِّر الوسائل من أجل الوصول إلى المصلحة؛ ولذلك قالوا: «لا صداقة دائمة، ولا عداوة دائمة»[1]، وهذا المبدأ يمثِّل خطورةً حضاريَّةً، ويقوِّض كلُّ المبادئ والقيم، لتصبح مجرَّد شعارات ومثاليَّات ليس فيها روح ولا تأثير على الواقع وفي الحياة البشريَّة بالخصوص.

ونتيجةً لذلك وفي ظلِّ هذا التَّأثير نجد القيم السَّائدة الَّتي لا تراعي ولا تمسُّ الحياة الإنسانيَّة في شيء، بل سعت لسحقها وتدميرها وظلمها بكلِّ الوسائل والسُّبل، فنشأ بذلك الاستعمار، وترسَّخت من أجل ذلك النَّظريَّات وشرعنة القوانين المختلفة السِّياسيَّة والاقتصاديَّة والاجتماعيَّة في سبيل تطويع البشريَّة وإخضاعها لصالح الأهداف المادِّيَّة المرسومة، وإشباع غرائزها واتِّباع أهوائها مثل الشُّيوعيَّة والاشتراكيَّة واللِّيبراليَّة والرَّسماليَّة والبرجماتيَّة، وتفضيل العرق السَّامي على سائر البشر، وسعت لامتلاك القوَّة المفرطة والنَّوويَّة من أجل الاستعلاء والرَّدع لكلّ من يقف

(١) مأخوذة من قولة مشهورة للسياسي البريطاني السير تشرشل.

في وجهها؛ ولذلك نجد السِّباق المحموم في صناعة وتجارة الأسلحة الفتَّاكة بين الدُّول لتأمين مصالحها وأمنها واستقرارها، ولم تكتفِ بذلك، وإنَّما دعت البشريَّة إلى التَّحرُّر من كلِّ القيود والأديان والأخلاق، أي إلى الحرِّيَّة المطلقة لتحقيق نزواتها وإشباع غرائزها؛ ولذلك سمحت لنفسها قبل غيرها بممارسة كلِّ أنواع الرَّذيلة وتعاطي الممنوعات والمحرَّمات دون رادع أو قانون أو أخلاق، بل سعت لشرعنة كلِّ ذلك تحت شعار الحرِّيَّة والدِّيمقراطيَّة والحضارة.

ونتيجةً لذلك تفشَّت الأمراض المعضلة، ونشأت الطَّبقيَّات والصِّراعات، وضعفت الرَّوابط بين النَّاس، ليصبح الإنسان المادِّيُّ برغيًّا وآلة في عجلة وماكينة الاقتصاد والرَّفاهية المزعومة، لكنَّ دون إحساس وشعور داخليّ في النَّفس البشريَّة واطمئنان، لأنَّها فقدت أعزَّ ما تسمو إليه وهي الكرامة.

ففي ظلِّ التَّطوُّر والتَّقدُّم العلميِّ والتَّكنولوجي والثَّراء الاقتصاديّ في هذه المجتمعات جرَّاء الهيمنة على ثروات وخيرات العالم لم تستطع هذه الحضارة أن تُحقِّق ما هو الأهمّ في حياتها وحياة الإنسان، وهو الإحساس بالسَّعادة والأمل نحو مستقبل مشرق، ولذلك يقرِّر الكثير من المفكِّرين ممَّن يعيشون هذه الحياة ويطَّلعون على مجرياتها بأنَّها تسير نحو الهاوية والطَّريق المسدود؛ لأنَّ العوامل الشِّرِّيرة تنخر في جسدها وروحها، فهي حضارة بائسة ومتآكلة من الدَّاخل، مهما تظاهرت بالتَّفوُّق والتَّقدُّم وتنامي القوَّة، ولذلك هي تشعر بهذا الصِّراع الدَّاخلي لكنَّها تخفت صوت الضَّمير الإنسانيِّ لتستمرَّ في غيِّها وانحرافها حتَّى يأذن اللَّه بزولها، وهذا الضَّمير هو الأخلاق.

ولهذا قالوا: إنَّ الأخلاق[١] هي الضَّمير الحيُّ الَّذي يكرِّس الشُّعور بالكرامة الإنسانيَّة، ويحيي صحوة الضَّمير مهما علاه من حجب وتشويه وكبرياء، وهي كذلك ديمومة المجتمعات والحضارات؛ ولذلك لم توصم الجاهليَّة الأولى بالجهل لأنَّها لا تمتلك القوَّة أو ليس لديها علوم ومعارف، كلَّا، وإنَّما لأنَّها تفتقد إلى الأخلاق، وفي عصرنا كذلك لأنَّها تمثِّل قيم الجاهليَّة ولكن بلباس وشعارات برَّاقة، ومبادئ منحطَّة، وقيم سافلة في حقِّ الإنسان والمجتمعات، وعلى سبيل المثال لا الحصر هو نظرة هذه الحضارة المادِّيَّة إلى المرأة والجنس، حيث أصبحت سلعة ودمية تُقدّم في الأسواق وفي المناسبات والمواقع الإباحيَّة والموضات والاستقبالات في مدارج ومضيفات الطَّائرات، والأمثلة على ذلك تطول، أليس ذلك هو الانحطاط؟ وما الفرق بين الجاهليَّتين؟

من هنا نعرف قيمة الأخلاق على كلِّ المستويات والمنطلقات سواء كانت دينه أو إنسانيَّة، فرديَّةً أم اجتماعيَّةً، لكنَّ الدِّين هو الَّذي يمنحها ويكسوها بالمبادئ الحقَّة، لتتَّصل بعرى الإيمان والنُّبل والطَّهارة والتَّطلُّع نحو المستقبل، وتكون سببًا للنَّجاة في يوم المعاد، فهي أساسيَّة متَّصلة بكلِّ القيم الإيمانيَّة والإسلاميَّة والحضاريَّة، ومن دونها يختلّ النِّظام في الحياة، ويؤدي إلى الانفصام في الشَّخصيَّة، والهلاك والفساد في الأرض، وزوال الحضارات ومصيرها إلى الفشل، قال تعالى: ﴿**وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ بَطِرَتْ**

(١) هل للمجتمع روح؟ هناك رأيان: الأول نعم، بدليل أن للمجتمع أجلاً كما أشار إليه القرآن، فيموت المجتمع كالإنسان. القول الآخر: لم يثبت بالدليل إلَّا إذا قلنا بأن هذه الروح هي الأخلاق، وبدونها تموت الروح في المجتمعات. (والرأي الثاني للمرجع السيد محمد الشيرازي قدس سره في احدى محاضراته.

مَعِيشَتَهَا فَتِلْكَ مَسَاكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَنْ مِنْ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ﴾[1]، وبطرت أي طغت وكفرت بنعمة اللَّه، وقال أيضًا: **﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾**[2]، وليس ذلك ببعيد، فالمؤشِّرات والأزمات تلوح في الأفق وتحيط بها من كلِّ جانب. وصحيح قول الشَّاعر العربي أحمد شوقي:

إنما الأمم الأخلاق ما بقيت إن هم ذهبت أخلاقهم ذهبوا

إنَّ الحديث عن تلك المحاور المهمَّة، وعن الأخلاق بالخصوص وفي ظلِّ الإسلام وفي الشَّهر الكريم له خصوصيَّة تامَّة وطابع خاصّ، لما له من روحيَّة وأجواء وبيئة مثاليَّة من أجل تقمُّص هذا المبدأ وهذا الدَّور وعلى كلِّ المستويات والأصعدة، كي نحقِّق الثَّمرة من كلِّ الواجبات والتَّكاليف والطَّاعات الَّتي يزخر به شهر اللَّه.

إنَّ انعدام الأخلاق والغفلة عن الالتزام بها مؤشِّر على ضعف الوعي وضعف التَّديُّن الصَّحيح، سواءً في شخصيَّة الإنسان المؤمن أو في المجتمع، فهي مصدر السَّعادة والانشراح في النَّفس البشريَّة، وهي كذلك مصدر لتوثيق الأُخوَّة الإيمانيَّة والمحبَّة والرَّحمة، عن الشهاب قالَ رسول اللَّه ﷺ: «مثل المؤمنين في توادِّهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد، إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسَّهر والحمَّى»[3]. فلنا أن نتصوَّر حالنا عند

(١) سورة القصص، الآية ٥٨.
(٢) سورة النحل، الآية ١١٢.
(٣) بحار الأنوار، ج٥٨، ص١٥٠.

فقدان هذه الرُّوح وهي الأخلاق في حياتنا وفي مجتمعاتنا!

إنَّ تعاليم الشَّهر المبارك تؤكِّد على هذا البعد الحيويِّ والحضاريِّ في ثقافتنا وسلوكنا ومع كلِّ شيء نتعاطى معه من سائر الكائنات والمخلوقات، فكيف بالإنسان ومع النَّاس؟

أنَّ التَّأمُّل والوقوف على خطبة الرَّسول ﷺ قبيل شهر رمضان وهو يهيِّئ النَّاس ويدعوهم لضيافة الباري نجد أهمِّيَّة تلك المحاور والمضامين والأبعاد، ومن أهمِّها هو الأخلاق، فقال: «ومن حسَّن في هذا الشَّهر خلقه كان له جوازًا على الصِّراط يوم تزلُّ فيه الأقدام»[1]، وفي الحديث الآخر: «من ساء خلقه عذَّب نفسه»[2]، وهذا كافٍ للتَّخلُّص من مساوئ الأخلاق والعلاقة السَّلبيَّة مع النَّاس من حولنا، أليس الدِّين هو المعاملة الحسنة كما نصَّ على ذلك رسولنا الأكرم ﷺ؟

إنَّ الثَّقافة الإسلاميَّة الصَّحيحة تهدينا إلى أهمِّيَّة هذه المحاور ونحن نستقبل الشَّهر الكريم، وترسم لنا خريطة الطَّريق والتَّعاطي مع كلِّ الجوانب من خلال الإكثار من قراءة القرآن والصَّلوات والأدعية المتنوِّعة والزِّيارات وليالي القدر (الَّتي لا تُقدَّر بثمن أو تعوِّض)، لتحقيق بنية وبيئة صالحة على مستوى الفرد والمجتمع كي نسير في الدُّروب الصَّحيحة ونتجاوز العقبات ونواجه التَّحدِّيات، فشهر رمضان مشروع متكامل وإعداد وتخطيط للعبور نحو مستقبل مشرق وحضارة عريقة.

---

(١) خطبة الرسول ﷺ.

(٢) الكافي (ط - دار الحديث)، ج٣، ص ٧٨١.

ولهذا تمَّ التَّأكيد على هذا البعد بالخصوص -أي أهمِّيَّة الثَّقافة- في كتابنا (شهر رمضان والبنية الثَّقافة)، وبهذا الصَّدد لا بدَّ من الإشارة حيث طبعنا كتابين مختصرين سابقين الأوَّل آفاق التَّحوُّل والتَّغيير، عام في ٢٧/ شعبان/ ١٤٢٦هـ، والثَّاني باسم شهر رمضان والأمَّة عام ١٤٣٢هـ/ ٢٠١١م، لكن عليهما من الملاحظات الكثير من النَّاحية التَّنسيقيَّة والإملائيَّة والتَّناسق بين الأفكار وترقيمها وغيرها، لكنَّهما حظيا بالاهتمام من قبل شريحة من الشَّباب فاقترحوا علينا إعادة طبعهما بعد التَّعديل والتَّنسيق والتَّصحيح، وشجَّعوني على طباعتهما من جديد، وبعد توفيق اللَّه وتسديده، قمت بإعدادهما من جديد تحت عنوان واحد وهو (شهر مضان والبيئة الثَّقافيَّة)، ويتكوَّن من فصلين هما يمثِّلان عنوانيهما السَّابقين، وبعد أن أضفت لهما تمهيدًا ومقدِّمة شاملة، تتلاءم مع المتغيِّرات والتَّحوُّلات العصريَّة وما صاحبها من تأثيرات على كلِّ المستويات، وكذلك ما حدث من تطوُّر في وسائل التَّواصل الاجتماعيِّ والأجهزة الذَّكيَّة، فأحدثت تأثيرات وانعكس سلبيَّات، وعلى هذا الأساس راعينا في المقدِّمة هذا البعد والتَّأثير مع التَّركيز على الهدف والمهمَّة من الدِّراسة، وهو البعد الثَّقافيُّ كمدخل للاهتمام ببقيَّة الأبعاد والمضامين في الشَّهر الكريم، واللَّه الموفِّق والمسدِّد لكلِّ خير وصلاح.

الفصل الأول

شهر رمضان والأمة

شهر رمضان والأمة

إنَّ التَّأكيد على هذا الشِّعار في شهر الخير والبركة يدعونا إلى:

١- اليقظة والتَّذكير بقضايا الأمَّة، وحال أوضاعها ومسيرتها، حيث تواجه الكثير من المشاكل والتَّحدِّيات الدَّاخليَّة والخارجيَّة ممَّا يدعو إلى الوقفة والتَّأمُّل من أجل تصحيح مسارها وحلّ مشاكلها والنُّهوض بها. فاليوم المشكلة ليست جانبيَّةً أو داخليَّة فقط، وإنَّما هي مشكلة حضاريَّة أي «نكون أو لا نكون».

وشهر رمضان يعتبر محطَّة ووقفة مع الذَّات والمجتمع من أجل تكوين رؤية صحيحة وشاملة، ومراجعة كلِّ الملفَّات وعلى كلِّ الأصعدة. فلا يمكن الاكتفاء بالاهتمام بجانب واحد، أو ننظر إلى المشاكل دون أن يتحرَّك فينا ساكن أو شعور بالمسؤوليَّة، خصوصًا أنَّنا نرى ونشاهد انعكاسات وظواهر سلبيَّةً تتفشَّى هنا وهناك وانهيارات على مستوى أخلاقها.

٢- ينبغي الاستفادة الكاملة من هذا الشَّهر في توجيه الطَّاقات والإمكانات نحو الخير والبناء والنُّهوض بكلِّ قضايانا. فالشَّهر المبارك هو برنامج متكامل وتعاليم في كلِّ الأبعاد والجوانب. ومن أهمِّ خصوصيَّة هذا الشَّهر والَّتي تعكس شعار وحدة الأمَّة وقضاياها جانبان:

أولًا: شعار الصوم.
ثانيًا: نزول القرآن الكريم.

يقول تعالى: ﴿**شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ**﴾(١).

إنَّ تعظيم القرآن هو من تعظيم الخالق عزَّ وجلَّ، فهو المُرسِل والمنزِل للقرآن، ولذا فالقران هو مائدة اللَّه، فكيف نُقدِّر هذه المائدة، ونتعاطى معها؟ وعلى سبيل المثال: لو دعاك شخص ما إلى مائدته، فماذا تتوقَّع منه؟ هذا يعتمد أوَّلًا على الدَّاعي ومكانته ووجاهته، وكما قيل: على قدر هل العزم تأتي العزائم. فإذا كان شخصًا ثريًّا فسوف يُقدِّم ما طاب من الطَّعام، أو إذا كان له منصب قياديّ أو رئاسيّ فسوف تتعامل معه حسب المكانة. هذا مثال، لكنَّ ما قَدْرُ اللَّه؟ وماذا عسى أن يقدِّم لعباده؟

هنا يُشير تعالى إلى هذه المكانة الَّتي لا نستطيع بيانها إلَّا من خلاله ونفسه، فهو أعرف بها، قال تعالى: ﴿**وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّماوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ**﴾(٢). وقال تعالى: ﴿**رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا**﴾(٣)، فهو من يستحق العبادة، فلا يوجد أحد تسمَّى باسمه (اللَّه) أو شابهه أو ماثله في شيء من صفاته سبحانه. إذًا هنا تناسب بين عظمة المائدة وعظمة الدَّاعي؛ ولهذا نجد في القرآن تأكيدًا بأنَّه

(١) سورة البقرة، الآية ١٨٤.
(٢) سورة الزمر، الآية ٦٧.
(٣) سورة مريم، الآية ٦٥.

مُنْزَل من قِبَل ربِّ العالمين وليس من غيره، قال تعالى: ﴿**تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ**﴾(١)، وبالتَّبع فهو تعظيم لتلك الوسائط، أي الرَّسول جبرائيل، والرَّسول الأعظم محمَّد ﷺ، وقد جمع اللَّه ذلك في الآية في قوله: ﴿**وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ * نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ * عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ**﴾(٢).

وهذه المنزلة تحتاج إلى استقصاء من القرآن والسُّنَّة للوقوف عند هذه العظمة، لكنَّ حسب ما أشرنا إليه تتجلَّى هذه العظمة على كلِّ المستويات، فقد حوى القرآن العظيم على كلِّ أسرار الكون والخلق والحكمة، وتحدَّث فيه الخالق عن نفسه وصفاته، فهو -أي الخالق- أكبر حقيقة وشهادة، ثمَّ تأتي بعد ذلك بقيَّة الآيات الَّتي تدلُّ على عظيم شأنه، وفلسفة خلقه من الكائنات والموجودات، فالقرآن هو المصدر الأوَّل لهذه المعرفة، كما أنَّ نزوله في الشَّهر الكريم وأيضًا في ليلة القدر يبرز هذه الأهمِّيَّة، والقرآن في نفسه مبارك، لأنَّه يُنمِّي العقول ويطلق العنان لتفكيرها، قال تعالى: ﴿**كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ**﴾(٣)، فتتوالى البركات وهذا المقصود بالتنمية الثقافية، ولذا ينبغي أن ندرك هذه المكانة والعظمة للقرآن وتأثيره وليس فقط قراءته العابرة، أو في هذه المناسبة العظيمة، وهذا يتطلَّب خطوتين أساسيَّتين:

---

(١) سورة الواقعة، الآية ٨٠.
(٢) سورة الشعراء، الآية ١٩٢ - ١٩٤.
(٣) سورة ص، الآية ٢٩.

الأولى: القراءة المتأنية والتدبر:

فهي -أي القراءة- مطلوبة وفي كلِّ وقت، فهي عبادة يتضاعف أجرها في الشَّهر الكريم، لما لها من خصوصيَّة. والقراءة هي الخطوة الأولى في طريق الاهتمام والتَّعاطي مع القرآن، لكن مع هذه الأهمِّيَّة فهي ليست مطلوبة لذاتها، إنَّما هي وسيلة لإيجاد العلاقة والرَّابطة المتينة والوثيقة، ولتحقيق الأهمِّ وهو الهداية منه، والوصول للغايات والأهداف، ولتكون العلاقة إيجابيَّة تعود بالنَّفع الكامل، فللقرآن الدَّور الكبير في هداية الإنسان وتوجيه واستلهام العبر والأفكار والبصائر.

ويشير القرآن إلى هذا التَّأثير، قال تعالى: ﴿**لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُتَصَدِّعًا مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ**﴾[1]، لكنَّ هذا التَّأثير لا يكون بالقراءة الخاطفة أو القشريَّة، أو التي تنطلق من أجل الثَّواب والبركة؛ لأنَّ ذلك يتعارض مع الهدف من نزوله، وإذا كان هناك حثٌّ على القراءة ومضاعفة الثَّواب، إنَّما يهدف إلى الاهتمام البالغ، وليكون القرآن مصدر للهداية ومربِّيًا للنُّفوس ومنمِّيًا للعقول. فهذه التَّنمية والعلاقة هي الأساس من حقيقة الإكثار والعناية بالقرآن، وكذلك من أجل أن تكون العلاقة الإيجابية والدَّائمة مع القرآن. لكن من المؤسف هو تلك العلاقة السَّلبيَّة ومن خلال هذا الشَّهر الكريم، حيث نجد تلك القراءة السَّطحيَّة الَّتي لا تتعدَّى الحناجر والضَّجيج، ومحدودة بالشَّهر الكريم، وتزداد أهمِّيَّتها ونسبتها فقط في ليلة القدر!

(١) سورة الحشر، الآية ٢١.

وللتذكير فإن أهمية التدبر في القرآن الكريم تهدف إلى بعدين أساسين يعتبران المدخل لفهم القرآن والدين وكل التعاليم الإسلامية، البعد الأول هو التأكيد على وحدانية الخالق وربوبيته، فهذه هي الحقيقة الكبرى، وغيرها من الحقائق هي نابعة وتابعة ومترشحة، ومن دون تحقيق ذلك، يعتبر فهمًا سطحيًّا وبعيدًا، فكل الآثار والمخلوقات تدل على ذلك، يقول الحق فيه هذه المهمة: ﴿**أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا**﴾[١]، فعظمة القرآن هي من عظمة الخالق وقدرته وحكمته، قال تعالى: ﴿**الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى**﴾[٢]. إذًا هذا المبدأ هو المدخل الرئيسي في الفهم والتدبر.

أما البعد الثاني فهو إزالة الحجب التي تحول دون فهم القرآن والدين، من خلال محاربة الجهل والخرافات والأباطيل، قال تعالى: ﴿**أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا**﴾[٣]، فكل ذلك يمنع الإنسان من فهم القرآن، بينما المطلوب هو الاستعداد والتلقي لمفاهيم القرآن ليصبح الإنسان تلميذًا مخلصًا يسعى لتحقيق الهداية. وحينها تتم عملية غرس القيم والأفكار والمفاهيم الصحيحة لتطبيق الدين، وحينها نستطيع أن نحقق البناء الصحيح والتقدم والتطور في الحياة وفي ظل القيم والإيمان، لأن القرآن مبارك وتزداد هذه البركة في الشهر الكريم، والبركة تعني النمو والازدياد، وليس مجرد القراءة والحرص على الأجر والثواب، وختم القرآن كما هو الحال

(١) سورة النساء، الآية ٨٢.
(٢) سورة طه، الآية ٥٠.
(٣) سورة محمد، الآية ٢٤.

والمتعارف، يقول الحق: ﴿**كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ**﴾[١]، فالبركة مرتبطة بالتدبر، وهو إشارة إلى الاهتمام والقصد والإرادة في تحقيق البنية والعلاقة الصحيحة مع القرآن، أي الارتواء الكامل، واللام في الآية قد تكون تعليلية للنزول أو أمرية، وعلى كل حال فالغاية واحدة.

وتختم الآية إلى أهمية العقل السوي الذي يقدّر هذه النعمة والمكانة للقرآن، وهنا تأتي أهمية التوجيه والخطاب في الشهر الكريم لتحقيق أقصى المنافع والغايات. ولذلك القرآن يستنكر على تلك المجتمعات الجاهلية في عصر نزول القرآن، وكذلك في كل عصر وزمان، ببعدها عن الدين والقرآن، يقول المفكروالكاتب المصري محمد قطب: «إن وصف تلك المجتمعات في الماضي بالجاهلية ليس لأنها لا تفكّر أو لا تمتلك أدوات العلوم، كلَّا فهناك النوابغ في الشعر والأدب ولكنها كانت منحطّة متسافلة في قيمها وأخلاقها، وهكذا في عصرنا الحاضر حيث الحضارة المجتمعات المادية هي أكثر انحطاطًا وتسافلًا من الماضي، فهي في الحقيقة جاهلية القرن العشرين»[٢].

يشير القرآن إلى هذه الحقيقة ﴿**أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَى لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ**﴾[٣]. وهذا جواب

(١) سورة ص، الآية ٢٩.

(٢) الكاتب محمد قطب: هو محمد إبراهيم حسين شاذلي (ت٢٠١٤)، كاتب إسلامي وأستاذ جامعي في أم القرى، له عدة مؤلفات، وهو شقيق الشهيد سيد قطب، كان يقيم قبل وفاته بمكة، نشر الكتاب (جاهلية القرن والعشرين) أول مرة ١٩٨٠، الناشر دار الشروق.

(٣) سورة العنكبوت، الآية ٥١.

لأولئك الذين يطلبون المعاجز والآيات، من الكفار والمشركين، بينما القرآن هو المعجزة الكبرى والمشرقة في كل زمان ومكان، فهو رحمة وتذكير، لكن لمن؟ والجواب في الآية هو لأهل الإيمان والعقول المنفتحة وأهل البصيرة، فتأمَّل.

الثانية: العمل والتطبيق:

وبسبب العلاقة السَّلبيَّة مع القرآن نجد المسافة والهوَّة الواسعة والعميقة بين هدى القرآن وبين الواقع، فكأنَّما بينهما حالة طلاق بائن، ومن الطَّبيعيِّ تجد تلك الانحرافات والسُّلوكيَّات والأخلاقيَّات السَّيِّئة على كلِّ المستويات، وتزداد سوءًا من خلال وفي ظلِّ الانفتاح والتَّواصل الاجتماعيِّ مع بقيَّة العالم، المختلف في تفكيره وثقافته وحضارته، وبسبب هذا الانفتاح والتَّأثير نجد تلك الانحرافات والضَّلالات على مستوى التَّفكير الثَّقافة والعادات والسُّلوك والأخلاق، فلم تبقَ حصانة ووقاية في مواجهة هذا الغزو الاستعماريِّ الَّذي يهدِّد كيان الأمَّة، ويحارب دينها، ويمسح هويَّتها، ويتَّهم ثقافتها، فالدِّين والإسلام هو المستهدف، لكنَّ عدم الشُّعور بهذا الخطر الحاذق والَّذي يتربَّص بنا من كلِّ جانب من جهة، وبعدنا عن القرآن وثقافة الإسلام هو ما يبرِّر وجود هذا التَّأثير وخطورته، وكذلك تلك الهواجس الَّتي تعصف بحياتنا وكرامتنا ومستقبلنا، لنصبح أرضيَّةً خصبةً قابلةً لاستقبال كلِّ ما يُلقى إلينا من سموم، ولهذا السَّبب لا يجوز بحال أن نكتفي بالقراءة العابرة،

بل يجب أن ينصبَّ الاهتمام والعناية بتنمية عقولنا وتفكيرنا وزيادة ثقافتنا، ومن جهة آخر أن نُجسِّد ذلك في حياتنا، وأن يكون القرآن طريقًا للعمل والنَّشاط، فهو ليس كتابًا يحاكي المشاعر والقلوب والعواطف، وإنَّما هو كتاب

هداية قولًا وعملًا من أجل البناء والإصلاح والحضارة، فالقرآن رسالة ومنهج ومشروع نهضويّ يكفل للبشريَّة سعادتها وتمدُّنها وتحقيق تطلُّعاتها. ولذلك جاء التَّحذير من العلاقة السَّلبيَّة والتَّعاطي السَّيِّئ مع القرآن، من خلال الاهتمامات القشريَّة والمنحرفة مثل التَّغنِّي بالقرآن، أو من أجل التَّداوي به والبركة، أو وضعه على الرُّفوف وتقديمه في المناسبات والمسابقات، أو الاهتمام والاقتصار على تجويده وحروفه من المخارج فلا يتعدَّى الحناجر، والاهتمام بختمه مرَّات دون فائدة، كما جاء في الحديث: «لا يكون هم أحدكم آخر السُّورة»[١]، فالقضيَّة هي الاهتمام بالكيف، أي لا تكون الكثرة من القراءة على حساب الفهم والتَّدبُّر. والأخطر هو أن يكون القرآن مطيَّةً لخدمة المصالح الدُّنيويَّة والسِّياسات الحاكمة والظَّالمة من الطُّغاة والسَّلاطين، فكلُّ ذلك يتعارض مع هداية القرآن والدِّين، ففي الحديث: «كمٌّ من قارئ للقرآن والقرآن يلعنه»[٢]، «ومن فسَّر القرآن برأيه هلك»[٣]، وقال: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ لَا خَلَاقَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ**﴾[٤]. فتأمَّل هذا التَّحذير الشَّديد نتيجة الانحراف وبغية المصالح ليكون القران مطيَّةً.

إنَّ التَّحدِّي الأكبر اليوم وفي هذا العصر يتمثَّل في التَّغريب واستنساخ التَّجارب الغربيَّة والحضارة المادِّيَّة، ممَّا يدعو إلى المراجعة والتَّفكير الجادِّ للعودة إلى مفاهيم القرآن والسَّعي نحو التَّطبيق لصياغة جديدة، فمن دون

(١) بحار الأنوار (ط - بيروت)، ج٨٩، ص ٢١٥.
(٢) مستدرك الوسائل و مستنبط المسائل، ج٤، ص ٢٥٠.
(٣) الذريعة إلى حافظ الشريعة (شرح أصول الكافي جيلانى)، ج٢، ص ٩٦.
(٤) سورة آل عمران، الآية ٧٧.

العمل لا يمكن حلَّ المشاكل والقضاء على التَّخلُّف، فالعمل هو الَّذي يمحنا القوَّة والثِّقة والسُّموّ والبناء والتَّقدُّم، أمَّا السُّكون أو التَّغنِّي بالأمجاد والمفاخرة بالفتوحات والتَّاريخ السَّحيق فهذا لا ينفع ولا يقدِّم إنسانًا فضلًا عن مجتمعات وأمَّة. ولهذا السَّبب أصبحنا أمَّة متخلِّفة ومتأخِّرة عن ركب الحضارة، بالرَّغم من وجود العلماء والمفكِّرين والمثقَّفين والمصلحين، لكنَّ المشكلة معقَّدة ليس بسبب التَّحدِّيات فقط، وإنَّما عدم شعورنا وإحساسنا كأمَّة تمثِّل مليارًا ونصف المليار مسلم هم خارج المعادلة العالميَّة والدَّوليَّة، ومجرَّد أرقام. ومن جهة هو بعدنا عن ثقافة الدِّين والإسلام ومجارات الواقع، حتَّى أصبح الإسلام متَّهمًا بأنَّه سبب كلِّ ذلك وأنه أفيون الشُّعوب.

لهذه كلِّه نحن مطالبون في هذا الشَّهر الكريم بالعودة إلى القرآن وتجديد الرَّابطة وتعميق العلاقة به والاستفادة من كلِّ ذلك على مستوى التَّفكير والتَّسلُّح بالرُّؤى والبصائر، والأهمَّ هو التَّطبيق، يقول الإمام علي عليه السلام في وصيَّته لابنيه الحسن والحسين عليهما السلام في شهر رمضان: «اللَّه اللَّه في القرآن، لا يسبقنكم بالعمل به غيركم»[1]. لأن القرآن يمثل سننًا في الحياة وليس فقط عقيدة وتشريع، بل هو منهاج للحياة بكل جوانبها .

٣- مرجعية أهل البيت عليهم السلام والقرآن:

فهم الثقل الآخر بعد القرآن حسب ما نصَّ عليه الرسول صلى الله عليه وآله في حديث الثقلين[2]، وهذا كافٍ في إثبات عصمتهم وعلمهم وإحاطتهم بالقرآن

(١) نهج البلاغة، ص ٤٢٢.

(٢) حديث الثقلين متواتر وشبه إجماع عند الفريقين باستثناء الموطأ حيث يقول: «وسنتي»، وهو منقول، ولا يعرف ناقله، فتأمَّل.

الكريم، ولذلك لا بد من الرجوع إليهم في فهم القرآن وتفسيره خصوصًا في الموارد الغامضة والشبهات وقضية الناسخ من المنسوخ وغير ذلك ممَّا يتوقَّف عليه الحق والحقيقة، من هنا نجد الاختلاف في فهم آيات القرآن حتى من علماء الشيعة من أتباع مدرسة أهل البيت عليهم السلام، وكمثال ما جاء في سورة عبس وتولَّى، فمن هو العابس في وجه السائل؟ ولا يفهم من ذلك تعطيل دور العقل والفهم للقرآن، كلا لأن القرآن جاء محكمًا ومفصلًا وميسرًا، ومن أجل الهداية، ومن جهة أخرى أمرنا القرآن نفسه بالتدبر فلا معنى إذًا الامتناع عن فهم القرآن، ولكن هذا لا يدل على فهم القرآن كاملًا أو الإحاطة به، خصوصًا كما أشرنا، فهناك بعض الغموض والشبهات التي تحتاج إلى فهم عميق وكذلك يقين، وهذا هو الفارق بين فهم المعصومين عليهم السلام وغيرهم من العلماء وكافة البشر، فالفهم البشري قابل للاحتمالات، ولذلك نجد أقوالهم تتفاوت وتتغير عبر الزمان، ولذلك جاء في الأثر «القرآن يفسره الزمان»، وآخر: «إن القرآن يجري كمجرى الشمس»، مما يعني أن الزمن والتجارب وتعاقب الأجيال له مدخلية في فهم القرآن، ولقد نص القرآن في مواطن الشبهات بالرجوع إلى الراسخين في العلم، وهم المعصومون بالنص الوارد عن الامام الرضا عليه السلام، ولذلك نجد الانحراف والتخبط والضلال في فهم تلك الشبهات، أما بسبب:

١- عدم رجوعهم للمعصومين العارفين والمحيطين بعلم القرآن.

٢- أو بسبب التعصُّب وإتِّباع الأهواء، كما أشار القرآن لذلك في قوله: **﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ**

﴿تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آَمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ﴾[1]، وأم الكتاب هو المحكم وهو الغالب في القرآن بحيث يفهم من الجميع حسب القابلية والمؤهلات، قال تعالى: ﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ﴾[2]، ويشير بشكل صريح إلى أسباب إلى الانحراف وهو الزيغ أي الميل عن الحق، من خلال فساد العقيدة و المنهج، أو تأويله وهو تفسيره على خلال الحقيقة والمصداق، من هنا نجد عقيدة التجسيد و القول بعدم جواز التعطيل لصفات الخالق التي وردت في القرآن قد تفشَّت في العقيدة السلفية التي تقطنها أغلب المجتمعات الاسلامية، فقالوا: يجب ثبوتها ولا يجوز تعطيلها، كما هي كالإشارة لليد والوجه، ثم يقولون بقيد ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾، فماذا ينفع هذا القيد بعد التجسيم كما هي كالإشارة لليد والوجه والتحديد؟ فما هي أسباب نشوء هذه العقيدة الفاسدة التي تتعارض مع عقيدة التوحيد التي يزعمونها، وهم ابعد ما يكونوا عن فهم التوحيد الخالص، وكذلك نجدهم يأخذون بظواهر القرآن كقوله: ﴿إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾[3] فقالوا بإمكانية وجواز النظر إلى الخالق يوم القيامة، وهذا يتعارض مع المحكم من القرآن وكذلك مع العقل، ومتانة اللغة العربية.

وهنا إشكال نقضي (أي توسيع الإشكال حيث يتضمن الجواب)، هل

---

(١) سورة آل عمران، الآية ٧.

والآية فيها كلام واختلاف في الواو (والراسخون) هل هي عاطفة أم استئنافية. والأشهر الأول. وهي تثبت علمية ومرجعية أهل البيت عليهم السلام وبالنص أيضًا من الروايات، والرسخ الثبات وعدم الزوال.

(٢) سورة العنكبوت، الآية ٤٣.

(٣) سورة القيامة، الآية ٢٣.

من المقبول أن نفسر ظاهر كل آية حسب هذا الفهم؟ إذًا كيف نفسر قوله تعالى: ﴿وَمَنْ كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَى فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَى وَأَضَلُّ سَبِيلًا﴾؟[1] لا أحد يقول بذلك. إذًا يجب وضرورة الرجوع في فهم القرآن إلى أهل القرآن وحامليه ومبلغيه كما هو نزل من السماء وهم أهل بيت العصمة، ومن يدَّعي الاستغناء عنهم أو يمتلك القدرة على مجاراتهم فهو خسران وضال ومضل، مهما بلغ من العلم والمعرفة، من هنا نجد أهل البيت عليهم السلام لهم التفاسير والإجابات على كل الأسئلة التي ترد هنا وهناك، وهناك تفاسير للقرآن قد دُوِّنت من خلال أحاديثهم ورواياتهم، أي متخصصة في ذلك[2]،حيث نجد في أساليبهم وتفاسيرهم فهمًا مميَّزًا وعميقًا ولطيفًا، فأحيانًا يفسرون مفردات القرآن التي يحيط بها الغموض، وأحيانًا من خلال السياق، وأحيانًا من خلال عنوان السورة، وأحيانًا تفسير القرآن بالقرآن، وأحيانًا التفسير من خلال التأويل (الجري) حسب المصطلح، وهو المصداق على كثرته وما يؤول إليه الظاهر والكلام، ولا يتعارض مع الظاهر قطعًا، لأن القرآن له سبعة بطون، ولكن لا يستطيع كل إنسان أو عالم أن يصل إلى كل المستويات من المصادقين والنماذج والتطبيق للآيات، فالقرآن بحر عميق لا يُدرك قعره كما ورد في الروايات، وعمومًا هذه إشارة في غاية الأهمية في طرق فهم القرآن ونهجه، ومن أراد أن يتعمَّق ويبحث في أهمية الموضوع والفكرة فليراجع الكتب والمصادر المتخصصة في التفاسير وعلوم القرآن.

---

(١) سورة الإسراء، الآية ٧٢.

(٢) من أهمها تفسير الامام العسكري عليه السلام، والعياشي ت ٣٢٠، والقمي ت٣٠٧، والتبيان في تفسير القرآن ت٤٦٠، الصافي ت١٠٩١، تفسير جوامع الجامع ت٥٤ ٨، تفسير الميزان ت ١٤٠١هـ.

نموذج في التفسير لأهل البيت عليهم السلام لا للحصر:

تفسير سورة الضحى حيث وردت كلمة ومفردة الضلال، قال تعالى: ﴿**أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَى**﴾[١] فكيف نفسر هذه الآية؟

والجواب: نقول هناك تفسيران عقدي وتفسيري، فالعقدي هو الدليل على عصمة الرسول صلى الله عليه وآله وأهل بيته المعصومين، وهذا بالنسبة للمدرسة أهل البيت عليهم السلام وأتباعها ثابت بالضرورة عقلًا ونصًّا ويقينًا، ولذلك نقول: من الأساس في هذا البحث وتفسير الآية وهو (الضلال) ليس نفي العصمة أو الزيغ عن الرسول صلى الله عليه وآله، وهنا السؤال إذًا: كيف نفسر الضلال في الظاهر؟ وهنا يأتي البحث في التفاسير وتقديم الاحتمالات من خلال فهم اللغة، وكذلك استقصاء الآيات وسياقاتها في القرآن، وأيضًا النصوص المنقولة عن أهل البيت عليهم السلام، على فرض عدم تواترها لتبقى ضمن الاحتمالات، أما لو كانت متواترة فلا داعي للبحث في الأساس. فعلى أساس ذلك يمكن أن تفيد الاطمئنان أو الترجيح، وهنا نشير إلى أهم الآراء وهي:

١- أن الضلال هنا هو الافتقار، بمعنى أن كل إنسان بما في ذلك الرسول صلى الله عليه وآله والمعصومين، هو ضال في نفسه وذاته، أي يفتقر إلى الحاجة إلى اللَّه سبحانه كما قال تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ**﴾[٢]، وهذا لا يتعارض مع مبدأ العصمة[٣].

---

(١) سورة الضحى، الآية ٦.

(٢) سورة فاطر، الآية ١٥.

(٣) تفسير الميزان، ومن تبعه في ذلك كتفسير الأمثل، (سورة الضحى).

٢- هو نفي العلم قبل الرسالة والوحي كما في قوله تعالى: ﴿**وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ**﴾[١]، وأخرى: ﴿**وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لَارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ**﴾[٢]، يقول ابن كثير (ت ٧٧٤هـ): «قد لبثت في قومك يا محمد ومن قبل أن تأتي بهذا القرآن عمرًا لا تقرأ كتابًا ولا تحسن الكتابة، بل كل أحد من قومك وغيرهم يعرف أنك رجل أمي لا تقرأ ولا تكتب» انتهى.

وظاهر القول يتنافى مع العصمة، وربما تشير إلى عالم ما قبل الوجود للرسول ﷺ، وهذا ممكن وليس بمستحيل، فالقول بالعصمة إنما تعني عالم الوجود وفي كل الأحوال لحياة المعصومين عليهم السلام، فالنبي ﷺ معصوم من ولادته، كما كان النبي عيسى عليه السلام نبيًّا ورسولًا، فكيف بسيد الكائنات والرسل، فتأمل.

٣- الضلال يعني الضياع وكل ما يجري على البشر قبل الهداية، بل بعضهم يذهب إلى أعظم من ذلك وهو ارتكاب الخطأ والنسيان حتى بعد الوحي، وهو ما ذهب إليه غالبية أهل السنة والجماعة، إلَّا القليل منهم، من يُنزِّه الرسول ﷺ قبل الوحي وبعده.

٤- الضلال هو المراد منه ضل في شعاب مكة وهو صغير، ثم رجع، وقيل: إنه ضل وهو مع عمه في طريق الشام وكان راكبًا ناقة في الليل، وقيل: أثناء رضاعه من حليمة السعدية.

---

(١) سورة الشورى، الآية ٥٢.
(٢) سورة العنكبوت، الآية ٤٨.

٥- تفسير الأئمة المعصومين عليهم السلام، فالآية بمعنى أنه تعالى وجده ضالًا في نظر قومه فهدى اللَّه القوم إليه، فقد روى علي بن إبراهيم القمي عن الإمامين الباقر والصادق عليهما السلام: «أي هدى إليك قومًا لا يعرفونك حتى عرفوك»[١].

وأخذ على هذا الأخير بأنه غير متواتر، فلا يصل إلى مرحلة اليقين، قد يفيد الاطمئنان أو الترجيح كما أشرنا، ومع ذلك نجد في هذا الدليل ما يسد أبواب بعيدة كل البعد عن الفهم والاستيعاب والتأصيل لمفاهيم القرآن والعقيدة بوجه خاص. ولذلك يقول شيخ الطائفة الطوسي في هذه الآية وغيرها التي في ظواهرها مخالفة إلى العصمة: «إن إثبات الظواهر مبنية على أدلة العقول، ولا تبنى أدلة العقول على الظواهر»[٢].

(وتوضيح ذلك في قوله تعالى: ﴿**إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ**﴾، فإن إثبات علم اللَّه لكل شيء ليس من خلال (كل) التي تفيد العموم والشمول، وإنما من خلال دلالة وقرينة العقل بدءًا، وليس النقل، والعكس فلو قال الحق عن الريح: (تدمر كل شيء بأمر ربها) فإن نفس أداة العموم لا تدل على الواقع، فالأرض والكون موجودان، فالعقل قرينة لنفي العموم واللفظ واحد هناك وهنا.

خلاصة[٣]: إن أدلة العصمة قطعية عند مدرسة أتباع أهل البيت عليهم السلام، وكل ما ينافيها دليل ظني، ولكن الأدلة الظنية تبقى احتمالات منها القريب

(١) تفسير القمي، ص ٧٢٩.
(٢) الاقتصاد فيما يجب على العباد،ص ٣٠٩.
(٣) بعض هذا المقطع مأخوذ من تفسير فضيلة الشيخ علي الجزيري الأحسائي عبر مقاطع الفديوات مع التغيير في بعض الجمل والتعبيرات للتيسير والتسهيل.

ومنها البعيد، كما قال تعالى: ﴿**ذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ**﴾[١]، فالتفسير القريب من الأدلة القطعية قد يفيد الاطمئنان أو الترجيح كما هو تفسير الإمامين عليهما السلام للضلال في الآية، بناءً على القول بعدم التواتر، وكما هو رأي الطباطبائي قدس سره [٢]، والشيرازي[٣]، فإنه لا يتعارض مع العصمة فتامَّل.

ولكن في الغالبية هناك نصوص متواترة في تفسير القرآن وتبنَّاها العلماء وأخذوا بها، لأنها تتفق مع القرآن والقطعيات واليقينيات والإيمان.

وهكذا في شأن الظواهر القرآنية مثل سورة عبس التي أشرنا إليها، فالميزان في كل ذلك عدم مخالفة التفاسير للعقيدة الثابتة، وبعد ذلك ننظر في الأمور وصوابية الآراء من خلال التحليل العلمي، فالمجال مفتوح والاجتهاد بابه واسع، والتدبر في القرآن مهمته هو فتح قناة العقول وإنارة القلوب، قال تعالى: ﴿**أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا**﴾[٤]، فليس لأحد احتكار الحقيقة مطلقًا ولا إنكارها مطلقًا إلَّا في حق المعصومين عليهم السلام.

خلاصة: إنَّ القرآن وفهمه وتفسيره يُمثِّل الرَّكيزة الأساسيَّة في الانطلاقة، فهو القادر على انتشالنا من حالات التَّذمُّر والشَّقاء والفوضى والفقر، وكلّ عوامل الشُّرور، فهو يختزل كلّ المبادئ والقيم الكفيلة لتحقيق

(١) سورة إبراهيم، الآية ١٨.

(٢) صاحب تفسير الميزان (محمد حسين الطباطبائي) ١٣٢١ - ١٤٠٢، في ٢٠ مجلدًا، بدأ فيه في عام ١٣٧٤ وأنهاه في ليلة القدر في ٢٣ رمضان ١٣٩٢.

(٣) صاحب تفسير الأمثل في كتاب اللَّه المنزل (ناصر بن محمد كريم باقر مكارم الشيرازي) وبالفارسي (نمونه) مترجم للعربية وبمساعدة فريق من الباحثين وعددهم عشرة من أساتذة الحوزة العلمية حاولوا أن يقدموا تفسيرًا بلغة حديثة ينتفع بها الجميع.

(٤) سورة محمد، الآية ٢٤.

الانتصار والإرادة والتَّغلُّب على الصِّعاب ومواجهة التَّحدِّيات، فهو يوقظ فينا الفطرة السَّليمة، ويهدينا إلى النَّهج القويم في التَّعاطي مع الحياة ومشاكلها، ويُكرِّس فينا قيم الخير من الأخلاق والآمال والتَّطلُّعات، قال تعالى: ﴿**فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ**﴾[1]. إذًا نحن أمام مهمَّة حضاريَّة في هذا العالم بحيث «نكون أو لا نكون».

وهنا يأتي السُّؤال وبخصوص الشَّهر الكريم عن أفضل الأوقات لقراءة القرآن والاستفادة منه.

هناك أوقات خاصَّة للقراءة والعناية بالقرآن، فهي أوقات فضيلة وذات طابع مؤثِّر في نفس الإنسان وتوجيه نحو رسم الحياة الفاضلة. وقبل ذلك نشير إلى أهمِّيَّة المقدِّمات وهي:

١- أي اهتمام بجودة القراءة من النَّاحية اللُّغويَّة كالإعراب والتَّجويد والبلاغة وغير ذلك بما يرتبط بأساس اللُّغة العربيَّة وهي لغة القرآن الكريم.

٢- التِّلاوة، وهي القراءة الَّتي فيها تأمُّل وتدبُّر، فهي أخصُّ من مجرَّد القراءة بالوقوف عند المعاني والدَّلائل والتَّفكير في سياق الآيات ولو بنحو عامّ للخروج بفوائد، وتأتي هنا أهمِّيَّة وإثارة الأسئلة الَّتي تحيط بالسُّورة أو الآية.

٣- مطالعة التَّفاسير الموثوقة للتَّعرُّف على وجوه الآراء، فإنها تساعد الإنسان في القدرة على الاستنتاج.

---

(١) سورة الروم، الآية ٣٠.

٤- كثرة القراءة والاطِّلاع لتنمية الثَّقافة والفكر، فهذا سبب لإيجاد القابليَّة في الاستيعاب والفهم واكتساب الخبرات، خصوصًا في الدِّراسات القرآنيَّة، فهذا أمر مهمّ.

٥- الجلوس مع العلماء والاستفادة منهم بهذا الشَّأن، فكلُّ عالم ومفكِّر له تجربته الخاصَّة من خلاله فهمه واطِّلاعه يساعد الإنسان في كيفيَّة الاستنباط وتحصيل الأفكار بطرق مختلفة.

أمَّا عن الأوقات المفضَّلة في القرآن فهي:

١- الفجر، أي بعد الصَّلاة، فالقراءة في هذا الوقت مهمَّة ترتبط باستعداد الإنسان للقيام بمهامِّه اليوميَّة، فهو في حالة متوقِّدة للعمل والنَّشاط، وهذه الحالة الإيجابيَّة لها دور في الاستيعاب والتَّأمُّل، عكس لو كان في الظُّهر أو العصر أو بداية اللَّيل فهو مجهد ينتظر الرَّاحة. إنَّ القرآن يُشدِّد على هذا الوقت ﴿**وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا**﴾[1]، ولذلك جاء في الحديث: «بُورك في أمَّتي في بكورها»[2]. وسمِّي فجرًا من الفجور لأنه الخروج من الظَّلام، فهو يحمل الأمل والتَّجديد.

٢- وقت اللَّيل والسَّحر، حيث يعيش الإنسان راحة البال من صخب العمل وضجيج النَّاس، وعادة يكون الارتخاء والتَّفرُّغ من كلِّ الشَّواغل، ليجد الإنسان نفسه مقبلًا على طاعة اللَّه متفرِّغًا لنفسه، فيقوده تفكيره إلى العناية بالحياة بشكل أفضل من خلال ارتباطه بالقرآن، ففي صفات المتَّقين

(١) سورة الإسراء، الآية ٧٨.
(٢) الوافي، ج٢٦، ص ٥٤٤.

في نهج البلاغة: «أمَّا اللَّيل فصافُّون أقدامهم تالين لأجزاء القرآن يُرتِّلونها ترتيلًا، يُحزِّنون به أنفسهم، ويستثيرون به دواء دائهم...»[١].

٣- شهر رمضان، أي في كلِّ أوقاته، ففيه تتضاعف البركات والرَّحمات والأجر والثَّواب، والشَّياطين فيه مغلولة، والإنسان يكون فارغًا من الانشغالات المادِّيَّة، فهو شهر يختلف في روحانيَّته وطبيعته عن كلِّ الشُّهور والأوقات، ففي الحديث «لكلِّ شيء ربيع وربيع القرآن شهر رمضان»[٢]. ممَّا يدعو للانفتاح على كتاب اللَّه والتَّزوُّد منه، ليصبح قاعدةً وانطلاقةً ومنهجًا لتحقيق التَّغيير والإصلاح والبناء والنُّهوض بهذه الأمَّة، وتجاوز حقب التَّخلُّف والقضاء على المشاكل ومواجهة التَّحدِّيات الحضاريَّة، والثَّبات على المصائب والابتلاءات، ففي الحديث: «فإذا التبست عليكم الفتن كقطع اللَّيل المظلم فعليكم بالقرآن»[٣].

فمن خلال هذه الخصائص والمزايا الأخرى لهذا الشَّهر العظيم يجب أن نضع البرامج والخطط لتسخير إمكاناتنا ونوجِّه طاقاتنا واهتماماتنا بالاتِّجاه الصَّحيح، وهنا نذكر أهمّ الأبعاد والمحاور:

أولًا: بناء الإنسان:

فليس المقصود من الشَّهر والصِّيام هو تغيير في برامج حياة الإنسان، والأجواء والرُّوتين، كما هو حال الكثير من الشَّباب حيث يجدون في أجواء هذا الشَّهر متعة التَّسوُّق والرَّاحة والاسترخاء واللَّعب واللَّهو، ومن المظاهر

(١) نهج البلاغة، ص ٣٠٤، خطبة المتقين.
(٢) الكافي (ط - دار الحديث)، ج٤، ص ٦٦٤.
(٣) الكافي (ط - دار الحديث)، ج٤، ص ٥٩٥.

السَّلبيَّة والمنحرفة والَّتي تؤثِّر على الالتزام والشَّباب بشكل خاصّ هي تلك البرامج التِّلفزيونيّة عبر القنوات وكذلك الإنترنت والَّتي تستقطب هذه الشَّريحة بالخصوص، وتحاول أنَّ تحرفهم وتفرّغ اهتمامهم من كلِّ شعور وإحساس بالمسؤوليَّة.

من هنا نقول: إنَّ مسؤوليَّة الإعلام العربيِّ والإسلاميِّ كبيرة وخطيرة، خصوصًا في عصر الانفتاح والعولمة، ونوجِّه المسؤوليَّة إلى كلِّ المسؤولين في إدارة هذا الإعلام في أيِّ بلد، حيث أصبح إعلامنا محطَّةً وبوَّابةً للتَّنافس على إعداد مثل هذه البرامج والتَّشجيع على الانخراط فيها والتَّواصل معها والتَّحفيز على المشاركة معها، والأسوأ يتمّ التَّركيز والإكثار والإعداد لها في الشَّهر الكريم والفضيل تحت شعار (رمضان كريم).

فهل هذه كرامة الشَّهر؟ وهل هذا هو دور الإعلام في بناء الإنسان، وتحقيق التَّنمية والتَّقدُّم؟ وهل هذه هي الحرِّيَّة الصَّادقة الَّتي نطالب بها؟ إنَّه جرم كبير في حقِّ الإنسان وفي حقِّ الشَّباب، حيث يصرفون أثمن حياتهم في القضايا والجوانب الهامشيَّة، وهي تتنافى مع حرمة الشَّهر، بل هي هدم للقيم البنَّاءة والفلسفة من حكمة التَّشريع والصِّيام.

ولذلك يجب اليقظة والحذر من التَّأثُّر بذلك، والتَّوجُّه إلى اللَّه والتَّقرُّب إليه بالطَّاعات والالتزام بكافَّة الأبعاد والاهتمامات، حيث يقول الرَّسول ﷺ في خطبته قبيل شهر رمضان: «فإنَّ الشَّقيَّ من حُرم غفران اللَّه في هذا الشَّهر العظيم»[1]، إذ يؤكِّد القرآن في هذا الشَّهر على البناء وليس

(١) الأمالي، الصدوق، ص ٩٣.

الهدم، يقول تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾[١].

والتقوى هي روح الإيمان، وتتجلَّى في الأبعاد التالية:

١- في الإخلاص للَّه:

حيث يشعر الإنسان برقابة اللَّه وعظمته وقربه حيث لا أحد يطلع عليه ففي الحديث: «الصَّوم لي وأنا أجزي عليه»[٢].

٢- بناء الإرادة:

حيث يتساءل الإنسان: لماذا حرم اللَّه الطَّيِّبات من الرِّزق وبعض المباحات مثل مقاربة الزَّوجة؟

والجواب: هو لتكريس الطَّاعة والالتزام، وكذلك لبناء إرادة الإنسان، كي يُحقِّق هذا الالتزام ويتجنَّب المعاصي والذُّنوب والمحظورات في حياته، ففي الحديث: «اتَّق المحرَّمات تكن أتقى النَّاس». فالإنسان الَّذي يخضع لأهوائه ويتَّبع شهواته يصبح أسيرًا ذليلًا، ويفقد قدرته وكرامته، ففي الحديث: «من كانت همّته ما يدخل بطنه كانت قيمته ما يخرج منه»[٣]، وآخر: «أكثر مصارع العقول تحت بُرُوق المطامع»[٤]، و«الطَّمع رق مؤبَّد»[٥]«

(١) سورة البقرة، الآية ١٨٣.
(٢) وسائل الشيعة، ج١٠، ص ٣٩٧.
(٣) غرر الحكم ودرر الكلم، ص ٦٤١.
(٤) نهج البلاغة، ص ٥٠٧.
(٥) نهج البلاغة، ص ٥٠١.

إذًا المطلوب هو تزكية النَّفس وبناؤها وتربيتها، حتَّى لا تقودنا إلى المهالك وإلى النَّار والعياذ باللَّه، يقول تعالى: ﴿**فَأَمَّا مَنْ طَغَى * وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا * فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَى * وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى * فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى**﴾[١]. وفي الصَّحيفة السَّجاديَّة نجد كيف الإمام زين العابدين يتلوَّى ويشكو من النَّفس الأمَّارة بالسُّوء: «إلهيّ أشكو إليك نفسًا بالسُّوء أمَّارة، وإلى الخطيئة مبادرة، وبمعاصيك مولعة، تسلك بي مسالك المهالك، وتجعلني عندك أهون هالك، كثيرة العلل، طويلة الأمل، إن مسَّها الخير تمنع، وإن مسَّها الشَّرُّ تجزع، ميَّالة إلى اللَّعب واللَّهو، مملوءة بالغفلة والسَّهو»[٢].

ولذلك فإنَّ النَّفس هي أُسُّ المشاكل وجذر الانحراف في حياة الإنسان، وإن الخطوة الأساسيَّة في البناء تبدأ من إصلاح النَّفس وتزكيتها والتَّغلُّب على الشَّهوات، يقول الإمام علي عليه السلام: «ميدانكم الأول أنفسكم فإنَّ قدَّرتم عليها كنتم على غيرها أقدر، وإن عجزتم عنها كنتم على غيرها أعجز»[٣]، وآخر: «من قويّ على نفسه تناهى في القوَّة»[٤]، ويقول الرَّسول صلى الله عليه وآله: «ليس الشَّديد بالصَّرعة (قوَّة الجسم والعضلات) ولكنَّ الشَّديد من غلب هواه»[٥].

(١) سورة النازعات، الآية ٣٧ – ٤١.
(٢) الصحفية السجادية، مناجاة الشاكين.
(٣) نهج البلاغة.
(٤) غرر الحكم ودرر الكلم، ص ٦٠٣.
(٥) بحار الأنوار، المجلسي، ج٧٤، ص١٥١.

٣- الالتزام بالأخلاق الفاضلة:

فقد يؤثِّر الصَّوم على مزاج أطباع الإنسان بسبب الجوع والعطش، ممَّا يدعو إلى الصَّبر، ومن جانب آخر فإنَّ الأخلاق هي مؤشِّر الوعي والنُّضج والالتزام الصَّادق، كما أنَّ الأخلاق هي جسر العلاقة والرَّوابط الاجتماعيَّة ومن دونها نفقد القدرة على الصِّلة والتَّواصل والتَّعاون مع النَّاس، يقول الرَّسول صلى الله عليه وآله في خطبته: «من حسن في هذا الشَّهر خلقه كان له بذلك جواز على الصِّراط: فهي ضرورة حضاريَّة في الحياة.

فأوَّلًا: على صعيد الفرد فإنَّ سوء الخلق سبب لشقاء الإنسان وتعاسته، يقول الإمام عليه السلام: «من ساء خلقه فقد عذب نفسه»[1].

ثانيًا: أمَّا على صعيد المجتمع فإنَّ الأخلاق السَّيِّئة سبب للصِّراعات والأحقاد والضَّغائن والتَّفكُّك وتفشِّي العيوب. وهذه العوامل كافية في دمار المجتمع وسلب راحته واستقراره. ولذلك أصبحت قيمة الأخلاق ركيزةً أساسيَّةً في الإيمان ولا تنفكُّ عنه، يقول الرَّسول صلى الله عليه وآله: «أحسنكم إيمانًا أحسنكم أخلاقًا»، «ما وضع في ميزان المرء أحسن من حسن الخلق»، فليس كافيًا أن يصوم الإنسان أو يكون عابدًا متنسِّكًا إذا لم يكن ذا خلق سليم. وفي الحديث عن الرَّسول،: «إنَّ أيسر ما فرضه اللَّه على الصَّائم في صيامه هو الإمساك عن الطَّعام والشَّراب».

ولذلك فإنَّ الأخلاق هي الدَّيمومة لمصدر الاستقرار والأمن والحيويَّة في أيِّ مجتمع، والمجتمع المتمسِّك بالأخلاق يكون مرشَّحًا للتَّقدُّم وأكثر

(١) بحار الأنوار، ج٧٥، ص٢٠٠.

مساهمةً في البناء والعكس صحيح.

يقول الشاعر:

إنَّما الأمم الأخلاق ما بقيت إن هم ذهبت أخلاقهم ذهبوا

ولا أدلَّ على ذلك من مجتمعاتنا، فهي وإن كانت تلتزم بالدِّين وتسعى لتطبيق تعاليمه، لكن بسبب افتقادها للأخلاق في تعاملها وسلوكيَّاتها فإنَّها ليس قادرةً على المضيِّ، بينما نجد الغرب المادِّيّ وإن كان لا يلتزم ولا يؤمن بقيم الدِّين لكنَّه يلتزم الأخلاق ويُقدِّر المعاملة، ولذلك فهو يتقدَّم ويسلك سبل البناء، وينجح في مهامِّه وقضاياه.

من هنا يؤكِّد الإسلام على قيمة الأخلاق كمبدأ في الحياة، ومنهج في البناء وسلوك في العلاقة، ومنطلق في الحضارة، وبعد ذلك فلا يجوز التَّخلِّي أو التَّهاون والاستهانة بالأخلاق في كلِّ أبعاد وجوانب حياتنا، فيجب أن نحترم ونقدِّر النَّاس كما نحترم أنفسنا، ولا يجوز أن نسيء لأحد مهما كانت الأسباب والدَّوافع والمبرِّرات وإلَّا فقدنا المصداقيَّة والمبدئيَّة.

وللأسف وعلى هذا الصَّعيد هو ما نجده من ظواهر سلبيَّة في مجتمعاتنا حيث يكون مجرَّد الاختلاف في الرَّأي أو وجهات النَّظر في أيِّ موضوع سببًا لاحتقار الآخرين أو الاستهزاء بهم أو اتِّهامهم أو تعبئة النَّاس ضدَّهم، وقد يكون الحقُّ معهم، وهذا خطأ كبير، فالإسلام لا يبيح التَّعدِّي على الآخرين، أو أن يتجاوز الإنسان الحدود والضَّوابط الشَّرعيَّة والأخلاقيَّة، مهما كانت الأسباب أو الاختلافات، لأنَّها ليس مبرِّرًا، حتَّى لو اطمأنَّ الإنسان بأنَّه صاحب حقّ وأن الآخرين على خطأ، بل يجب الالتزام بمبدأ الأخلاق

وإنصاف النَّاس ومداراتهم، فهذه حقيقة الدِّين ومصداقيَّة التَّعاليم وأهدافه في تحقيق البناء الإنسانيِّ والاجتماعيِّ، وهذه هي حقيقة التَّقوى، وليس الادِّعاء أو الشِّعارات، فكثير من يتجاهلون الأخلاق تحت ستار الدِّين والحرص عليه، ويبرِّرون مواقفهم وسلوكيَّاتهم بأقنعة الشَّرع والمصلحة والدِّفاع عن المبادئ والثَّوابت، فيُبيحون لأنفسهم ما لا يبيحونه للآخرين، ويتجاوزون مبدأ الأخلاق وكأنَّها ليست من الدِّين أو جزءًا من تعاليمه السَّمحة.

ولذا يجب التَّركيز خلال هذا الشَّهر على الالتزام بالأخلاق والارتقاء بسلوكيَّاتنا وتعاملنا في كلِّ الجوانب الحياتيَّة، ففي خطبة الرَّسول ﷺ في هذا الشَّهر: «من حسن منكم في هذا الشَّهر خُلُقه كان له جواز على الصِّراط»[1]، فلا يكفي أن نحسن عباداتنا، بل المهمُّ أن تكون هذه العبادة مصدرًا لترسُّخ قيمة الأخلاق.

ثانيًا: بناء المجتمع الفاضل:

إنَّ النُّهوض بأيِّ مجتمع هو رهن بالإرادة الاجتماعيَّة، كما أنَّ المجتمع الواعي هو الَّذي يحرص على سبل الرُّقيِّ والبناء، ويتوقَّى المشاكل ويتجنَّب العقبات، والرُّوح الإيجابيَّة والمسؤولة هي من أهمِّ سمات هذا المجتمع، فمن خلالها تبرز:

١- الهمم والإرادات.
٢- القدرة على تجاوز المشكلات.

(١) الأمالي، الصدوق، ص ٩٤.

٣- البحث دائمًا عن سبل العلاج والإصلاح والارتقاء.
٤- روح التعاون والتكافل والإحساس بوحدة المجتمع.
٥- التطلُّع نحو المستقبل وروح الأمل.

أمَّا الرُّوح السَّلبيَّة والتَّخلِّي عن المسؤوليَّة فهي من أهمِّ عوامل الفشل والاتِّكاليَّة والتَّبريرات، ولذلك أيضًا هي الَّتي تقف عقبةً أمام أيِّ خطوة بنَّاءة أو مشروع نهضويّ أو طريق الإصلاح، لأنَّها تفتقد إلى الشَّجاعة والمبادرة والرُّوح الخلَّاقة.

والمجتمع الواعي هو الَّذي يسعى لتكريس هذه الرُّوح الإيجابيَّة في حياته، وحينما تسود هذه الرُّوح تبرز عناصر القوَّة فيه، وسبل الخير، وتنفتح أمامه آفاق المستقبل المشرق. من هنا فإنَّ القرآن يُحذِّر من هذه الرُّوح السَّلبيَّة لأنَّها لا تعكس روح الدِّين وقيمه وثقافة الإسلام، بل تقف مانعًا في بناء المجتمع.

لكنَّ المجتمع الواعي هو الَّذي لا يتأثَّر بهذه الرُّوح السَّلبيَّة، لأنَّه يعي مسؤوليَّاته ووظيفته في الحياة واتِّجاه دينه وأمَّته، فإيمانه والتزامه وتقواه وما يحمل من تطلُّعات وأهداف وآمال لا يسمح لهذه الرُّوح أن تتفشَّى في المجتمع، وتوقع الهزيمة والإحباط في النُّفوس.

إذًا من المهمِّ هو تقمُّص هذه الرُّوح الإيجابيَّة واستعادة دورها في حياة الأمَّة، وتعاليم هذا الشَّهر الكريم تحفِّز الإنسان وتدفعه وتشجِّعه على ممارسة هذا الدَّور والقيام بكلِّ المهامِّ. فشهر رمضان هو في الواقع صياغة جديدة لحياة الأمَّة ودور الإنسان المؤمن في الحياة.

ثالثًا: آمال الأمة وتطلعاتها:

فليس من الصحيح أن نغوص في مشاكلنا الشخصية أو نخوض في القضايا الهامشية، دون أن يكون لنا اهتمامات حقيقية، وتطلعات عالية، وأهداف سامية، وقضايا مصيرية، فأين هي استحقاقات الأمة الخيِّرة والشاهدة والرائدة والحضارة الإسلامية؟

إذًا العقلاء والمصلحون في هذه الأمَّة هم من يعتبرون ويأخذون بأحسن الطُّرق والتَّعاليم، فهم يأخذون العبرة من الماضي وينظرون إلى الواقع والحاضر، ويتبنَّون المصلحة، ويتجنَّبون الأضرار والمحن والمآسي، فالحفاظ على المكتسبات التَّاريخيَّة والإنجازات إنَّما يكون في الاستفادة منها، كما أنَّ الشُّعور بالامتعاض والنَّدم والحسرة من المآسي والإحباطات والإخفاقات إنَّما يكون بتجنُّبها وليس عبر تكرارها واجترارها وتكريسها دون مبرِّرات ولا منافع مرجوَّة. يقول تعالى: ﴿**تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ**﴾[1].

إذًا المطلوب هو التَّأكيد على هويَّة الأمَّة وإعادة هيبتها ودورها الرِّياديِّ، وذلك من خلال التَّأكيد على وحدتها بعد أن مزَّقتها الصِّراعات والخلافات والعصبيَّات، يقول تعالى: ﴿**إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ**﴾[2]، ويقول: ﴿**وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ**﴾[3]، أمّا السَّبيل لذلك فيقول: ﴿**وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا**﴾، ويحذِّرنا القرآن من الفتن

(١) سورة البقرة، الآية ١٣٤.
(٢) سورة الأنبياء، الآية ٩٢.
(٣) سورة المؤمنون، الآية ٥٢.

والخلافات لأنَّها سبب للضَّعف والانهيار والضَّياع ومحو الهويَّة، يقول تعالى: ﴿**وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ**﴾[1].

إذًا لا بدَّ من العودة والبحث عن السُّبل والآليَّات الكفيلة بإصلاح الواقع، والتَّغيير من نمط التَّفكير وأسلوب العمل والعلاقة، وتأسيس البناء المشترك في الحياة والمصير، وإعادة الاعتبار إلى شخصيَّتنا وهويَّتنا، خصوصًا ونحن أمام تحدِّيات واقعيَّة وتأثيرات خطيرة، في ظلِّ العولمة والانفتاح والبحث عن إثبات الوجود. إذًا المعركة حضاريَّة، والمخاطر لا يمكن التَّكهُّن بها. ومن هنا نؤكِّد على بعض الآليَّات والسُّبل الَّتي نحتاجها في طريق العودة وتحقيق الوحدة بشكل عامّ:

١- الانفتاح والتَّواصل، يقول الإمام علي عليه السلام: «عليكم بالتَّواصل والتراحم، وإيَّاكم والتَّدابر والتَّقاطع»[2].

٢- التَّأكيد على لغة الحوار وتأصيلها.

٣- كذلك التَّأكيد على لغة التَّسامح والصفح، يقول تعالى: ﴿**فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ**﴾[3]، والعفو هو التَّنازل عن الحقِّ الخاصِّ، بينما الصَّفح هو إزالة التَّأثيرات النَّفسيَّة.

٤- بناء المشاريع المشتركة والنَّافعة، يقول تعالى: ﴿**وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ**

(١) سورة الأنفال، الآية ٤٦.
(٢) نهج البلاغة، ص ٤٢٢.
(٣) سورة البقرة، الآية ١٠٩.

وَالتَّقْوَى وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾[١].

٥- احترام الحقوق والعيش المشترك ووحدة المصير.

٦- التَّشجيع والالتفاف حول الشَّخصيَّات والمبادرات والخطوات البنَّاءة من أجل تحقيق النَّجاح والطَّريق إلى الفلاح، قال تعالى: ﴿**وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾**[٢].

٧- الحذر من الفتن والأفكار الهدَّامة والتَّعصُّب والتَّشدُّد ولغة العنف والإرهاب، وتجريم كلِّ من يسعى إلى تمزيق وحدة الأمَّة ويعبث بكرامتها وتشويه صورتها أمام العالم.

وأخيرًا فإنَّ شهر رمضان بما يمثِّل من قيم روحيَّة وأجواء إيمانيَّة وأخلاقيَّات سامية يعتبر فرصةً ومحطَّةً للتَّزوُّد والانطلاق في تبنِّي كلِّ ما يعزِّز من وحدة الأمَّة من أفكار ورؤى ووسائل وآليَّات وخطوات في هذا الطَّريق.

---

(١) سورة المائدة، الآية ٢.

(٢) سورة آل عمران، الآية ١٠٤.

شهر رمضان والرحمة الإلهية

حيث تتجلَّى هذه الرَّحمة بالإحاطة والعناية بهذا الشَّهر الكريم، ومن جميع الزَّوايا والأبعاد، وهي في الحقيقة عناية بهذا الإنسان ومدى رحمه اللَّه ولطفه به حيث يتولَّى شؤونه ويحرص على سعادته في الدُّنيا، يقول تعالى: ﴿**قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ * مَلِكِ النَّاسِ * إِلَهِ النَّاسِ**﴾[1]، فبدأ بالرُّبوبيَّة والَّتي تعني التَّربية لهذا الإنسان، حيث تُحيطه العناية والألطاف، فكلُّ ما في الوجود مسخَّر إليه كما قال تعالى: ﴿**وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا**﴾[2]، هذا في الدُّنيا، أمَّا في الآخرة فقد ادَّخر له النَّعيم والخلود والجنَّة، حيث لا عين رأت ولا خطر على قلب بشَّر، فرحمة اللَّه سبحانه دائمة وتحيط بهذا الإنسان وتُغدق عليه بكلِّ مظاهر الخير والبركات والفضل والإحسان، ولذلك فإنَّ رحمة اللَّه هي المبدأ والأصل الَّذي يكسو هذا الكون، أمَّا عذابه وغضبه إنَّما يكون بسبب المعاصي والذُّنوب والظُّلم، ولولا ذلك لبلغت البشريَّة ذروتها من السَّعادة والهناء والكمال وتحقيق الرَّفاهية، يقول تعالى: ﴿**وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آَمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ**

(١) سورة الناس، الآية ١ – ٣.
(٢) سورة الجاثية، الآية ١٣.

﴿وَلَكِنْ كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾[١].

الرحمة العامة والخاصة:

ولذلك يُقسِّم العلماء هذه الرَّحمة إلى قسمين: الرَّحمة العامَّة وتسمَّى (الرَّحمة التَّكوينيَّة)، الَّتي تحيط بهذا الكون والعالم بكلِّ مظاهر الرَّحمة والعناية مثل النِّظام الكونيِّ والسُّنن والطَّاقات المختلفة والخيرات والنِّعم، مثل الشَّمس والقمر والهواء والبحَّار والأرض وغيرها من الآثار الَّتي يعجز الإنسان والعقل البشريُّ عن تحديدها وتقديرها، يقول تعالى: ﴿**فَانْظُرْ إِلَى آثَارِ رَحْمَةِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ ذَلِكَ لَمُحْيِي الْمَوْتَى وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ**﴾[٢]، والقرآن فيه أمثلة وتفاصيل وتوجيهات وإشارات لهذه الرَّحمة والعناية الَّتي سُخِّرت من أجل الإنسان، يقول تعالى: ﴿**وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ**﴾[٣].

إذًا لا يمكن رسم الحدود وتعداد هذه النِّعم، يقول تعالى: ﴿**وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ**﴾[٤]، وقيل في الآية بأنَّها نعمة واحدة، وقول آخر: إنَّها للجنس. وهذه النِّعم مسخَّرة من أجل الإنسان فقط، سواء بشكل مباشر أو غير مباشر، لتلبية حاجاته وتحقيق متطلَّباته وأهدافه، يقول الحقُّ: ﴿**وأتاكم وَآتَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا**

(١) سورة الأعراف، الآية ٩٦.
(٢) سورة الرُّوم، الآية ٥٠.
(٣) سورة إبراهيم، الآية ٣٣.
(٤) سورة النَّحل، الآية ١٨.

تُحْصُوهَا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾[١]، ﴿**هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا**﴾[٢].

إذًا الإنسان هو المستفيد والرَّابح على اللَّه سبحانه، أمَّا بالنِّسبة إلى الخالق فهو غنيّ عن العالمين، يقول الإمام علي عليه السلام في نهج البلاغة في خطبة المتَّقين «فإنَّ اللَّه سبحانه وتعالى خلق الخلق حين خلقهم غنيًّا عن طاعتهم، آمنًا من معصيتهم؛ لأنَّه لا تضرُّه معصية من عصاه، ولا تنفعه طاعة من أطاعه»[٣].

والمطلوب من العباد تحقيق هذه العبوديَّة والشُّكر للَّه على هذه النِّعم، قال تعالى: ﴿**وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ**﴾[٤]، ويقول: ﴿**وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ**﴾[٥]، فحقيقة العبادة المطلوبة هي الاعتراف والشُّكر للَّه على هذه النِّعم المتتالية، والالتزام بالطَّاعات والعمل الصَّالح، وتسخيرها في طريق الخير، وتجنُّب المعاصي الَّتي تغضب الرَّبَّ. وهذا هو حقيقة الشُّكر للنِّعم، وهي الحكمة والفلسفة من الصِّيام أيضًا، قال تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ**﴾[٦].

---

(١) سورة إبراهيم، الآية ٣٤.
(٢) سورة البقرة، الآية ٢٩.
(٣) نهج البلاغة، ص ٣٠٣.
(٤) سورة الذاريات، الآية ٥٦.
(٥) سورة النَّحل، الآية ٧٨.
(٦) سورة البقرة، الآية ١٨٣.

أما الهداية الخاصَّة فهي الهداية للدِّين، ومن أهمِّ أصول الدِّين وحقيقته هو الولاية للَّه وللرَّسول وللأئمة الهداة الميامين الأطهار، ولقد أوصى الرَّسول ﷺ بأهل بيته ومثَّلهم بسفينة نوح من ركبها فقد نجا، ومن تخلّف عنهم فقد هلك.

والإنسان بعد ذلك مخيَّر بين الإيمان بذلك أو يكفر، أمَّا الإيمان باللَّه ودون الأخذ بالتَّعاليم الَّتي جاء بها الرَّسول ﷺ فيعدُّ كفرًا أو انحرافًا وضلالًا، قال تعالى: ﴿**وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا**﴾[١]، وتعتبر ولاية أهل البيت عليهم السلام هي الفيصل في الإيمان؛ لأنَّهم يجسِّدون الحقّ وتعاليم الإسلام، وهي العصمة الَّتي أشار إليها الرَّسول ﷺ في حديث الثِّقلين؛ ولذلك فإنَّ أمر الولاية هو من أهمِّ الأصول والواجبات في تحقيق الإيمان، وهو ما يُسأل عنه الإنسان يوم القيامة حيث قال تعالى: ﴿**ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ**﴾[٢]، فما هو النَّعيم؟ هو خطُّ أهل البيت عليهم السلام ورثة الأنبياء، وهو الخطُّ المستقيم في سورة الفاتحة حيث قال تعالى: ﴿**صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ**﴾، والأخرى ﴿**مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا**﴾[٣]، فإنَّ رفقة أهل البيت عليهم السلام والسَّير في طريقهم هو خطُّ الإيمان، وهذا ما يمنُّ به اللَّه على الإنسان، ﴿**بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ**﴾[٤]. فالصِّدق في الإيمان يستلزم التَّمسُّك بالولاية، إذًا فالولاية من أكبر النِّعم،

(١) سورة الحشر، الآية ٧.
(٢) سورة التكاثر، الآية ٨.
(٣) سورة النساء، الآية ٦٩.
(٤) سورة الحجرات، الآية ١٧.

وبدونها لا يكتمل الدِّين والإيمان، بل يعد كفرًا ونفاقًا وضلالًا، خصوصًا من اطَّلع على الحقيقة ولم يكن من الجاهلين.

إذًا خلقنا اللَّه من أجل الرَّحمة والَّتي تتجسَّد في النَّهج القويم واتِّباع الهدى، وليس اتِّباع الأهواء والشَّهوات والمصالح الذَّاتيَّة أو العصبيَّات الجاهليَّة الَّتي ترفض ولاية أهل البيت ش وتُقصيهم عن مكانتهم ودورهم في الحياة، فهذا كفر بالنِّعمة والرَّحمة الخاصَّة.

فهذه الرَّحمة الخاصَّة هي الَّتي يستحقُّها الإنسان بتقواه، والاستقامة على النَّهج، فالرَّحمة هي الأصل الَّذي يكسو الحياة في كلِّ زواياها، أمَّا العذاب فهو الاستثناء ونتيجة للانحراف والضَّلال، قال تعالى: ﴿**عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ**﴾[1]، ويتَّقون أيَّ يسيرون على النَّهج السَّويِّ، وليس بالضَّرورة أن تكون ملكة في النَّفس، فهذا أمر لا يُنال وقد لا يُطاق عند الكثير من المتَّقين فكيف بغيرهم من سائر النَّاس، ومن أراد أن يطَّلع على هذه الملكة فليرجع إلى خطبة الإمام علي عليه السلام في نهج البلاغة عن صفات المتَّقين، كيف تقف على حقيقة وملكة التَّقوى، أمَّا تقديم صفة الغضب في الآية فهي حسب السِّياق، لتُفيد الاطمئنان، بعد الدُّعاء بقوله تعالى: ﴿**وَاكْتُبْ لَنَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ**﴾، فجاء الجواب.

فالرَّحمة الخاصَّة هي للمتَّقين والصَّالحين والشَّاكرين، أمَّا العذاب فلمن يستحقُّونه من العصاة والمذنبين ولمن يعصون اللَّه ورسوله ويصرُّون

(١) سورة الأعراف، الآية ١٥٦.

على الحنث العظيم، وليس المقصود من الآية ﴿**أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاء**﴾ أي بدون سبب واستحقاق لأنَّ عدالة اللَّه تأبى ذلك، يقول تعالى: ﴿**ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ**﴾[1].

روعة التشريع الإسلامي:

من هنا نجد تلك الرَّوعة والرَّحمة في التَّشريعات وفي تشريع الصِّيام بالخصوص والإحاطة والعناية بالشَّهر الكريم، حيث تجلَّت الرَّحمة الإلهيَّة من أجل هداية الإنسان والأخذ بيده نحو سبل الخير والطَّاعات والقربات إلى اللَّه.

فهذا الشَّهر العظيم فيه من العناية القصوى والرَّحمة العامَّة والخاصَّة، حيث النِّعم الظَّاهرة والباطنة الَّتي لا تعدُّ ولا تحصى فهو يمثِّل الهديَّة والهبة أو الضِّيافة الرَّبَّانيَّة الخاصَّة، والَّتي تليق بصاحب الضِّيافة، وتمثِّل جاذبيَّة الرَّحمة لهذا الإنسان.

وقبل ذلك لا بدَّ من الإشارة إلى أهمِّيَّة مفهوم الضِّيافة ودلالتها، فقط لتقريب الفكرة، فلو لم يخبرنا الرَّسول ﷺ بذلك لم نقف عند هذه الحقيقة والمنزلة عند اللَّه، فنحن ضيوف عند اللَّه في هذا الشَّهر، فماذا يعني ذلك، وماذا نتوقَّع؟

معلوم أنَّ الضِّيافة على قدر المضيف (بضمِّ الميم)، فكلَّما كان المضيف له شأن وعلوّ ومكانة كانت الضِّيافة مناسبةً لذلك، ومن جهة أخرى لا بدَّ أن نعرف قدرنا عند المضيف أيضًا. والفارق بين الخالق وغيره من

(١) سورة آل عمران، الآية ١٨٢.

العباد في أمر الضِّيافة أنَّ صاحب الضِّيافة من النَّاس قد لا يخلو من مصلحة يبتغيها من أمر الدُّنيا في الغالب، بينما اللَّه سبحانه لا يحتاج إلى عباده وهم الفقراء واللَّه هو الغنيُّ، والكمال المطلق، وهذا هو السِّرُّ العظيم في هذه الدَّعوة من اللَّه.

والعظمة الأخرى الَّتي تتناسب مع هذا المقام الإلهيِّ والرَّبَّانيّ تنبع عظمة الشَّهر الكريم، وما حفَّ من آيات بيِّنات وحقائق يذهل عنها العبد، لعدم الوقوف عند أسرارها وكنهها، وفي مقدِّمتها كتاب اللَّه والدَّعوة إلى هدايته، وكذلك ليلة القدر الَّتي لا يعرف سرَّها إلَّا اللَّه ومن أطلعهم على غيبه من الرُّسل والمعصومين، وغيَّر من الدَّعوات والإذن إلى دعائه، فإنَّ آية الدُّعاء في قوله: ﴿**ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ**﴾[1] نزلت في الشَّهر الكريم، والألطاف والموائد لا تعدُّ ولا تنتهي، فكيف نقدِّر هذه الموائد وكذلك كرم الضِّيافة؟

وهنا نشير إلى تجلِّيات هذه الرَّحمة وكرم الضِّيافة كي يتسنَّى لنا الوقوف عندها والاهتمام بمزاياها والتَّعاطي معها بحرص وإيمان والتزام وتطلُّع إلى رحمة اللَّه وتحقيق رضاه، وهذا تعبير عن أدب الضِّيافة، الَّذي ينبغي أن نتحلَّى به، وليس الاهتمام بالطَّعام والشَّراب ولبس الثِّياب الجميلة، من أجل مقابلة إنسان عظيم أو له وجاهة أو عنده مال كثير، فما عند العباد من كلِّ شيء ينفد وما عند اللَّه باقٍ وما عنده ينمو.

ورحمة اللَّه في هذا الشَّهر وغيره تنزل على العباد بقدر استعدادهم

(١) سورة غافر، الآية ٦٠.

وأهليَّتهم من الإيمان والتَّقوى والصَّلاح، كما أشار تعالى: ﴿**أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَابِيًا وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِثْلُهُ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ**﴾[١]، فهذا مثال وإشارة من البارئ على الفوارق بين الحقِّ والباطل، وكذلك التَّفاوت في العقول والاستعدادات، كنزول المطر في الأودية بقدر مساحتها، فتأمَّل رعاك اللَّه.

وهنا نشير إلى تجلِّيات هذه الرَّحمة والإحاطة بشهر رمضان الكريم، ومدى العناية به:

١- مُفضَّل على كل الأوقات:

حيث يقترب فيه الإنسان إلى اللَّه، فهذا القرب له خصوصيَّة عند اللَّه، يقول الرَّسول ﷺ في خطبته قبيل شهر رمضان وهو يحثُّ النَّاس على الصِّيام والاستعداد، روى الصَّدوق بسند عن الرِّضا عليه السلام عن آبائه عن أمير المؤمنين عليه السلام قال: إنَّ رسول اللَّه ﷺ خطبنا ذات يوم فقال «أيُّها النَّاس، إنَّه قد أقبل إليكم شهر اللَّه بالبركة والرَّحمة والمغفرة، شهر هو عند اللَّه أفضل الشُّهور، وأيَّامه أفضل الأيَّام، ولياليه أفضل اللَّيالي وساعاته أفضل السَّاعات...»[٢].

---

(١) سورة الرعد، الآية ١٧.

(٢) وسائل الشِّيعة، ج ١٠، ص ٣١٣، ب ١٨.

٢- قبول الأعمال ومضاعفاتها:

وهذا الوعد الإلهيُّ والمكرمة خاصَّة بالشَّهر، دون غيره، وهي تمثِّل إضافةً في قبول الأعمال من المتَّقين: ﴿**إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ**﴾[١]، «ومن تطوَّع فيه بصلاة كتب اللَّه له براءة من النَّار، ومن أدَّى فيه فرضًا كان له ثواب من أدَّى سبعين فريضةً فيما سواه من الشُّهور»[٢]. والأكثر من ذلك هو تعظيم كلِّ أوقات الإنسان وإن لم تكن عبادة خاصَّة «أنفاسكم فيه تسبيح، ونومكم فيه عبادة، وعملكم فيه مقبول، ودعاؤكم فيه مستجاب... »[٣].

٣- فتح باب التوبة:

يقول الرَّسول ﷺ: «أيُّها النَّاس، إنَّ أبواب الجنان في هذا الشَّهر مفتَّحة فاسألوا ربَّكم أَلَّا يُغلقها عنكم، وأبواب النِّيران مغلقة فاسألوا ربَّكم أَلَّا يفتحها عليكم، والشَّياطين مغلولة فاسألوا ربَّكم أَلَّا يسلِّطها عليكم»[٤]. وهي كذلك مكرمة إلهيَّة، قد ينتظرها الكثير من العصاة والمردة والظَّالمون، فإنَّ اللَّه سبحانه وبرحمته يتجاوز عنهم، ويمنحهم صكّ الغفران، بشرط أن تكون هذه التَّوبة نصوحًا، ولذلك قد لا تتحقَّق هذه الفرصة للإنسان. وإذا قيل بوجوب المبادرة في التَّوبة، فإنَّها في هذا الشَّهر تكون أفضل وآكد، فلماذا يُضيّع الإنسان هذه الفرصة، مهما كانت الذُّنوب والمعاصي الَّتي اقترفها؟ يقول تعالى: ﴿**قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ**

(١) سورة المائدة، الآية ٢٧.
(٢) وسائل الشيعة، ج١٠، ص ٣١٤.
(٣) وسائل الشيعة، ج١٠، ص ٣١٣.
(٤) وسائل الشيعة، ج١٠، ص ٣١٤.

اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾[١]، ويقول الرَّسول ﷺ: «التَّائب حبيب اللَّه»[٢]، خصوصًا من الإنسان الشَّابِّ، فالتَّوبة حسنة ومن الشَّابِّ أحسن، فهي منزلة لا يحظى بها أحد. وفي دعاء الإمام زين العابدين عليه السلام في الصَّحيفة السَّجاديَّة: «فما عذر من أغفل دخول ذلك الباب يا سيدي بعد فتحه»[٣].

إذًا الإصرار على المعاصي ليس له مبرِّر؛ لأنَّ ذلك يمنع قبول التَّوبة، يقول تعالى ﴿**وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْآنَ وَلَا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا**﴾[٤]، فالآية تشير إلى صنفين من النَّاس لا تُقبل توبتهم:

١- التَّوبة مع التَّسويف إلى عند الموت.

٢- أن يموت الإنسان كافرًا، فإذا تاب قبل الموت فمقبولة، والسُّؤال: لو كانت عند الموت فهل يقبل منه؟ الظَّاهر هو العدم، فهو كمصير فرعون حينما أشرف على الغرق. أمَّا مع الجهالة وعدم التَّسويف فالتَّوبة مقبولة، ويتَّضح معنى الجهالة بأنَّها الغفلة، يقول تعالى: ﴿**إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ فَأُولَئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا**﴾[٥]، وقال تعالى: ﴿**فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ**﴾[٦]

(١) سورة الزُّمر، الآية ٥٣.
(٢) شرح أصول الكافي، ملاَّ صدرا، ج١، ص٥٢٣.
(٣) بحار الأنوار (ط - بيروت)، ج٩٥، ص ١٧٣.
(٤) سورة النساء، الآية ١٨.
(٥) سورة النِّساء، الآية ١٧.
(٦) سورة البقرة، الآية ١٨٦.

فاللَّه قريب من عباده لكنَّ الإنسان هو البعيد بسبب ذنوبه، وهل يحتاج ربُّنا إلى أعمالنا؟ كلَّا، فنحن أحوج إليها من أجل سعادتنا وتحقيق رضا اللَّه وهو السَّبب في دخول الجنَّة، قال تعالى: ﴿**مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا**﴾[١].

٤- قيمة الصدقات والعطاء:

يقول الرَّسول ﷺ: «من فطر منكم صائمًا مؤمنًا في هذا الشَّهر كان له بذلك عند اللَّه عِتْق نسمة ومغفرة لما مضى من ذنوبه، قيل: يا رسول اللَّه، فليس كلُّنا يقدر على ذلك، فقال ﷺ: اتَّقوا النَّار ولو بشقِّ تمرة، اتَّقوا النَّار ولو بشربة من ماء»[٢].

٥- فضل قراءة القرآن:

«ومن تلا فيه آيةً من القرآن كان له مثل أجر من ختم القرآن في غيره من الشُّهور»[٣].

٦- قبول الدعاء وفضله:

فالدُّعاء سلاح المؤمن، ولولا الدُّعاء لما حظي هذا الإنسان بالعناية والرَّأفة، يقول البارئ: ﴿**قُلْ مَا يَعْبَأُ بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ**﴾[٤]، أما في شهر رمضان فإنَّ للدُّعاء قيمةً فائقةً حيث ينظر اللَّه لعبادة بالرَّحمة والقبول، يقول

(١) سورة النِّساء، الآية ١٤٧.
(٢) وسائل الشيعة، ج١٠، ص ٣١٤.
(٣) وسائل الشيعة، ج١٠، ص ٣١٤.
(٤) سورة الفرقان، الآية ٧٧.

تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾[١]، يقول الرَّسول ﷺ: «... وارفعوا إليه أيديكم بالدُّعاء في أوقات صلاتكم فإنَّها أفضل السَّاعات، ينظر اللَّه عزَّ وجلَّ فيها بالرَّحمة إلى عباده، يجيبهم إذا ناجوه، ويلبِّيهم إذا دعوه، ويعطيهم إذا سألوه، ويستجيب لهم إذا دعوه...»[٢].

ومن الملاحظ أنَّ كثيرًا من الصَّالحين يكثرون من الصَّلوات ولكن لا يعطون أهمِّيَّة للدُّعاء، وبالخصوص تعقيبات الصَّلوات المفروضة، وهذه غفلة، فالدُّعاء مخُّ العبادة أي لبُّها، فإذا صلَّى العبد فإنَّ الملائكة تنظر إلى حاجته، فإذا لم يدعُ فلا ينظر إليه.

٧- قيمة الأخلاق الحسنة:

يقول الرَّسول ﷺ: «من حسن منكم في هذا الشَّهر خلقه كان له جوازًا على الصِّراط، يوم تزلُّ فيه الأقدام. ومن كفَّ فيه شرَّه كفَّ اللَّه عنه غضبه يوم يلقاه»[٣].

فما أحوجنا إلى الأخلاق في حياتنا ومن أجل ديننا، أليست الأخلاق هي الرَّصيد المطلوب للنَّجاة وعبور الصِّراط بيسر وعافية، فكيف يكون المصير بدونها، وهل نتحمَّل عواقب ذلك في الآخرة، مهما بلغنا من الطَّاعات وأكثرنا من الأعمال؟

---

(١) سورة غافر، الآية ٦٠.
(٢) وسائل الشيعة، ج١٠، ص ٣١٣ - ٣١٤.
(٣) وسائل الشيعة، ج١٠، ص ٣١٤.

٨- ليلة القدر:

وهي ليلة لا تُقدَّر بثمن مهما بلغ، ولا يمكن معرفة أسرارها، فقد يملك الإنسان الشَّيء الكثير من المال لكن هل يستطيع أن يضمن صحَّته وعافيته؟ وكذلك هل يضمن استقامته في الحياة؟ كلَّا، لكن يمكن للإنسان إذا وُفِّق للعبادة واستغلال هذه اللَّيلة المباركة أن يحرز العمر كلَّه مهما طال، فهي خير من ألف شهر، وهذا على سبيل الكثرة لا للحصر. من هنا يؤكِّد القرآن على شأن وعظمة هذه اللَّيلة، ومن عظمتها أنَّها جاءت في سياق نزول القرآن العظيم لتزداد شرفًا ورفعةً، يقول تعالى: ﴿**إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ * لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ * تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ * سَلَامٌ هِيَ حَتَّى مَطْلَعِ الْفَجْرِ**﴾، والدِّراية هي العلم المانع من النَّقيض.

ومن أسرارها الَّتي كُشفت لنا هي -ما تقدَّم- خير من ألف شهر، وتنزُّل الملائكة، والرُّوح فيها، وهي سلام إلى مطلع الفجر، ممَّا يدلُّ على آفاقها الرَّحبة.

وسُمِّيت ليلة القدر لتقدير الأعمال والأرزاق، فكيف لنا أن نُقدِّر هذه اللَّيلة من وجهتنا؟ وينصُّ القرآن على أنَّها مباركة، قال تعالى: ﴿**إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنْذِرِينَ**﴾[1]، فهذا الوصف يعطي بُعدًا آخر لهذه اللَّيلة، وربما البركة في تعظيم الثَّواب، وصدود الشَّيطان مُصفَّدًا بالأغلال، فما عذر من تجاهل وتغافل عن كلِّ ذلك. وهذا ما يفسِّر في ذيل الآية من الإنذار.

(١) سورة الدخان، الآية ٣.

ومن عظمتها أيضًا أنَّها مخفيَّة في اللَّيالي العشر الأواخر من الشَّهر، لشحن النُّفوس بالهمَّة والاستغلال الأمثل لها من العبادات والطَّاعات، والحرص الشَّديد على عدم تفويتها.

والرُّوح (ملك خاصّ وهو غير جبرائيل عليه السلام). أمَّا عن مهمَّة هذه الملائكة والرُّوح فيجيب القرآن بأنَّها نزول الأوامر ﴿**مِنْ كُلِّ أَمْرٍ**﴾، يقول البارئ في موقع آخر: ﴿**فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ**﴾[1]. أمَّا ما هو هذا الأمر وكيف يكون فاللَّه العالم.

وهي كذلك سلام (والسَّلام هو الأمن والاطمئنان)، وهذا السَّلام مستمرّ إلى الفجر. ومن أجل ذلك ينبغي للإنسان أن يتفرَّغ لإحياء هذه اللَّيلة، ولا ينسى حظَّه، لأنَّها لا تعوَّض، ولا يوجد بديل مثلها.

إذًا نحن أمام ضيافة ومائدة إلهيَّة مفتوحة، تتجلَّى فيها هذه المظاهر والمزايا وغيرها من الأسرار والخفايا.

والسُّؤال: كيف يمكن أن نتعاطى معها ونُسخِّرها في زيادة رصيدنا من الأعمال والثَّواب؟ وبعبارة أخرى: كيف نُحسن حقَّ الضِّيافة الَّتي لم يدَّخر البارئ عزَّ وجلَّ شيئًا إلَّا وقد قدَّمه وأتاحه لنا، لنخرج بأفضل الجوائز والعوائد الإلهيَّة؟ والجواب:

١ - الاستعداد والتَّهيئة لاستقبال أمواج الهداية، بأن يُغرِّغ الإنسان نفسه من الشَّواغل الحياتيَّة والدُّنيويَّة، ويجعل همَّه الحرص والتَّفكير في كيفيَّة

(١) سورة الدخان، الآية ٤.

استغلال الشَّهر الكريم من كلِّ النَّواحي، وأن يكون عنده قابليَّة وحيويَّة للتَّفاعل مع التَّعاليم الَّتي ترتبط بالشَّهر، وهي إرادة الإصلاح والتَّغيير إلى الأفضل، والخروج من الشَّهر بنتائج متميِّزة وملموسة على كلِّ الأصعدة النَّفسيَّة والفكريَّة والاجتماعيَّة والأخلاقيَّة، فإنَّ الرحمة تنزل على العباد حسب الاستعدادات والقابليَّات، فهي كالمطر ينزل من السَّماء فيصبُّ في الوديان والأنهر حسب الضِّيق والوسع، قال تعالى: ﴿**أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا**﴾[1]، والمقصود من القدر هو الفهم والمعرفة والتَّقوى، كما قال الإمام علي عليه السلام لكميل بن زياد النَّخعي رضوان اللَّه عليه: «القلوب أوعية فخيرها أوعاها، فاحفظ عني ما أقول لك، الناس ثلاثة: فعالم ربَّانيّ، ومتعلِّم على سبيل نجاة، وهمج رعاع»[2]، فاحذر أن تكون من الهمج.

٢- التسلح بالتقوى: فهي الزَّاد الحقيقيُّ للإنسان، وهي أساس السَّعادة والطَّريق إلى الكرامة، قال تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ**﴾[3]، ﴿**وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى وَاتَّقُونِ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ**﴾[4]، وهو ما يجب التَّأكيد والتَّركيز عليه، وحتَّى لا ينصبَّ الاهتمام بالمظاهر القشريَّة، أو نُحييها بدافع وتأثير الأجواء. وهذا الأمر يتطلَّب من الإنسان أمور منها:

١- الإخلاص للَّه: قال تعالى: ﴿**وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ**

(١) سورة الرعد، الآية ١٧.
(٢) نهج البلاغة، ص ٤٩٦ - ٤٩٧.
(٣) سورة البقرة، الآية ١٨٣.
(٤) سورة البقرة، الآية ١٩٧.

قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾[١].

٢- طهارة القلب بتزكية النَّفس الأمَّارة بالسُّوء، فهي مركز التَّأثير على القلب، فإذا صلحت صلح القلب، وإذا ساءت وتلوَّثت تلوَّث القلب. القلب يضيء ويخفت حسب ما يجنيه الإنسان، ويحيي الإنسان قلبه بذكر اللَّه ﴿**أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ**﴾[٢]، وكلَّما تخلَّى العبد عن ذكر اللَّه وارتكب المعاصي والذُّنوب قسا قلبه، قال تعالى: ﴿**فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ**﴾[٣] فهي كالحجارة أو أشدّ.

من هنا نجد الإمام السَّجَّاد عليه السلام يتعوَّذ من هذه المرحلة «إِلَهِي إِلَيْكَ أَشْكُو قَلْباً قَاسِياً، مَعَ الْوَسْوَاسِ مُتَقَلِّباً، وَبِالرَّيْنِ وَالطَّبْعِ مُتَلَبِّساً، وَعَيْناً عَنِ الْبُكَاءِ مِنْ خَوْفِكَ جَامِدَةً، وَإِلَى مَا يَسُرُّهَا طَامِحَةً. إِلَهِي لَا حَوْلَ لِي وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِقُدْرَتِكَ»[٤]، بحيث إذا وصل إليها الإنسان قد يصعب عليه العودة والتَّوبة، وقد لا يُوفَّق، فمن يرتكب الجرائم الكبرى كالقتل وإرهاب النَّاس والاستيلاء على ممتلكاتهم وارتكاب الفواحش مثل الزِّنا واللِّواط من الأفعال الشَّنيعة، فالإنسان يحذر من الظُّلم، فالقسوة لا تأتي دفعةً واحدةً، وإنَّما هي سلسلة وخطوات وعادات سيِّئة تتأصَّل في نفس الإنسان، ثمَّ لا يتداركها بالتَّوبة وطلب المغفرة، فالنَّفس هي العدوّ الأوَّل للإنسان ثمَّ يأتي بعد ذلك الشَّيطان الَّذي يوسوس ويزيِّن للإنسان عمله وحماقته، ومع الشَّيطان يأتي شياطين

(١) سورة الزمر، الآية ٦٦.
(٢) سورة الرعد، الآية ٢٨.
(٣) سورة الحديد، الآية ١٦.
(٤) الصحيفة السجادية.

الإنس والجنِّ، ولذا حذَّر ربُّنا من كلِّ خطوة نقدم عليها في حياتنا ونتدبَّر عواقبها، والمؤمن لا بدَّ أن يكون حذرًا، قال تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ وَمَنْ يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ**﴾[1]، فالآية تشير إلى مكايد الشَّيطان حيث يأمر الإنسان بالمنكر وارتكاب المعاصي في الخطوة الأولى، ثمَّ تتبعها خطوات. ولذلك يجب على الإنسان أن يتوقَّى الحذر ثمَّ يطلب من اللَّه العون والتَّوفيق؛ لأنَّ الإنسان ضعيف مهما بلغ من تقوى، فلا يغترّ أو يأخذه العجب في العبادة، لأنَّه مدخل للشَّيطان أيضًا، فلا نترك له ثغرة، والدُّعاء وطلب التَّوفيق هو العصمة من الزَّلل، فالهداية من اللَّه سبحانه، والعمل والالتزام والاجتهاد من العبد.

فليس من الصَّحيح أيضًا أن يبرِّر الإنسان أخطاءه بسبب الشَّيطان كما هو حال الكثير ممَّن يتعلَّل ويقدِّم التَّبريرات؛ لأنَّ الأساس -كما أشرنا- هو النَّفس البشريَّة، ومهمَّة ودور الشَّيطان هو التَّزيين والوسوسة، قال تعالى: ﴿**إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ**﴾[2] فقدرة الشَّيطان تكون على من وفَّر له الإمكانيَّة، وفي آية أخرى قال تعالى: ﴿**إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ**﴾[3].

إذًا السَّبب هو نفس الإنسان، وإن محاولة تبرير الانحرافات الَّتي يقوم

(١) سورة النور، الآية ٢١.
(٢) سورة النحل، الآية ١٠٠.
(٣) سورة الحجر، الآية ٤٢.

بها النَّاس في الغالب هي المدخل أيضًا للشَّيطان، نعوذ باللَّه منه. أمَّا حينما يغرق الإنسان في أوحال الرَّذيلة والمعصية ثمَّ يهيِّئ الأرضيَّة لدور الشَّيطان ليستولي عليه ليصبح ميدانًا ومرتعًا يتحكَّم فيه ويلبسه من ثوبه ليقوم بعد ذلك بكلِّ ما يُملى عليه، من ارتكاب كلِّ المعاصي الصَّغيرة والكبيرة، وهو فاقد الإرادة والسَّيطرة، وتفكيره مشتَّت ليس له قرار. ثمَّ المرحلة الأخرى هي القساوة، فتنعدم فيها كلُّ الأحاسيس والمشاعر الطَّيِّبة، ليصبح معول هدم لكلِّ مبدأ وصلاح وخير، فيفقد الإنسان مبرِّر وجوده كإنسان في الحياة، فهو لا يستحقُّها.

وهنا نشير إلى دعاء الإمام زين العابدين عليه السلام في الصَّحيفة السَّجاديَّة (دعاء الشَّاكين) «إِلَهِي إِلَيْكَ أَشْكُو نَفْسًا بِالسُّوءِ أَمَّارَةً، وَإِلَى الْخَطِيئَةِ مُبَادِرَةً، وَبِمَعَاصِيكَ مُولَعَةً، وَبِسَخَطِكَ مُتَعَرِّضَةً، تَسْلُكُ بِي مَسَالِكَ الْمَهَالِك...»، فنجد أنَّ الإمام عليه السلام بدأ بالنَّفس الأمَّارة بالسُّوء كسبب أساس للانحراف، وذكر تلك الصِّفات والأعراض لطبيعة النَّفس البشريَّة والوقوف عند ميولاتها كي نتَّخذ الحذر الكافي، ونتَّهم أنفسنا قبل الشَّيطان الرَّجيم.

فهذا هو المنطق الصَّحيح في التَّفكير الَّذي يساعد الإنسان أن يزكِّي ويطهِّر نفسه، بأن يكون حاذقًا وناقد لذاته، ثمَّ يسلسل الإمام بذكر العوامل الأخرى من الأعداء الَّذين يساهمون ويؤثِّرون على الإنسان مثل الأعداء وأصدقاء السُّوء وأوكار الدَّعارة والصُّحبة السَّيِّئة.

ويشير الإمام عليه السلام إلى طبيعة دور الشَّيطان، ويقول «إلهي أشكو إليك عدوًّا يضلُّني وشيطانًا يغويني، قد ملأ بالوسواس صدري، وأحاطت هواجسه بقلبي يعاضد ليَ الهوى، ويزيِّن لي حبُّ الدُّنيا»، فمهمَّة الأعداء والشَّيطان

تأتي بعد النَّفس، ودور هذا الأخير هو الإغواء والوسوسة فقط لا غير. ثمَّ يتحدَّث عن المرحلة الثَّالثة وهي قساوة القلب وآثارها على الإنسان وخلوّه من الرَّحمة.

إذًا هناك ثلاث مراحل يمرُّ بها الإنسان عند انحرافه:

١- النفسية.
٢- الشيطان والأعداء.
٣- قساوة القلب.

هكذا هم حال أهل الفسق والفجور والجاحدين والطُّغاة والمتكبِّرين الَّذي يسعون في الأرض فسادًا، ولا يقبلون النُّصح ولا الموعظة، قال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَلَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾[1].

إذًا لا بدَّ من انطلاقة جديدة من خلال المراجعات المختلفة لكلِّ الملفَّات في حياتنا، وعلى كلِّ الصُّعد النَّفسيَّة والأسريَّة والاجتماعيَّة، والحذر من الغفلة، كي نتعاطى مع الشَّهر الكريم بروح إيجابيَّة، فهذا هو الاستعداد السَّليم والأرضيَّة الصَّالحة لغرس ما نريده من الصَّلاح، ثمَّ بعد ذلك نضع البرامج والخطط في كيفيَّة توظيف الطَّاقات والإمكانات للقيام بالدَّور الأمثل لكلِّ المهمَّات والمسؤوليَّات والتَّطلُّعات.

٣- أن يطلب من اللَّه التَّوفيق والسَّداد ويجتهد في الإتيان بالعبادات والطَّاعات وبقيَّة الصَّالحات وأنواع أعمال الخير، يقول الرَّسول ﷺ:

(١) سورة البقرة، الآية ٢٠٦.

«فاسألوا ربكم بنيَّات صادقة وقلوب طاهرة أن يوفِّقكم لصيامه وتلاوة كتابه...»[١]، ولذلك فإنَّ الإنسان الَّذي يستهين بهذا الشَّهر، أو يغفل عنه بتبديد أوقاته وتضييعها باللَّعب واللَّهو والتَّسلية يعتبر شقيًّا ومحرومًا من رحمة اللَّه.

وإن كانت الشَّياطين مغلولةً ومُصفَّدة، فهذا لا يعني أنَّ الإنسان محصَّن من الانحراف، فالنَّفس البشريَّة كما أشرنا هي العدوّ الأوَّل والدَّائم. فالغفلة توجب الحرمان من الرَّحمة والحظِّ، كما أشار الرَّسول ﷺ: «فإنَّ الشَّقيَّ من حرم غفران اللَّه في هذا الشَّهر»[٢]، ولأنَّ «الفرص تمرُّ مرَّ السَّحاب»[٣]، فقد لا تتكرَّر في حياتنا بسبب الموت أو الأمراض أو العلل والآفات. كما ينبغي من العبد الإكثار من التَّمجيد والشُّكر للَّه على توفيقه وهدايته ليكون من زمرة الصَّالحين والمتَّقين ومن تُقبل اللَّه عملهم، وحتَّى لا يغترَّ بذلك، أو يجد حاله أفضل من غيره، فإنَّ ذلك مدخل للشَّيطان والعياذ باللَّه، بل دائمًا يلهج بالذكر، ولسان حاله يقول: ﴿**الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ**﴾[٤].

والحمد للَّه رب العالمين.

(١) وسائل الشيعة، ج١٠، ص ٣١٣.
(٢) وسائل الشيعة، ج١٠، ص: ٣١٣.
(٣) غرر الحكم ودرر الكلم، ص ٦١.
(٤) سورة الأعراف، الآية ٤٣.

رسالة العطاء

قال الإمام علي عليه السلام لجابر بن عبد اللَّه الأنصاري: «يا جابر، قوام الدُّنيا بأربعة: عالم مستعمل علمه، وجاهل لا يستنكف أن يتعلَّم، وجواد لا يبخل بمعروفه، وفقير لا يبيع آخرته بدنياه، فإذا ضيَّع العالم علمه استنكف الجاهل أن يتعلَّم، وإذا بخل الغنيُّ بمعروفه باع الفقير آخرته بدنياه. يا جابر، من كثرت نعم اللَّه عليه كثرت حوائج النَّاس إليه، فمن قام للَّه فيها بما يجب عرَّضها للدَّوام والبقاء، ومن لم يقم فيها بما يجب عرضها للزَّوال والفناء»[1].

يُشير الإمام عليه السلام إلى أهمِّ العوامل والمقوِّمات للنُّهوض بأيِّ مجتمع، وهي تعكس سنن حياتيَّة واجتماعيَّة، فهي لا تخصُّ مجتمعًا دون آخر، فإذا توفَّرت أصبح أيُّ مجتمع قادرًا على البناء والتَّقدُّم، ومن أهمِّها:

أولًا: رسالة العلم:

فبالعلم تُضاء الحياة، وتُكتسب الفضائل، ويُقضى على عوامل الشُّرور والتَّخلُّف، ويرتفع مستوى التَّفكير والوعي عند النَّاس، وترتقي كذلك اهتماماتهم وتطلُّعاتهم، فيكون بينهم التَّنافس والتَّسابق، وهذا بدوره يبرز

(١) نهج البلاغة، ص ٥٤١.

المواهب والطَّاقات لتُسخِّر في مصلحة المجتمع. أمَّا المجتمع الّذي يسوده الجهل ولا يعتني برسالة العلم تكثر فيه الخلافات وتتفشَّى فيه العيوب والمشاكل، ويجنح إلى اللَّعب واللَّهو، ويستسلم إلى الفراغ، ويخضع إلى العادات والتَّقاليد، ويصرُّ عليها مهما كانت، وبذلك يفتقد إلى الحيويَّة في كلِّ الشُّؤون، ومن أهمِّ سماته الجمود والرُّكود.

والإسلام كدين ورسالة يؤكِّد على رسالة العلم في الحياة، فبدونها لا يمكن أن يتقدَّم الإنسان، وعلى أساس ذلك يبرز الإسلام دور العلم والعلماء، وفلسفة الإسلام في ذلك، بأنَّ العلم أساس المعرفة والاكتشاف للحقائق والأسرار الَّتي تحيط بهذا الكون، فليست الحياة صدفة كما يقال، ولو كان كذلك فأيُّ قيمة للعلم وللحقائق والاكتشافات؟ وما أهمِّيَّة السُّنن والقوانين؟ فحتَّى أصحاب هذه النَّظريَّة لا يلتزمون بها ولا يتوقَّعون أن يتقدَّموا في حياتهم لمجرَّد الصُّدفة والأحلام. أمَّا الإسلام فيعتبر العلم هو الطَّريق الوحيد للتَّسلُّح بالمعرفة وتحقيق التَّقدُّم، يقول تعالى: ﴿**شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ**﴾[١]، ويقول: ﴿**الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ**﴾[٢]، فنجد الإسلام يشيد الحياة على هذا الأساس، ويرفع من مكانة العلماء، يقول: ﴿**قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ**﴾[٣]،

(١) سورة آل عمران، الآية ١٨.
(٢) سورة آل عمران، الآية ١٩١.
(٣) سورة الزُّمر، الآية ٩.

ويقول: ﴿يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آَمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾[١]، ويقول الإمام علي عليه السلام: «اكتسبوا العلم يكسبكم الحياة»[٢].

وإذا كان هناك حرص وأهمِّيَّة في هذا التَّعاليم على المعرفة الدِّينيَّة فهي تؤكِّد على صيانة كلِّ العلوم من الانحراف أو تسخيرها في غير مصلحة النَّاس، فهو يتقدَّم على كلِّ العلوم لأنَّه يبني الإنسان أوَّلًا، بالعقيدة الصَّحيحة، والثَّقافة السَّليمة، والعلاقة الإيجابيَّة مع كلِّ شيء، فمن أهمّ العقبات في طريق التَّقدُّم والبناء ووجود الأزمات هي تخلِّي الإنسان عن الدِّين والقيم والمبادئ، فنجد تلك المجتمعات المتقدِّمة صناعيًّا عاجزةً في توجيه هذه الإمكانات والقدرات وتسخيرها بالكامل في مصلحة البشريَّة، بل نجدها تبالغ في الاهتمام وصناعة الأسلحة المدمِّرة ونشرها في العالم، أمَّا الأزمات المختلفة فهي تدلُّ على الانحراف.

ومن أجل ترسيخ قضيَّة الاهتمام بالعلم في المجتمع يؤكِّد الإمام على ركائز:

١ - العالم القدوة: «عالم مستعمل علمه»، بأن يحرص على نشر العلم وإخراج النَّاس من الظُّلمات، ولكي تكون دعوته مؤثِّرةً وبالغةً ينبغي أن يكون قدوةً، من خلال الاهتمام بالعلم والاطِّلاع والالتزام. ومن أجود ما قرأته في هذا المجال هو الحديث عن النَّبيِّ صلى الله عليه وآله: «من طلب العلم للَّه عزَّ وجلَّ لم

(١) سورة المجادلة، الآية ١١.
(٢) غرر الحكم ودرر الكلم، ص ١٥٠.

يصب منه بابًا إلَّا ازداد في نفسه ذلًّا، وللنَّاس تواضعًا، وللَّه خوفًا وفي الدِّين اجتهادًا، فذلك الَّذي ينتفع بالعلم فيتعلَّم، ومن طلب العلم للدُّنيا والمنزلة عند النَّاس والخطوة عند السُّلطان لم يصب منه بابًا إلَّا وازداد في نفسه عظمةً، وعلى النَّاس استطالةً، وباللَّه اغترارًا، وفي الدِّين جفاءً، فذلك الَّذي لا ينتفع بالعلم، فليكفّ وليمسّك عن الحجَّة على نفسه والنَّدامة والخزي يوم القيامة»[١].

ولذا من الخطأ أن ينصبَّ اهتمام العالم بأخذ العلم لسنوات طويلة دون أن يقوم بمسؤوليَّته في نشر العلم، وهداية النَّاس، فـ«زكاة العلم نشره»[٢]، والعالم الَّذي لا يتَّصل بالنَّاس يفقد القدرة في التَّعامل ولا يجيد أسلوب المعاملة لأنَّه تنقصه الخبرة«

ومن الخطأ أيضًا أنَّ البناء على نظريَّة العالم يُؤتى ولا يأتي، فهذا خلاف لنهج الأنبياء والرُّسل وسيرة أهل البيت عليهم السلام وهم القدوة، ومن صفات الرَّسول صلى الله عليه وآله «أنَّه طبيب دوَّار بطبِّه»[٣] يضع الدَّواء حيث الحاجة.

ولذلك نجد بعض العلماء الَّذين يكتفوا بالتَّحصيل يفتقدون أوَّلًا إلى عدم معرفة النَّاس بهم، وكذلك يفتقدون إلى الخبرة في التَّعاطي مع المجتمع.

كما إنَّ الإسلام يحذِّر من استغلال العلم من أجل الدُّنيا أو الشُّهرة أو خدمة السَّلاطين والطُّغاة، أو من منطلق الأهواء والمصالح الذَّاتيَّة.

---

(١) إرشاد القلوب إلى الصواب، ج١، ص ١٨٨.
(٢) غرر الحكم ودرر الكلم، ص ٣٩٠.
(٣) غرر الحكم ودرر الكلم، ص ٤٣٧.

والحديث في هذا المجال من التَّحذير من مغبَّة الانحراف للعلم والعلماء يطول في القرآن والسُّنَّة المطهَّرة لأهل البيت العصمة والطَّهارة، نكتفي ببعضها، «من فسَّر القرآن برأيه فقد هلك»[١]، «كم من قارئ للقرآن والقرآن يلعنه»[٢]، «من فسَّر القرآن برأيه إن أصاب لم يُؤجر، وإن أخطأ فهو أبعد من السماء»[٣]، وقال تعالى: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ لَا خَلَاقَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ**﴾[٤]، من هنا يجب الحذر من علماء السُّوء وعلماء السَّلاطين ودورهم في تخدير الأمَّة، من هذا المنطلق:

١- أوَّلًا تجب المبادرة في نشر العلم والثَّقافة السَّليمة في المجتمع كي ينهض بدوره ومسؤوليَّاته.

٢- التَّركيز على دور العالم القدوة الَّذي يهتم بقضايا النَّاس والأمَّة ولا يكفي بالتَّوجيه العامِّ، بل يكون في الطَّليعة ويقود النَّاس إلى أهدافهم ويسعى لتحقيق تطلُّعاتهم، فمن أسباب الانحرافات في المجتمع هو إمَّا بسبب ضعف الدَّور الدِّينيِّ من قبل العلماء، أو بسبب غياب القدوة، حيث نجد بعض العلماء هم أحرص على الحياة والدُّنيا من غيرهم؛ ولذا نجد أحيانًا العزوف وضعف الالتزام والثَّقافة عند النَّاس حيث يكتفون بالقشور والواجبات، من هنا فإنَّ المسؤوليَّة أمام العلماء كبيرة في مواجهة التَّحدِّيات وفي ظلِّ الانفتاح والعولمة

(١) ميزان الحكمة، ج٣، ص٢٥٣٥.
(٢) مستدرك الوسائل و مستنبط المسائل، ج٤، ص ٢٥٠.
(٣) بحار الأنوار (ط - بيروت)، ج٨٩، ص ١١٠.
(٤) سورة آل عمران، الآية ٧٧.

حيث الغزو الفكريُّ والثَّقافيُّ والأخلاقيُّ وعبر شبكات التَّواصل الاجتماعيِّ، وبسبب ضعف الوقاية والحصانة نجد تلك الانحرافات والأزمات تتفاقم وتزداد، فنجد البعض أصبح يشكُّ في مبادئ الدِّين أو يرتدُّ أو يتقمَّص تلك المفاهيم والعادات دون وعي وإدراك، ومن جانب آخر تتفشَّى الجرائم الأخلاقيَّة والانحرافات السُّلوكيَّة من تعاطي المخدِّرات والممنوعات وغير ذلك من المشاكل الَّتي تحيط بنا، مما يتطلَّب مزيدًا من الاهتمام خصوصًا لدور العلماء الَّذين يحملون رسالة العلم ونشرها من أجل الهداية وتفعيل دور القيم البنَّاءة والتَّصدِّي للقضايا وإصلاحها، قال تعالى: ﴿**وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ**﴾[١]، وفي طليعة هذه الأمَّة هم العلماء وأهل الفكر والثَّقافة، فمن دون نشر الوعي فإنَّ النَّاس يتخبَّطون ويفتنون ويستسلمون للواقع، بسبب التَّقاعس، والنتيجة يشير إليها الإمام عليه السلام: «فإذا ضيَّع العالم علمه استنكف الجاهل أن يتعلَّم»[٢].

٢- كما ينبغي للأمَّة أن تلتفَّ حول العلماء والقدوات ولا تستسلم للانحرافات وتبرِّر الواقع، فهذا أيضًا خطأ كبير. عن أبي حمزة الثُّمالي عن علي بن الحسين عليه السلام قال: «لو يعلم النَّاس ما في طلب العلم لطلبوه ولو بسفك المهج وخوض اللُّجج، إنَّ اللَّه تبارك وتعالى أوحى إلى دانيال: إنَّ أمقتَ عبيدي إليَّ الجاهل المستخفّ بحقِّ أهل العلم، التَّارك للاقتداء بهم، وإنَّ أحبَّ عبيدي إليَّ التَّقيّ الطَّالب للثَّواب الجزيل، اللَّازم للعلماء»[٣].

---

(١) سورة آل عمران، الآية ١٠٤.
(٢) نهج البلاغة، ص ٥٤١.
(٣) الكافي (ط - دار الحديث)، ج١، ص ٨٥.

ثانيًا: رسالة العطاء والإنفاق:

فحتَّى نشر العلم والوعي يتوقَّف على المال، فالمال قوام للحياة، فمن دون البذل وتسخير الإمكانات تتوقف عجلة الحياة وحركة العلم، كما إنَّ انتشار الفقر وتفشِّي الأمراض قد يكون بسبب ضعف الإمكانيَّات والقدرات وعدم تسخيرها في المصالح العامَّة. فضرورة الإنفاق لا تقلُّ أهمِّيَّةً عن رسالة العلم بل هي مصاحبة لها، من أجل تذليل الصُّعوبات ومواجهة التَّحدِّيات.

ولذلك يؤكِّد الإسلام على سياسة العطاء والإنفاق على كلِّ المستويات وشتَّى الجوانب، فالإنفاق ركيزة أساسيَّة في البناء والتَّقدُّم والحضارة، حتَّى اختصر أحد المراجع فلسفة العطاء يقول: «أنفقوا لكي تتقدَّموا»، ولذا نجد الإسلام يؤكد على هذه الأهمِّيَّة البالغة في كلِّ الأبعاد وفلسفتها، على صعيد الفرد والمجتمعات:

١- فعلى صعيد الفرد فإنَّ الإنفاق تزكية لنفسه وتطهير لذاته من آفة البخل والشُّحِّ الَّتي تضرُّ به قبل غيره، قال تعالى: ﴿**الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى**﴾[١]، وقال: ﴿**خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ**﴾[٢]، فهي تجمع بين التَّزكية والطَّهارة، والتَّزكية هي التَّخلُّص من عوامل البخل وتنمية المال، أمَّا الطَّهارة فهي السُّموّ والقرب من اللَّه سبحان واللَّه العالم، وقال: ﴿**وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ**﴾[٣]، وهذه تشمل الفرد والمجتمع، وأن الإنفاق هو طريق الفلَّاح.

(١) سورة الليل، الآية ١٨.
(٢) سورة التوبة، الآية ١٠٣.
(٣) سورة الحشر، الآية ٩.

٢- وعلى صعيد المجتمع: فهو من أسباب الحيويَّة والنَّشاط والقدرة على مواجهة الصِّعاب، فهو تجسيد للُّحمة الإنسانيَّة والوطنيَّة، وترسيخ لمبدأ الرَّحمة والتَّعاون وقيم الخير والسَّلام من التَّواصل والرَّوابط، بينما البخل يعيق كلّ ذلك ويهدِّد وحدة الأمَّة ومشاعرها، ويتسبَّب في تفشِّي كلِّ الجرائم، وهذا يؤدِّي إلى الهلاك والتَّخلُّف والفساد، ولذا حذَّر الإسلام من حالة الفقر، فهو أشدُّ فتكًا وتأثيرًا على الإنسان، حيث يقوده إلى متاهات مثل الكفر أو الجريمة وغير ذلك، ففي الحديث: «ما دخل الفقر بيتًا إلَّا وقال للكفر: خذني معك»، كنتيجة لعدم الاهتمام.

والفقر هو ظاهر من الظَّواهر وليس كلّ الظَّواهر الَّتي يعاني منها أيُّ مجتمع، وإنَّما المطلوب هو القضاء على كلِّ السَّلبيَّات الَّتي يعاني منها كلّ المجتمعات أو أغلبها، مثَّل البطالة وتفشِّي الأمراض والأوبئة، وما تتوقَّف عليه الكثير من المراكز والمؤسَّسات مثل الحوزات العلميَّة والتَّبليغ، قال تعالى: ﴿**وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ**﴾[1]، والإحسان هو أعلى درجة من مجرَّد الإنفاق.

٣- بل يعتبر الإنفاق هو من صميم الإيمان والتَّقوى، كما هو عنوان الزَّكاة مطلقًا، حيث تأتي مصاحبةً للصَّلاة غالبًا في القرآن، أو الصَّدقات في وجوه الخير، ولذلك نجد الخطاب في القرآن موجَّه بالخصوص إلى أهل الإيمان ليعكس التزامهم وصدقهم، قال تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَاعَةٌ وَالْكَافِرُونَ هُمُ**

(١) سورة البقرة، الآية ١٩٥.

الظَّالِمُونَ﴾[١]، فهذا الحرص على الإنفاق يبرز حيوية الإنسان والمجتمع الإيمانيّ، وإن الإمساك يعدُّ كفرًا وظلمًا، لأنَّه يفقد الثِّقة باللَّه واليوم الآخر.

٤- ولذلك يعتبر الإمساك والبخل من أعظم الصِّفات السَّيِّئة في حياة كلِّ إنسان وبالخصوص الإنسان المؤمن، حتَّى جاء في الرِّواية: «البخل جامع لمساوئ العيوب»[٢]، لما له من آثار نفسيَّة واجتماعيَّة وأخلاقيَّة وحضاريَّة، خصوصًا إذا عرفنا أنَّ الحياة ابتلاء للإنسان، فهي لا تدوم على حال، فالفقير يصبح غنيًّا والغنيّ يصبح فقيرًا، والصَّحيح يصبح سقيمًا والمريض معافى، ومن جهة آخر فإنَّ الإنسان لا يضمن وجوده في الحياة أو صحَّته، بسبب الموت وكذلك الأمراض، وغير ذلك من المنغِّصات والآفات.

إذًا ما أحوج الإنسان المؤمن إلى البذل والعطاء والإنفاق من أجل نفسه وأخَّرته، وإسعادها وإسعاد الآخرين والنَّاس ممَّن يحيطون به، فيذكرونه ويدعون له، فلو فكَّر الإنسان في حياته وعمره وما يؤول إليه لسخيَ بما عنده وأحسن العطاء، قال تعالى: ﴿**وَأَنْفِقُوا مِنْ مَا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُنْ مِنَ الصَّالِحِينَ**﴾[٣]، لكن هل ينفع النَّدم والحسرات؟ كلاَّ ﴿**وَلَنْ يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ**﴾[٤]، أي لو رجعوا لما تغيَّر الحال؛ لأنَّ أعلم وخبير.

---

(١) سورة البقرة، الآية ٢٥٤.
(٢) نهج البلاغة، ص ٥٤٣.
(٣) سورة المنافقون، الآية ١٠.
(٤) سورة المنافقون، الآية ١١.

ولذلك يجب أن نعرف بأنَّ الحياة هي ابتلاء، وأننا محدودو الأجل، فينغي أن نُسخِّر النِّعم الَّتي أنعم اللَّه علينا فيما يجب وما يرضي اللَّه، وكلَّ ما يحقِّق الخير والصَّلاح والتَّقدُّم، فيجب أن نتحرَّر من الأهواء والأنانيَّة والأفق الضِّيِّق في التَّفكير، فنغلق علينا الأبواب حتَّى إذا متنا لا أحد يعلم عنَّا، وإذا علموا لم يحزنوا علينا، بل يشعرون بالفكاك والرَّاحة، فهم الوارثون كلَّ ما يملك الإنسان من بعده، أليس ذلك ظلم وحسرة للعبد وهو يفارق الحياة بلا حصيلة تذكر ولا رصيد، أو حسنة وصدقة تخفِّف عنه العذاب؟! قال تعالى: ﴿**وَأَنْفِقُوا مِنْ مَا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُنْ مِنَ الصَّالِحِينَ**﴾[١]، والخطاب للمؤمنين كما هو في سياق الآية الَّتي قبلها. فيجب علينا اليقظة والحذر وألَّا تحيط بنا الغفلة.

٥- ولذلك علينا استثمار الحياة فهي مزرعة للآخرة، ومن كلِّ الوجوه، بالعمل الصَّالح والعطاء، وكذلك التَّنافس على الدَّرجات، ونكون من المحسنين لأنفسنا أوَّلًا، ثمَّ للآخرين حتَّى تكون خاتمتنا خيرًا وصلاحًا وفلاح، لتسود الفرحة يوم النَّدم، والبهجة في حياتنا بحبِّ اللَّه والنَّاس من حولنا، من خلال ما نساهم فيه من أجل الآخرين، وهذا هو مصدِّق الإيمان ومؤشِّر الوعي وحسّ الأخلاق، ففي الحديث عن أبي الحسن عليه السلام يقول: «السَّخيُّ قريب من اللَّه، قريب من الجنَّة، قريب من النَّاس»[٢]، ويقول: «السَّخاء شجرة في الجنَّة، من تعلَّق بغصن من أغصانها دخل الجنَّة»[٣].

---

(١) سورة المنافقون، الآية ١٠.
(٢) الكافي (ط - دار الحديث)، ج٧، ص ٣٠٤ - ٣٠٥.
(٣) الكافي (ط - دار الحديث)، ج٧، ص ٣٠٥.

٦- فهل أحد منَّا يقبل أن يكون بعيدًا عن اللَّه والناس والجنة؟ فعلينا أيضًا أن نُشجِّع النَّاس على العطاء والإنفاق ولا نكتفي بأنفسنا، وأن ندفع النَّاس بهذا الاتِّجاه من خلال الإقناع وليس بالضغط أو الإكراه، قال تعالى: ﴿**خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ**﴾[1].

فلماذا يرحل الإنسان من هذه الحياة ولا يترك بصمة.

قال الشاعر أحمد شوقي:

دقَّات قلب المرء قائلة له: إن الحياة دقائق وثواني
فارفع لنفسك ذكرها قبل موتها فالذكر للإنسان عمر ثاني

ولذلك استخدم القرآن كلَّ السُّبل في إقناع الإنسان وإغرائه وتشجيعه على الإنفاق والعطاء في سبيل نجاته في الآخرة، وكذلك في سبيل الإصلاح والبناء وتحقيق الرَّفاهية، وأن تكون قيمة العطاء ثقافةً سياديَّةً مهمَّةً وضروريَّةً كرسالة العلم، ولا نكتفي بالشِّعارات والمظاهر الدِّينيَّة، بينما نحن نعجز عن الصَّدقة المتواضعة للفقير المحتاج. فنجد القرآن يتنوَّع في الأساليب وفقًا للظُّروف والمناسبات، وهنا نشير إلى بعض الآيات للتَّفكير والتَّأمُّل وليس الحصر:

١- قال تعالى: ﴿**مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِئَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ**﴾[2]، وسبيل اللَّه أي في سبيل الخير والصَّلاح.

(١) سورة التوبة، الآية ١٠٣.
(٢) سورة البقرة، الآية ٢٦١.

٢- قال تعالى: ﴿**مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْسُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ**﴾[١]، وهنا ثلاث جهات، الأولى: ولتقريب الفكرة نتساءل: هل اللَّه محتاج إلى اقتراضنا وهو الغنيُّ عن عبادة، وهم الفقراء؟ إذًا ما ذا نسمِّي هذا الأسلوب وماذا تعني وكيف نفهم من قضيَّة القرض من اللَّه؟ الجهة الثَّانية إشارة إلى أنَّ الحياة كلَّها بيد اللَّه سبحانه، فمسألة الفقر والغنى هي ابتلاء، كما قال تعالى: ﴿**وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ**﴾[٢]، والجهة الأخرى أنَّ مصير كلِّ شيء إلى اللَّه، وهذا يكفينا في التَّفكير والوعي للحياة وما نملكه من مال وغيره.

٣- قال تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ * تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ * يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ * وَأُخْرَى تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ**﴾[٣]، والسُّؤال: لماذا استخدم القرآن في هذه الآية مصطلح الشِّراء، كمعاملة، بينما في الآية السَّابقة القرض؟ والسُّؤال الآخر، لماذا اللَّه يرشد المؤمنين إلى الجهاد ويغريهم بهذا الأسلوب، كأنَّهم لا يعلمون حيث قال: ﴿**هَلْ أَدُلُّكُمْ**﴾؟ وما فحوى هذه التِّجارة؟ ولماذا قدَّم الإنفاق بالأموال قبل الأنفس؟ وما هي قيمة الثَّمن والمثمَّن، في هذه التِّجارة؟ أي ما هو الرِّبح؟ وهل هو ربح في الدُّنيا أم يشمل الآخرة؟

---

(١) سورة البقرة، الآية ٢٤٥.
(٢) سورة الفجر، الآية ١٦.
(٣) سورة الصف، الآية ١٠ -١٣.

٤- قال تعالى: ﴿**إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ**﴾[1]، والسُّؤال: لماذا استخدم صيغة الشِّراء في المعاملة وليست التِّجارة كما في السَّابق؟ ولماذا أيضًا صيغة الماضي في الفعل؟ ولماذا قدَّم النَّفس على المال عكس الآية السَّابقة؟ ولماذا حدَّد هويَّة الفعل المطلوب وهو القتل والقتال؟ ولماذا ذكر الرِّسالات في الوعد؟ وما هو المراد والحكمة من البشارة؟ والأسئلة لا تنتهي فتحتاج إلى التَّأمُّل.

ومن أجل أن يكون العطاء مثمرًا وناجعًا في كلِّ إسهاماته يجب أنَّ يكون خالصًا للَّه وليس للسُّمعة والشُّهرة أو غير ذلك من التَّبرُّعات والإنفاقات الطَّائلة الَّتي تُقدَّم من أجل السِّياسات وكسب الأصوات وتقوية الجبهات والأحزاب، وكما هي في السِّياسيَّات للسَّيطرة والهيمنة والنُّفوذ، فهذه ليس لها وزن ولا قيمة عند اللَّه. ولذلك نجد مثالًا في القرآن وهو مسجد ضرار الَّذي بُني في المدينة وتحت شعار الإسلام والدِّين، ولكنَّه يهدف إلى الإضرار بالشَّعائر والمؤمنين، وسعى للتَّعبئة والخراب بكلِّ الوسائل، فماذا أمر اللَّه رسوله ﷺ منَّ تدابير؟ فقد أمره بالقطيعة التَّامَّة حيث قال: ﴿**لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا**﴾[2]، وهكذا أفعال ومشاريع تقوم هنا وهناك وتحت شعار الدِّين والإسلام، وقضيَّة غسيل الأموال تُعتبر من القضايا المشهورة والواقعيَّة خصوصًا في زماننا وعصرنا، قال تعالى: ﴿**وَالَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ رِئَاءَ النَّاسِ**

(١) سورة التوبة، الآية ١١١.
(٢) سورة التوبة، الآية ١٠٨.

﴿وَلَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَنْ يَكُنِ الشَّيْطَانُ لَهُ قَرِينًا فَسَاءَ قَرِينًا﴾[١] والخطاب للمنافقين ﴿وَمَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ آمَنُوا بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقَهُمُ اللَّهُ وَكَانَ اللَّهُ بِهِمْ عَلِيمًا﴾[٢]، ويأتي الخطاب الآخر للكفَّار ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنْفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ﴾[٣].

فانظر إلى هذه السِّياسات الَّتي جمعت بين الأعداء في الخارج والأعداء في الدَّاخل من المنافقين، كيف ينفقون الأموال الطَّائلة في سبيل الشَّيطان، من أجل تكريس السِّياسات الظَّالمة والاستبداد في أغلب البلاد العربيَّة والإسلاميَّة الَّتي تخدم سياسات الغرب والدُّول الكبرى والاستعمار، وينفقون الأموال الطَّائلة الَّتي تُسرق من أموال الشُّعوب وخيراتها، دعمًا لتلك السِّياسات ومن أجل استمرارهم في الحكم والهيمنة، وهي تحكم باسم وشعار الإسلام، وانظر كيف أنَّ الدُّول العظمى تخسر الأموال الطَّائلة في سبيل الهيمنة وتأمين المصالح في كلِّ بلاد العالم، فمرَّة يستخدمون القوَّة العسكريَّة، ومرَّة بالأموال، وأخرى بغسيل الأدمغة وشراء الهيئات والمراكز العالميَّة وشراء المحاكم كمحكمة العدل الدَّوليَّة، وأخرى عن طريق السِّياسات الماليَّة عن طريق القروض من البنك الدَّوليِّ، تحت شعار الإصلاح والتَّنمية وغير ذلك من الأساليب والإنفاق للمال، ولكنَّ ذلك لا ينفعهم، سواءً في الدُّنيا أو الآخرة.

---

(١) سورة النساء، الآية ٣٨.
(٢) سورة النساء، الآية ٣٩.
(٣) سورة الأنفال، الآية ٣٦.

ففي الدُّنيا سوف ينقلب الحال من خلال وعي الشُّعوب وإرادتها، فالحال لا يدوم، وكذلك خلق الأزمات في العالم يرتدُّ على تلك الأهداف والسِّياسات، ولقد بان المؤشِّر في الحاضر.

أمَّا في الآخرة فسوف تكون عليه حسرات، قال تعالى: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِمْ مِلْءُ الْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوِ افْتَدَى بِهِ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ**﴾[١]، وقال: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لِيَفْتَدُوا بِهِ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَا تُقُبِّلَ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ**﴾[٢].

ولهذا فإنَّ سياسات الإنفاق لا بدَّ أن تكون من منطلقات ومبادئ حقَّة وخالصة من أجل أن تُثمر وتنمو في الحياة والمجتمع، وتساهم في البناء وعلاج المشاكل المختلفة خصوصًا في الأبعاد السِّياسيَّة والاجتماعيَّة الَّتي ترتبط بالمصير العامِّ. ولذلك يؤكِّد القرآن الكريم على هذا البعد فيقول: ﴿**فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى * وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى * فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى**﴾[٣]، فهنا تأكيد على أهمِّيَّة العطاء والإنفاق لكن بشرط التَّقوى، وهي تتضمَّن الإخلاص والنَّزاهة من الدَّوافع والمنطلقات والميولات المنحرفة.

كما إن الإنفاق يجب أن يكون سياسة حكيمة في حياة الفرد والمجتمع، من خلال سياسة الاعتدال والتَّدبير، فلا إفراط ولا تفريط، فكما يحرم الإسراف والتَّبذير فكذلك البخل هو ممقوت، فالمطلوب الاعتدال، قال

(١) سورة آل عمران، الآية ٩١.
(٢) سورة المائدة، الآية ٣٦.
(٣) سورة الليل، الآية ٥ – ٧.

تعالى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا﴾[١]، فكلُّ إنسان حسب طاقته وقدرته، قال تعالى: ﴿لِيُنْفِقْ ذُو سَعَةٍ مِنْ سَعَتِهِ وَمَنْ قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنْفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَا آتَاهَا سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا﴾[٢].

ولذلك وردت روايات كثيرة عن أهمِّيَّة الاقتصاد والوسطيَّة والاعتدال، يقول الإمام علي عليه السلام: «ما عال من اقتصد»[٣]، «لا عقل كالتَّدبير»[٤]، «الاقتصاد نصف المؤونة»[٥]، فهذه السِّياسة تصبُّ في مصلحة الإنسان حيث يستطيع أن ينفق على عياله ويدَّخر الفائض لمواجهة الأزمات وحالات الطَّوارئ«

أمَّا مجالات الإنفاق فهي حسب الحاجات والطُّوارئ، ولكنَّ هناك الأولويَّات والَّتي تُولى الأهمِّيَّة بسدِّ حاجات الإنسان قبل كلِّ شيء، قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَعْلُومٌ * لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ﴾[٦]، وقيل: هذه في المستحبَّات.

ونصل إلى حقيقة في الختام، وهي حقيقة ومفهوم الشُّكر للنِّعم الَّتي سخَّرها اللَّه للإنسان والبشريَّة جمعاء، حيث قال العلماء: إنَّ شكر النِّعم بحسبها، فشكر العلم هو نشره، وشكر الغنى والمال هو إنفاقه، وشكر الجاه

(١) سورة الفرقان، الآية ٦٧.
(٢) سورة الطَّلاق، الآية ٧.
(٣) نهج البلاغة، ص ٤٩٤.
(٤) نهج البلاغة، ص ٤٨٨.
(٥) غرر الحكم ودرر الكلم، ص ٣٨.
(٦) سورة المعارج، الآية ٢٤ - ٢٥.

هو خدمة الآخرين وهكذا، وليس الشُّكر بمجرَّد الذِّكر باللِّسان فقط.

وقد وعد اللَّه الشَّاكرين والمنفقين بالزِّيادة فقال تعالى: ﴿**لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ**﴾[١]، فجعل الكفر في مقابل الشُّكر، فيريد اللَّه من العبد أن يُظهر أثر النِّعمة عليه، قال تعالى: ﴿**وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ**﴾[٢] أي أنفق وأعطِ. وبعض النَّاس يكتب على باب بيته (هذا من فضل ربِّي) لكنَّك لا تجد فقيرًا على باب بيته لبخله لما عُرف به واشتهر. فماذا ينفع الإنسان بعد ذلك مهما تقمَّص من صفات، ففي الرِّواية يقول الإمام علي عليه السلام: «البخل عار»[٣]، وفي أخرى: «البخل جامع لمساوئ العيوب»[٤].

ويشير الإمام في وصيَّته إلى هذه المعادلة الرَّبَّانيَّة في الحياة: «يا جابر، من كثرت نعم اللَّه عليه كثرت حوائج النَّاس إليه، فمن قام للَّه فيها بما يجب عرضها للدَّوام والبقاء، ومن لم يقم فيها بما يجب عرضها للزَّوال والفناء»[٥]«

وأخيرًا يشير الإمام في وصيَّته إلى تلك المخاطر بسبب الإمساك والبخل، والَّتي تنعكس على الواقع، فلا يسلم منها أحد، يقول الإمام عليه السلام: «وإذا بخل الغنيِّ بمعروفه باع الفقير آخرته بدنياه».

ولذلك نجد الإنسان أو الأسرة أو المجتمع الَّذي يتعرَّض إلى الفقر

(١) سورة إبراهيم، الآية ٧.
(٢) سورة الضحى، الآية ١١.
(٣) نهج البلاغة، ص ٤٦٩.
(٤) نهج البلاغة، ص ٥٤٣.
(٥) نهج البلاغة، ص ٥٤١.

والتَّهميش والضُّغوطات يكون مُعرَّضًا للانحراف والتَّأثيرات في الغالب. فيجب الاهتمام وإعطاء الأولويَّة -قبل كلِّ شيء- بالإنفاق على الفقراء والمحتاجين عبر كلِّ الوسائل، والتَّفكير في حلِّ المشكلة جذريًّا، وليس فقط بالمساعدات الآنيَّة.

وشهر رمضان فرصة للإنسان والمجتمع لترسيخ هذه العوامل والرَّسائل في الحياة، من أجل تحقيق الحيويَّة والتَّقدُّم، والنُّهوض بكلِّ المشاريع الَّتي يحتاجها النَّاس، والانفتاح على أبواب الخير والعطاء، يقول الرَّسول صلى الله عليه وآله: «من فطر منكم صائمًا مؤمنًا في هذا الشهر كان له بذلك عند اللَّه عتق نسمة ومغفرة لما مضى من ذنوبه، فقيل: يا رسول اللَّه، وليس كلُّنا يقدر على ذلك، فقال صلى الله عليه وآله: اتَّقوا النَّار ولو بشقِّ تمرة، اتَّقوا النَّار ولو بشربة ماء»[1]. فهل نعجز عن ذلك؟

(١) الأمالي، الصدوق، ص ٩٤.

الإمام علي عليه السلام والعدالة الاجتماعية

أيُّ مجتمع يتعرَّض إلى الظُّلم والتَّهميش ومصادرة حقوقه المشروعة سوف يفتقد إلى الإحساس بالانتماء والحيويَّة والتَّفاعل مع قضايا المجتمع المختلفة، أو الأمَّة وفي أيِّ جانب، وقد يُصاب بالإحباط أو اليأس وفقدان الثِّقة بوجود أفق نحو التَّغيير والإصلاح والبناء...

ولذلك من الضَّروريِّ وجود مبادئ وموازين عادلة وحاكمة تكفل للإنسان وكذلك للمجتمع كامل حقوقه، كي ينخرط ويندفع في عجلة البناء، ويتطلَّع دائمًا نحو الأفضل والمستقبل ويمتلك الرُّوح الإيجابيَّة. والأهمَّ هو شعور الإنسان بأهمِّيَّته ودوره في تحقيق التَّطلُّعات والإنجازات حتَّى يتحوَّل ذلك إلى مفخرة حقيقيَّة يُشيد بها ويُعلن اعتزازه بذلك، وكذلك يكون دائمًا على استعداد للدِّفاع عن بلاده وأمنه عند مواجهة المخاطر.

«إنَّ الحديث عن العدالة الاجتماعيَّة هو حديث عن كلِّ المشاكل دفعةً واحدةً؛ لأنَّ انعدامها أو ضعف تحقُّقها ينتجان شتَّى أنواع الأزمات والظَّواهر الخطيرة. كلُّ مشكلة يمكن تفسيرها بغياب العدالة الاجتماعيَّة، وكلّ تقدُّم وتنمية حقيقيَّة يُفسَّران بالضَّرورة بنجاح ملموس في مسار تحقُّق العدالة الاجتماعيَّة. على مستوى العالم تبدو العدالة معنفة وغائبة، حيث إنَّ الدُّول

القويَّة تحتكر الثَّروة وتسطو على ثروات الدُّول الضَّعيفة، وشعوب الدُّول القويَّة لها الحقُّ في التَّمتُّع بحقوق الإنسان، والفقيرة سواء الَّتي لم تبدأ بعد السَّير في طريق النُّموِّ حيث قطعت بعض الخطوات غارقةً في مشاكل التَّمييز، وما زالت في طور محاولة الاستجابة للبعد الاجتماعيِّ للتَّنمية دون إبعاد الثَّقافة والاقتصاد والسِّياسة. فالمقصود بالعدالة في السِّياق الاجتماعيِّ ليس الإبحار فيما هو طوباويّ، وإنَّما وصف واقع هذه العدالة، إذ إنَّ العدالة الاجتماعيَّة هي التَّوزيع العادل لكلّ من الثَّروة والفرص والامتيازات، وتعرّفها الأمم المتَّحدة أيضًا بأنَّها المساواة في الحقوق»[1] انتهى.

لذا فهي تعتبر من أهمِّ الأسس والمبادئ الَّتي ترسِّخ القاعدة الاجتماعيَّة وتوجِّه المجتمع نحو أهدافه المطلوبة، وتطلُّعاته السَّاميَّة، فمن خلال ذلك يستطيع المجتمع أن يعيش الرُّوح الإيجابيَّة حتَّى مع وجود التَّنوُّع والاختلافات والتَّوجُّهات سواء في الآراء أو الأديان أو المذاهب الفكريَّة والعقديَّة المختلفة، فلأنَّها أمر طبيعيّ، وكذلك لأنَّ الجميع يشعرون بالمساواة أمام القانون والاحتفاظ بالحقوق، ولذلك فإنَّ اختلال هذا التَّوازن في أيِّ جانب ينعكس على طبيعة الحياة ويُهدِّد كيان المجتمع برمَّته، ولذلك أيُّ مجتمع بحاجة إلى قوَّة رادعة في مواجهة هذا الاختلال وعدم السَّماح باختراقه، فهو يشكِّل أزمةً حقيقيَّةً وهو ظلم، من هنا يجب تأكيد قيمة العدالة الاجتماعيَّة

(١) آمال موسى (كاتبة تونسية) وزيرة الأسرة والمرأة والطُّفولة في تونس سابقًا، وأستاذة جامعيَّة مختصَّة في علم الاجتماع، ومتحصِّلة على جوائز مرموقة عدَّة، كما لها إصدارات في البحث الاجتماعيِّ حول سوسيولوجيا الدِّين والتَّديُّن وظاهرة الإسلام السِّياسيِّ. مقال بمناسبة اليوم العالميِّ للعدالة الاجتماعيَّة، بتاريخ ١٨ جمادى الآخرة ١٤٤١هـ، ١٣ فبراير ٢٠٢٠م.

وترسيخها، فهي أساس العلاقات والثِّقة بين النَّاس والمواطنة، خصوصًا بين الحاكم والمحكوم أو الرَّاعي والرَّعيَّة (أي النِّظام السِّياسيِّ).

فمن أهمّ الأزمات الَّتي تسود المجتمعات سواء في التَّاريخ الماضي أو الحاضر هو فقدان هذه العدالة، وتكريس سياسات خاطئة وظالمة لا تُفرِّق بين ما هو حقّ وباطل، خير أو شرّ، مصلحة أو مضرَّة. وكنموذج في القرآن هو بني إسرائيل، حيث تمزَّقوا شرَّ مُمَزَّق بسبب ظلم فرعون والسِّياسات الاستبداديَّة؛ ولذلك أرسل اللَّه رسوله موسى عليه السلام منَّ أجل تحرير هذا الشَّعب ورفع الظُّلم عنه ﴿**فَأْتِيَاهُ فَقُولَا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكَ وَالسَّلَامُ عَلَى مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَى**﴾[1].

الدين ومبدأ العدالة:

حيث تتجلَّى بكلِّ وضوح في كلِّ التَّعاليم الدِّينيَّة عبر كلِّ الرِّسالات السَّماويَّة، وتعتبرها أساسًا لقيمة الحياة الإنسانيَّة، ومنطلقًا لتحقيق أهدافها الحضاريَّة، ونجد هذا التَّأكيد نابعًا من سببين رئيسين هما:

١- حفظ كرامة الإنسان:

حيث ميَّزه اللَّه سبحانه على سائر المخلوقات ومنحه العقل والإدراك، وهذا يقتضي منحه الحرِّيَّة والاختيار لما يراه مناسبًا في كلِّ شيء، يقول تعالى: ﴿**وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا**﴾[2]، حتَّى جاء في المادَّة ١٨ من

(١) سورة طه، الآية ٤٧.
(٢) سورة الإسراء، الآية ٧٠.

الإعلان العالميِّ لحقوق الإنسان الصَّادر سنة ١٩٤٨م عن الجمعيَّة العامَّة للأمم المتَّحدة في ١٠ ديسمبر: «لكلِّ شخص حقّ في حرِّيَّة الفكر والوجدان والدِّين، ويشمل حرِّيَّته في التَّعبير عن دينه ومعتقده، في إظهار الدِّين والمعتقد بالتَّعبُّد وإقامة الشَّعائر والممارسة والتَّعليم بمفرده أو جماعة وأمام الملأ» انتهى.

وهذا التَّكريم هو جعل للإنسان بما هو إنسان على اختلاف وتنوُّع البشر في أفكارهم وألسنتهم وألوانهم ومعتقداتهم،، بل يعتبر القرآن هذا التَّنوُّع هو آية كبرى وتجلِّيات لعظمته وحكمته، ﴿**وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِلْعَالِمِينَ**﴾[١]، ﴿**إِنَّ فِي اخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَّقُونَ**﴾[٢].

وعلى أساس ذلك نجد بعض العلماء يؤسِّسون على هذا الأساس والجعل أصولًا متينةً في حفظ كرامة الإنسان، فلا يجوز التَّعدِّي على حقوقه الخاصَّة والعامَّة، فلا تجوز إهانته وضربه أو التَّعدِّي عليه ومصادرة حقوقه المختلفة المعنويَّة والماديَّة، إلَّا إذا كان هناك مبرِّر ومسوِّغ، فيجوز حينئذٍ تحت هذا العنوان: الحدود والقصاص والتَّعزير مثلًا، أي ضمن القوانين المكفولة والمقرَّرة شرعًا وعقلًا.

يقول تعالى: ﴿**فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ**﴾[٣]، وقال تعالى: ﴿**وَلَكُمْ**

(١) سورة الرُّوم، الآية ٢٢.
(٢) سورة يونس، الآية ٦.
(٣) سورة البقرة، الآية ١٩٣.

فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ﴾[١]، فيجب أن يكون الإنسان آمنًا على نفسه وماله وعرضه وخصوصيَّاته، فلا فرق في ذلك بين أحد. وعلى هذا الأساس والفهم يقوم صرح الحياة البشريَّة، وتتوثَّق أواصرها، وتتقارب مفاهيمها، **﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾**[٢].

أمَّا التَّفريق وتمزيق البشريَّة من منطلقات عنصريَّة وعرقيَّة وطبقيَّة ودينيَّة كمذهبيَّة وطائفيَّة هي مخالفة وتجنٍّ وانحراف ومخالف للحكمة الرَّبَّانيَّة والسُّنن الاجتماعيَّة، كما أنَّ الاعتقاد بالحقِّ لجهة ما ليس مسوِّغًا ومبرِّرًا لاتِّخاذ الإجراءات والتَّدابير في إيجاد القطيعة البشريَّة أو التَّعدِّي عليها، ولذلك نجد القرآن يؤكِّد على مهمَّة الرِّسالة والرَّسول وهو التَّبليغ، وليس فرض القوَّة والرَّأي، أمَّا مرجع الاختلاف بين النَّاس، والفصل بينهم إنَّما يكون بين يدي اللَّه، فهو يحاسبهم ويقضي بينهم **﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ * لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُسَيْطِرٍ * إِلَّا مَنْ تَوَلَّى وَكَفَرَ * فَيُعَذِّبُهُ اللَّهُ الْعَذَابَ الْأَكْبَرَ * إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ * ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ﴾**[٣]، ويقول مؤكِّدًا: **﴿نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدِ﴾**[٤].

نعم، كلُّ ما يؤدِّي إلى الفتن ويكون ضدَّ المصلحة العامَّة فهو انحراف وظلم، مثل قضيَّة الارتداد عن الدِّين في المجتمع الإسلاميِّ، فلكلِّ أمَّة

(١) سورة البقرة، الآية ١٧٩.
(٢) سورة الحجرات، الآية ١٣.
(٣) سورة الغاشية، الآية ٢١ - ٢٦.
(٤) سورة ق، الآية ٤٥.

خصوصيَّات على المستوى العقديِّ والتَّشريعيِّ، فهذا ليس تعدِّيًا على حرِّيَّة الإنسان الشَّخصيَّة، إنَّما درء للفتن والفساد، قال تعالى: ﴿**وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ**﴾[١]. ولذلك يرى بعض العلماء في مسألة الارتداد خصوصًا في عصرنا الحاضر وفي ظلِّ الانفتاح ووسائل التَّأثير هو دفع الشُّبهات قبل الحكم بالارتداد.

٢- العدل أساس الأمن والاستقرار:

الحياتيّ والاجتماعيّ، أمّا الظُّلم فهو أساس المخاوف وفقدان الاستقرار، وقد يتعدَّى هذا الظُّلم ويصيب نواحي الحياة الاجتماعيَّة مثل التَّعدِّي على عقيدة الإنسان وحرِّيَّته، وكذلك التَّضييق على معيشته، فتتحوَّل الحياة إلى جحيم حيث يفقد الإنسان والمجتمع أهمَّ النِّعم الَّتي منَّ بها اللَّه على الإنسان كنعمة الأمان والعيش الكريم، قال تعالى: ﴿**الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ**﴾[٢]، فما قيمة الحياة أو الوطن حينما يفقد الإنسان كرامته، ففي الحديث: «الغنى في الغربة وطن، والفقر في الوطن غربة»[٣]، وهذا ما يُفسِّر هجرة العقول والكثير إلى الخارج لأنَّهم يشعرون بالظُّلم وفقدان الكرامة، بينما يجدونها في بلاد الغرب.

وعلى أساس ذلك جاءت الرِّسالات السَّماويَّة لتؤكِّد على قيمة العدالة الاجتماعيَّة لتكون عصب الحياة وهدف من أهدافها الحضاريَّة، قال تعالى: ﴿**قد لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ**

(١) سورة البقرة، الآية ١٩٣.
(٢) سورة قريش، الآية ٤.
(٣) نهج البلاغة، ص ٤٧٨.

بِالْقِسْطِ وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾(١)، وللتَّأكيد قدَّم ربُّنا العدالة في سلَّم الالتزامات والاهتمامات **﴿قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾**(٢)، وحذَّر من الظُّلم والعبث **﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾**(٣)، والأمثلة الَّتي يسردها القرآن كثيرة، من أجل الاعتبار **﴿وَيَا قَوْمِ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾**(٤)، **﴿وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ﴾**(٥).

أخلاقيات الإسلام:

فنجد هذه الأخلاقيَّات لا تُفرِّق ولا تُميِّز بين أحد، حتَّى مع أهل الاختلاف في الدِّين والعقيدة، يقول الحقُّ: **﴿لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾**(٦)، بل أكثر من ذلك، أي مع العدوِّ، فالعداوة ليست مبرِّرًا للتَّجاوز، قال تعالى: **﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى**

(١) سورة الحديد، الآية ٢٥.
(٢) سورة الأعراف، الآية ٢٩.
(٣) سورة آل عمران، الآية ٢١.
(٤) سورة هود، الآية ٨٥.
(٥) سورة الرَّحمن، الآية ٩.
(٦) سورة الممتحنة، الآية ٨.

﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾[١]. أمَّا قول: «الحرب خدعة» فالحرب لها خصوصيَّاته، والكلام خارج الحرب، فتأمّل. ويقول الرَّسول الأكرم ﷺ: «النَّاس سواسية كأسنان المشط لا فرق بين عربيّ ولا عجميّ إلَّا بالتَّقوى، وكلَّكم من آدم وآدم من تراب».

الإرهاب ولغة العنف والتشدد:

ولذلك فإنَّ الإرهاب وأساليبه -تحت أيِّ شعار أو باسم الدِّين وحمايته أو الغيرة عليه أو من منطلق الدَّعوة إلى الإسلام- أمر مرفوض، وليس له مبرِّر شرعيّ أو منطقيّ، وكذلك هو مخالف إلى قيم الدِّين وأخلاقيَّات الإسلام، فالعدالة الإنسانيَّة هي جوهر الأخلاق، وهي مبدأ ثابت لا يخضع إلى الأمزجة والميولات والتَّأثيرات أو القناعات مهما كانت الدَّوافع والمنطلقات، والإسلام يؤكِّد على المعاملة الحسنة مع الجميع، خصوصًا في أمر الدَّعوة إلى اللَّه سبحانه؛ لأنَّها تمثِّل القيم والمبادئ ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ﴾[٢]، ﴿وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾[٣]، ومن صفات المؤمنين ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا﴾[٤].

ثقافة العدالة الاجتماعية:

ومن أجل ترسيخ هذه القيمة يجب نشر الوعي والثَّقافة بين النَّاس،

(١) سورة المائدة، الآية ٨.
(٢) سورة آل عمران، الآية ١٥٩.
(٣) سورة البقرة، الآية ٨٣.
(٤) سورة الفرقان، الآية ٦٣.

على مستوى الفرد والأسرة والأمَّة، فيبدأ الإنسان مع نفسه وفي أسرته والمحيط لتتحوَّل إلى ثقافة عامَّة وحياتيَّة لا تنفصل عن كلِّ القضايا المهمَّة السِّياسيَّة والاقتصاديَّة حتَّى الرِّياضيَّة والأخلاقيَّة وغيرها، ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَى بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَى أَنْ تَعْدِلُوا وَإِنْ تَلْوُوا أَوْ تُعْرِضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا**﴾[١]، ويقول أيضًا: ﴿**وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ**﴾[٢].

الإمام علي عليه السلام رمز العدالة الاجتماعية:

فهو رجل المبادئ والعدالة، فلقد جسَّد الإمام عليه السلام أروع الصُّور لهذه العدالة وفي كلِّ الأبعاد والجوانب:

١- فلم يكن يومًا يفكِّر في الظُّلم أو يتجرَّأ على أحد أو يصادر حقَّ الآخر، مهما كان هذا الإنسان، بل أيضًا سائر المخلوقات الأخرى، يقول في إحدى خطبه: «واللَّه لأن أبيت على حسِّك السَّعدان مسهَّدًا، أو أجرَّ في الأغلال مصفَّدًا، أحبَّ إليَّ من أنَّ ألقى اللَّه ورسوله يوم القيامة ظالمًا لبعض العباد أو غاصبًا لشيء من الحطام، وكيف أظلم لنفس يُسرع إلى البِلى قُفُولها، ويطول في الثَّرى حلولها، واللَّه لو أعطيت الأقاليم السَّبعة بما تحت أفلاكها على أنَّ أعصي اللَّه في نملة أسلبها جلب شعيرة ما فعلته»[٣].

(١) سورة النِّساء، الآية ١٣٥.
(٢) سورة الأنعام، الآية ١٥٢.
(٣) نهج البلاغة، ص ٣٤٦.

٢- ولم يصادر حقَّ الآخرين مهما كان أمر الخلاف بينهم وبينه، ومثال على ذلك هم الخوارج، حيث خرجوا عليه وكفَّروه، ولكنَّه لم يُقابلهم بالمثل، ولم يبدأهم بالقتال، بل التمس لهم الأعذار وقال: «لا تقاتلوا الخوارج بعدي، فليس من طلب الحقِّ فأخطأه كمن طلب الباطل فأدركه»[١]، فلم يُكفِّرهم بل قال: «إخواننا بغوا علينا»[٢]، فأين نجد مثل هذه الرُّوح والأخلاقيَّات والعدل؟!

٣- ولم تختلف سيرته في كلِّ الأحوال والظُّروف، ففي معركة صفِّين (موضع بقرب الرِّقَّة على شاطئ الفرات من الجانب الغربيِّ، وهي الآن جزء من أراضي العراق بالقرب من الحدود السُّوريَّة)، حيث سبق معاوية إلى المكان، واحتلَّه بعسكره وملك الشَّريعة وحصَّنها بالخيل والرِّجال ليمنع عليًّا ومن معه من الماء، ولمَّا وصل الإمام عليه السلام أرسل إليه أن يُخلِّي بين النَّاس والماء فأبى، فطرد جيش الإمام أهل الشَّام وغلبوهم على الماء وعندها قال معاوية لابن العاص: ما ظنَّك أيمنعنا علي من الماء كما منعناه؟ فقال: إنَّ عليًّا لا يستحلُّ منك ما استحللت منه، وبعث الإمام عليه السلام إلى معاوية من يقول له: نحن لا نكافيك بصنعك، هلمَّ إلى الماء فنحن وأنت فيه سواء، ولقد تمثَّل الإمام بهذه الأبيات:

حكمنا فكان العفو منا سجية ... ولما حكمتم سال بالدم أبطح
وطالما حللتم قتل الأسارى وطالما ... كنا عن الأسارى نعفو ونصفح
فحسبنا هذا التفاوت بيننا ... وكل إناء بالذي فيه ينضح

(١) نهج البلاغة، ص ٩٤.
(٢) وسائل الشيعة، ج١٥، ص ٨٣.

ومن كلام له عليه السلام وقد سمع قومًا من أصحابه يسبُّون أهل الشَّام أيَّام حرب صفَّين: «إنِّي أكره لكم أن تكونوا سبَّابين، ولكنَّكم لو وصفتم أعمالهم وذكرتم حالهم كان أصوب في القول، وأبلغ في العذر، وقلتم مكان سبِّكم إيَّاهم: اللَّهمَّ احقن دماءنا ودماءهم، وأصلح ذات بيننا وبينهم، واهدهم من ضلالتهم حتَّى يعرف الحقَّ من جهله»(١).

٤- الإمام علي عليه السلام الخليفة الحاكم: وتتجلَّى هذه الشَّخصيَّة حينما كان حاكمًا، فكان همُّه هو ترسيخ العدالة الاجتماعيَّة، واعتبرها من أهمِّ مقاصد حكمه وأهداف رسالته، فقد عمل:

١- على استرجاع الحقوق وكلَّ الأموال الَّتي وُزِّعت هنا وهناك، قال: «واللَّه لو وجدته قد تُزُوِّج به النِّساء ومُلِك به الإماء لردَّدته، فإنَّ في العدل سعةً، ومن ضاق عليه العدل فالجور عليه أضيق»(٢).

٢- التَّسوية في العطاء، فلقد عُوتب على التَّسوية فقال: «أتأمرونِّي أن أطلب النَّصر بالجور فيمن وُلِّيت عليه...، فلو كان المال لي لسويت بينهم فكيف وإنَّما المال مال اللَّه»(٣).

٣- التَّأهيل في توزيع المناصب، حيث طلب منه طلحة والزُّبير بعض المناصب كالبصرة فلم يقبل.

٤- التَّأكيد على وحدة المجتمع وإزالة كلِّ العوائق والمسبِّبات

(١) نهج البلاغة، ص ٣٢٣.
(٢) نهج البلاغة، ص ٥٧.
(٣) نهج البلاغة، ص ١٨٣.

والفوارق بين النَّاس، حيث أكَّد على عُمَّاله في الأمصار والبلدان، فمن أهمِّها وصيَّته لمالك الأشتر بعد أن ولَّاه مصر، وهي تعكس النَّموذج الصَّادق للعلاقة بين الحاكم والمحكوم والرَّاعي والرَّعيَّة، كما أنَّها تمثِّل وثيقةً سياسيَّةً تحتوي على كلِّ القوانين والتَّشريعات والبرامج في نظام الحكم والدُّول والمجتمعات، فهي دروس وعبر، نقتطف منها: «أنصف النَّاس من نفسك ومن خاصَّة أهلك ومن لك فيه هوى من رعيَّتك، فإنَّك إلَّا تفعل تظلم، ومن ظلم عباد اللَّه كان اللَّه خصمه دون عباده، ومن خاصمه اللَّه أدحض حجَّته، وكان للَّه حربًا حتَّى ينزع ويتوب، وليس شيء أدعى إلى تغيير نعمة اللَّه وتعجيل نقمته من إقامة على ظلم، فإنَّ اللَّه سميع دعوة المضطهدين وهو للظَّالمين بالمرصاد»[١].

«وأشعر قلبك الرَّحمة للرَّعيَّة والمحبَّة لهم واللُّطف بهم، ولا تكوَّنن عليهم سبعًا ضاريًا تغتنم أكلهم، فإنَّهم صنفان إمَّا أخ لك في الدِّين وإمَّا نظير لك في الخلق، يفرط منهم الزَّلل، وتعرض لهم العلل، ويؤتى على أيديهم في العمد والخطأ، أعطهم من عفوك وصفحك مثل الَّذي تحبُّ أن يعطيك اللَّه من عفوه وصفحه، فإنَّك فوقهم، ووالي الأمر عليك فوقك، واللَّه فوق من ولَّاك»[٢].

«إيَّاك والدِّماء وسفكها بغير حلِّها، فإنَّه ليس شيء أدعى لنقمة ولا أعظم لتبعة ولا أحرى بزوال نعمة وانقطاع مدَّة من سفك الدِّماء يوم القيامة، فلا تقوين سلطانك بسفك دم حرام فإنَّ ذلك ممَّا يضعفه ويوهنه بل يزيله

(١) نهج البلاغة، ص ٤٢٨ – ٤٢٩.
(٢) نهج البلاغة، ص ٤٢٧ – ٤٢٨.

وينقله»[١].

«وإيَّاك والمنِّ على رعيَّتك بإحسانك، أو التَّزيُّد فيما كان من فعلك، أو أن تعدهم فتتبع موعدك بخلفك، فإنَّ المنَّ يبطل الإحسان، والتَّزيُّد يذهب بنور الحقِّ، والخلف يوجب المقت عند اللَّه والنَّاس، قال اللَّه تعالى: ﴿**كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ**﴾[٢]»[٣].

وبهذه السِّيرة الَّتي جسَّدت معالم الدِّين وقيم الإسلام وأخلاقيَّات الدَّعوة، حظي الإمام علي عليه السلام بالمكانة العظيمة في النُّفوس، وأصبح مثالًا في كلِّ شيء، فهو رجل الدِّين والسِّياسة والبطل المغوار، وهو العابد الزَّاهد والفقير إلى اللَّه، حيث تجده في محرابه يبكي بكاء الثَّكلى كما نقل عنه أبو الدَّرداء، فسلام عليه يوم ولد في الكعبة، ويوم استشهد في المحراب، ويوم يُبعث حيًّا.

والحمد للَّه رب العالمين

(١) نهج البلاغة، ص ٤٤٣.
(٢) سورة الصَّفّ، الآية ٣.
(٣) نهج البلاغة، ص ٤٤٤.

الفصل الثاني

آفاق التحول

مدخل

من الواضح أن شهر رمضان يحظى باهتمام المسلمين في كل أنحاء العالم، ويستقطب مشاعرهم؛ لأنه شهر مفعم بالخير والبركة، وتسوده أجواء روحانية والتزامات دينية تنقلهم من أجواء اعتادوا عليها طوال السَّنة إلى أجواء مختلفة تُهيِّئهم إلى الكثير من التحوُّلات المختلفة دينية واجتماعية وأخلاقية، وهي البرامج التي يؤكد عليها الإسلام في هذا الشهر من أجل:

١- تكامل وصياغة شخصية المؤمن.
٢- بناء الأمة على أساس القيم والمبادئ.

فشهر رمضان ليس موسمًا للعبادة فقط، وإنما هو حقل للمعرفة والثقافة من أجل نقلة نوعية واستفادة كاملة واستثمار للوقت وتحقيق الأهداف والغاية، وهذا البعد الثقافي هو محور هذه الدراسة من أجل تحقيق تلك التحولات.

المحطات الروحية في الإسلام:

ما يُميِّز الإسلام كرسالة إلهيَّه هي تلك البرامج التَّربويَّة، فلا يكتفي الإسلام بالتَّعاليم النَّظريَّة أو وضع القوانين القسريَّة كما هو حال الدَّساتير

والقوانين للمجتمعات، ولكنَّ السُّؤال المهمَّ: ماذا يهدف من هذه البرامج التَّربويَّة والمحطَّات الرُّوحيَّة؟

في الأساس يهدف الإسلام من هذه المحطَّات العودة إلى اللَّه، وذلك من خلال:

١- الوقفة مع الذَّات في سبيل الارتقاء بها والسُّموِّ وتحقيق التَّكامل.

٢- صياغة شخصيَّة الإنسان على أساس القيم والمُثُل والمبادئ الحياتيَّة والاجتماعيَّة الَّتي تخدم الأهداف الإنسانيَّة النَّبيلة والحضاريَّة السَّاميَّة، والَّتي تعكس تلك الرُّوح الإيجابيَّة على صعيد الواقع والحياة والسُّلوك.

ولذا فإنَّ مفهوم العودة إلى اللَّه لا بدَّ أن يتجسَّد إلى منهج قويم ورؤية صحيحة للحياة، وليس مجرَّد وقفات ومحطَّات خاوية تتكرَّر في حياتنا بتكرار أيِّ مناسبة في وقت محدود. وشهر رمضان هو من تلك المحطَّات الرُّوحيَّة والتَّربويَّة والشُّموليَّة على صعيد الرُّوح والبدن، فالشَّهر يعكس جوانب مهمَّةً في بناء شخصيَّة الإنسان وتغيير المجتمع إلى الأفضل، وهذا الاهتمام يعكس روح التَّفاعل والاستفادة من الشَّهر، كمحطَّة متميِّزة. وإن الغفلة عن تحقيق هذه الاستفادة يعدُّ شقاءً وضلالًا، يقول الرَّسول الأكرم ﷺ «فإنَّ الشَّقيَّ من حرم غفران اللَّه في هذا الشَّهر العظيم»[1]، ولذلك نقول: إنَّ للتَّقوى -وهي القيمة الأساسيَّة والفلسفة من التَّعاليم والتَّوجيهات والعبادات- جانبان:

(١) وسائل الشيعة، ج١٠، ص ٣١٣.

١- العبادة والطَّاعة للَّه، ففي هذه الشَّهر ينبغي التَّفرُّغ للعبادة وفنون الطَّاعات، فمن دون التَّقيُّد بها لا يبقى للإنسان أي صبغة وهويَّة ومصداقيَّة في الحياة كمسلم ومؤمن.

٢- البعد الاجتماعيُّ والحضاريُّ: وهو الأهمُّ على مستوى التَّأثير والبناء الإنسانيِّ والاجتماعيِّ، فالالتزام بالأحكام دون وعي وإدراك إلى الأهداف والغايات لا يترك أثرًا بالغًا على نفس الإنسان، وإلَّا تحوَّل هذا الالتزام مجرَّد طقوس وعادات وتقاليد ورهبة من المجتمع والمحيط. ومن هذا المنطلق نجد ذلك التَّأكيد من الإسلام على قيمة وجوهر التَّقوى في كلِّ التَّعاليم وفي شهر رمضان بشكل خاصّ.

خصوصية التقوى في شهر رمضان:

فلأنَّ الكثير من المفاهيم الخاطئة الَّتي يحملها الكثير من النَّاس هي الَّتي تحول دون تحقيق الفائدة العظمى من الشَّهر، وهنا نشير إلى بعض منها:

١- فالبعض من المسلمين يعتبر الشَّهر مجرَّد محطَّة لتغيير الرُّوتين في حياته، حيث نجد أغلب البرامج الرَّسميَّة والشَّخصيَّة تتأثَّر بشهر الصِّيام، مثل الوظائف وساعات العمل والنَّوم وحتَّى الأكل والشَّراب، وحتَّى الشُّعور والإحساس بالجوع والعطش لا يتجاوز النَّهار، حتَّى إذا حان وقت الإفطار يثأر الصَّائم لنفسه، وتنتقم نفسه منه نحو تلبية رغباته وشهوته فيملأ معدته بما هبَّ وطاب إلى حدِّ التَّقيُّؤ، أو يعرض له من الأعراض المعويَّة، وربَّما ضاق به التَّنفُّس فيكونُ سببًا إلى وفاته.

٢- والبعض يجد في رمضان استجمام وراحة، وتفريغ طاقاته في

اللَّعب واللَّهو أو الاستغراق في النَّوم لساعات طويلة، وعزوف عن أيِّ نشاط، أو هروب من المسؤوليَّات الحياتيَّة بحجَّة التَّعب وتأثير الصِّيام، بينما القلَّة -وهو الواعون- من يعرفون قيمة الصِّيام ودوره، من خلال استغلال الوقت والتَّفرُّغ للعبادة والقيام بالواجبات والمهمَّات والأولويَّات، والَّتي قد لا يُتاح للإنسان القيام بها في غير رمضان، لانشغال النَّاس بالدُّنيا، وهمُّهم في الأكل والشَّراب.

٣- والبعض يقتصر همُّه في الالتزام بالصَّوم كواجب لا بدَّ منه، أو يكثر من العبادات في الشَّهر الفضيل دون الاهتمام بسائر الأبعاد الأخرى الَّتي أكَّدت عليها التَّعاليم والتَّوجيهات، ومن أهمِّها البعد الاجتماعيُّ والمسؤوليَّات من إصلاح والدَّعوة للخير ومساعدة المحتاجين من فقراء ومساكين، والانخراط في المشاريع الحيويَّة الَّتي يحتاجها النَّاس والمجتمع.

وفي الغالب نجد غفلة وتهميش لهذه الأبعاد، فيأتي شهر رمضان ليعيد الأهمِّيَّة وتكريس هذا البعد الاجتماعيِّ، وأنه لا يقلُّ أهمِّيَّةً عن العبادات والأذكار، بل من مقاصده في هذا البعد هو الاهتمام بالمسؤوليَّات والاهتمامات الاجتماعيَّة، من عطاء وتواصل ومشاركة ومشاريع.

فشهر رمضان الكريم يُنمِّي فينا هذا الشُّعور ويُكرِّس الإيمان الصَّادق، من خلال الوعي وإدراك حقيقة الصِّيام وهي التَّقوى، الَّتي ترسم لنا الأبعاد المتكاملة. فشهر رمضان برامج حيويّ متكامل الأبعاد، فلا يقتصر على الصِّيام فقط كفريضة واجبه، حتَّى جاء في الحديث عن الرَّسول الأكرم ﷺ: «إنَّ أيسر ما فرضه اللَّه على الصَّائم في صيامه هو الإمساك عن الطَّعام والشَّراب»، فحتَّى الشُّعور بالجوع والعطش من خلال الصَّوم لا بدَّ أن ينعكس

على المشاعر تجاه الآخرين، وليس حالةً نفسيَّةً خاليةً من القيم والأخلاق»

ومن فوائد وحكم الصَّوم أيضًا هو القدرة على التَّفكير وتنشيط دماغ الإنسان، ليتسنَّى له القيام بالأدوار المهمَّة على صعيد الحياة والمجتمع ﷺ فالمعدة إذا كانت خاليةً -أي غير ممتلئة- فإنَّ الخلايا في جسم الإنسان تقوم بمهامٍّ أفضل ونشاط أكبر، وكذلك سريان الدَّم والهواء للدِّماغ يكون في حالة طبيعيَّة، وهذا التَّعاليم يوصي بها حتَّى الأطبَّاء لمرضاهم، فالصَّوم يقضي على الدُّهون الزَّائدة وغير الضروريَّة، وكذلك علاج للبدانة الَّتي تعدُّ من أمراض العصر. والصَّوم يحمي الإنسان كذلك من السُّموم الضَّارَّة في الجسم والبكتيريا السَّامَّة، والفوائد لا حصر له، يكفينا في ذلك حديث الرَّسول ﷺ: «صوموا تصحوا»[1].

بينما الأكل والشُّرب فوق الحاجة لا ينتفع منه الإنسان، بل هي ضرر مؤكَّد. ومن مشاكل العصر هو الاهتمام الزَّائد والتَّفكير في أنواع الطَّعام والمشروبات من خلال ما تقدِّمه المطاعم المنتشرة في البلاد وتقوم بالدَّعاية إليه. فالصَّوم من شأنه وضع نظام في هذا المجال، وليس فقط الصَّوم في شهر رمضان ولمدَّة محدودة، فأكثر أمراض العصر هو بسبب الاختلال في نظام الأكل والشُّرب الَّتي تنتج أمراضًا عديدةً من السُّكَّريِّ والدُّهون والبدانة، ناهيك عن أنَّ كثيرًا من الأطعمة والمشروبات لا تخلو من إضافات اصطناعيَّة، وكذلك خطورة المشروبات الغازيَّة، فكثيرًا من أمراض العصر الخطيرة والمزمنة الَّتي يُبتلى بها الكثير من النَّاس يكون علاجها المؤثِّر هو الصِّيام

(١) دعائم الإسلام، ج١، ص ٣٤٢.

بشكل مباشر وغير مباشر، فهو أهم الحلول الأساسيَّة. وأحيانًا بسبب ضعف الإرادة عن الصَّوم يلجأ البعض إلى الحلول السَّريعة لعلاج بعض الأمراض مثل تكميم المعدة، مع ما فيها من آثار سلبيَّة، وقد تفشل؛ ولذلك إن أعظم الأمراض الَّتي تُصيب النَّاس وأكثرها تفشِّيًا هو المعدة، الَّتي لا تخضع إلى موازين الصِّحَّة ولا إلى نظام، فالإخلال بالنِّظام الغذائيِّ هو أيضًا سبب لقرحة المعدة، لذلك جاء في الحديث «المعدة بيت الدَّاء»[١]، ولذلك يُركِّز الأطبَّاء في مواجهة الكثير من الأمراض بالوقاية أوَّلًا وهي الحمية، والصِّيام ثانيًا، بينما الشِّبع والتُّخمة تعمل عكس ذلك تمامًا، بسبب انعدام الأكسجين الَّذي يصل إلى الدِّماغ فيُعطِّل حركته، وربَّما يحصل دراءه أن تنشلّ قدرته تمامًا حيث يتعرَّض الإنسان إلى نوبات دماغيَّة وجلطات مفاجئة بسبب تصلُّب الشَّرايين.

إذًا هناك علاقة تامَّة بين الصَّوم والنِّظام الغذائيِّ من جهة، وكذلك بين الصَّوم وقدرة التَّفكير الَّذي يقود الإنسان إلى تلك الاهتمامات والواجبات والمسؤوليَّات المختلفة، وفي الرِّواية: «إذا امتلأت المعدة نامت الفكرة»[٢]، فشهر الصَّوم هو نظام شامل وإعداد متكامل لحياة الإنسان الصَّائم ليشمل كلّ الجوانب الرُّوحيَّة والصِّحِّيَّة والنَّفسيَّة والذِّهنيَّة، فينبغي أن نكرِّس العادات الحسنة، من أجل صحَّة دائمة، وتفكير سويّ، وقيادة روحيَّة، فهي من ضمن من الفوائد والأبعاد الَّتي يختزلها الشَّهر الكريم.

إذًا هذه المفاهيم الخاطئة وغيرها هي الَّتي تحول دون الاستفادة

(١) علل الشرائع، ج١، ص ٩٩.
(٢) مجموعة ورام، ج١، ص ١٠٢.

الحقيقيَّة من الشَّهر، فجبُّ أن نتسلَّح بالوعي الكافي والثَّقافة السَّليمة لتعاليم الإسلام ومفاهيم الحياة. وإن هذه المحطَّات الرُّوحيَّة والمناسبات العظيمة هي أشبه بالمعسكرات الرِّياضيَّة الَّتي تُعدُّ العدَّة لها من أجل الدُّخول في المسابقات وجوِّ المنافسات، حيث يتطلَّع كلُّ فريق للفوز، وكذلك هي هذه المحطَّات الَّتي تهدف إلى إعداد الإنسان في كلِّ الجوانب، وتبقى المهمَّة الأساسيَّة في قدرة الإنسان على الاستغلال الأمثل لهذه البرامج، وتحويلها إلى برامج وخطط ومشروع متكامل في إبعاد الحياة ومن أجل الاستقامة.

والبعد الآخر هو البعد الحضاريُّ، أي ما يرتبط بهويَّة الأمَّة، فالصَّوم ونزول القرآن شعارات من شأنها تجسيد الشُّعور بمبدأ الأمَّة الإسلاميَّة بل والإنسانيَّة، بحيث لا نغفل عن تلك القضايا المشتركة من المفاهيم والتَّطلُّعات الَّتي ترتبط بهموم أبناء الأمَّة، خصوصًا أنَّ السِّياسات الظَّالمة تحاول أن تُوجد الهوَّة الواسعة والعميقة الَّتي تفصل بين المسلمين، ليكونوا لقمةً سائغةً وفريسةً، لمصالح الأعداء والمنافقين الَّذين لا يريدون خيرًا للأمَّة ولا عافيةً، تنخر فيها الخلافات والصِّراعات، فلا يبقى لها هويَّة ولا خصوصيَّة ولا وحدة في مشاعرها وإيمانها وتطلُّعاتها. إنَّ الشَّهر الكريم يعود بكلِّ أبعاده ومعانيه لإيجاد اللُّحمة والوحدة المشتركة والصِّبغة الَّتي أرادها اللَّه سبحانه، لتكريس العبوديَّة الحقَّة والمبادئ والقيم الخلَّاقة، قال تعالى: ﴿**إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ**﴾[1].

إنَّ الشَّهر الكريم يزخر بهذه المعاني والرُّوح الإسلاميَّة، ويُعيد النِّصاب

(١) سورة الأنبياء، الآية ٩٢.

إلى حيث كان، حيث كانت الأمَّة خير الأمم وأسبقها حضارة ومعالم للإنسانيَّة، فأين نحن اليوم من ذلك المجد والإرث. ومن المطلوب وخصوصًا في شهر رمضان هو الوقوف عند هذه البعد، والرُّجوع للاستنارة بالقرآن والنَّهج القويم، الَّذي فيه نزل. إنَّها تُمثِّل عودةً حقيقيَّةً للوصول إلى تلك الأهداف الإسلاميَّة والحضاريَّة، وليس مجرد علاقة قشريَّة تنصبُّ حول الاهتمامات القشريَّة في كلِّ الجوانب، سواءً للعبادات والطَّاعات، أو تغيير في روتين الحياة، أو المظاهر الَّتي تصاحب هذا الشَّهر من لهو ولعب ومتابعة تلفزيونيَّة للمسلسلات والبرامج التَّرفيهيَّة، والَّذي يساهم فيها الإعلام في كلِّ الدُّول العربيَّة والإسلاميَّة، دون الشُّعور بالواجب والمسؤوليَّة تجاه الأهداف والمضامين للشَّهر الكريم.

أمَّا الأزمة الحادَّة والعميقة في عصرنا الحاضر فهي في مواجهة الغزو الفكريِّ والثَّقافيِّ والأخلاقيِّ، من خلال شبكات التَّواصل في ظلِّ الانفتاح والتَّحوُّلات الاجتماعيَّة، الَّتي تبثُّ سمومها ومخلَّفاتها، ممَّا يُشكِّل عبئًا إضافيًّا في التَّأثير السَّلبيِّ وفي تكريس الانحرافات المختلفة.

ولكنَّ السُّؤال: ما هو المخرج من كلّ ذلك؟ وكيف نواجه هذا التَّحدِّيات؟

والجواب هو بالعودة الحقيقة لمفاهيم وثقافة الإسلام، وليس بالاهتمامات القشريَّة والضَّيِّقة التي لا تتجاوز الحالة الفرديَّة. والشَّهر الكريم هو في حقيقته وأهدافه من أجل صياغة الإنسان المؤمن الصَّادق، وصياغة الأمَّة القادرة فقط على مواجهة التَّحدِّيات، وتوظيف كلِّ الإمكانات والطَّاقات الَّتي تزخر بها بلادنا العربيَّة والإسلاميَّة، ومن خلال العودة للقرآن والتَّدبُّر

فيه، والتَّعاليم الإسلام الأخرى الَّتي أحاطت بهذا الشَّهر وأبعاده المختلفة وليس ببعد واحد.

إنَّ خصوصيَّة هذا الشَّهر أكثر من غيره تكمن بالاهتمام بالقرآن، فهو يمثِّل الانطلاقة للتَّغيير والإصلاح، وليس الاكتفاء بالقراءة القشريَّة العابرة الَّتي لا تتجاوز الشَّهر أو بضع ليالٍ منه، ثمَّ الاهتمام بالأحاديث والخطب الَّتي بلغتنا من الرَّسول صلى الله عليه وآله وأيضًا تعاليم أهل البيت عليهم السلام، وكلَّها تصبُّ في هذا الأهداف الكبيرة والحضاريَّة، وهذا هو المفهوم والغاية من التَّقوى الَّتي أكَّد عليها القرآن في الحكمة من الصِّيام والشَّهر، قال تعالى: ﴿**كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ**﴾[1].

أمَّا حينما نستسلم للواقع وتأثيراته وتفريغ الصَّوم من محتواه وأهدافه، بل ومن الشَّهر، ليصبح مناسبة وعادة متكرِّرة، هنا تكون الانتكاسة والارتكاس في أحوال ومستنقعات السَّلبيَّات، فينعدم الأفق والتَّفكير لعلاج المشكلات ومواجهة الأزمات، ثمَّ بعد ذلك نتساءل: أين دور القرآن والإسلام والدِّين في حياتنا؟

أنَّ الإسلام والقرآن خريطة شاملة وكاملة للنُّهوض والإصلاح والبناء والتَّقدُّم، لكن ليس بالشِّعارات والعبادات الفارغة، أو الالتزام ببعض حدوده وشعائره في دور العبادة أو إنزال العقوبات والقصاص لمن يستحقُّها، كلَّا هو منهاج ورؤية وبصائر، والأهمُّ هو العمل والتَّطبيق؛ ولذلك نرى الخطابات في هذه الشَّأن تتوجَّه للمؤمنين الصَّادقين، فهم أولى من غيرهم في الاستعداد

(١) سورة البقرة، الآية ١٨٣.

والتَّوجُّه والتَّفاعل، وكذلك العمل بهذه القيم والمبادئ في الحياة والمجتمع، فهم الطَّليعة في الأمَّة القدوة، قال تعالى: ﴿**اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ**﴾[١]، وقال: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لاَ تَفْعَلُونَ**﴾[٢]، وقال تعالى: ﴿**الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آَمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ**﴾[٣]. ومن الأهمِّيَّة هو دور العلماء الرّساليين في تكريس الصَّحوة والعمل على نهوض في حياة الأمَّة، والتَّذكير بمكانتها المرموقة ودورها الحضاريِّ ورسالتها الإنسانيَّة والعالميَّة.

إذًا شهر رمضان هو محطَّة متميِّزة بكلِّ أبعادها وتأثيراتها المختلفة النَّفسيَّة والرُّوحيَّة والاجتماعيَّة والأخلاقيَّة، وأساس للدَّعوة للإسلام الصَّحيح، وكذلك للانطلاقة نحو أفق في التَّغيير والإصلاح للمفاهيم والتَّطلُّع نحو المستقبل. ولهذا ركَّزنا في هذه الدِّراسة على هذه الأبعاد والمضامين من خلال رسالة شهر رمضان، وعلى مفهوم التَّقوى بالخصوص الَّذي أفردنا له بابًا مستقلًّا.

(١) سورة الأنفال، الآية ٢٤.
(٢) سورة الصف، الآية ٢.
(٣) سورة الأعراف، الآية ١٥٧.

أولًا: شهر رمضان بين الحقيقة والشعار

من الواضح أنَّ شهر رمضان يحظى باهتمام المسلمين في كلِّ أنحاء العالم ويستقطب مشاعرهم؛ لأنَّه شهر مفعم بالخير والبركة، وتسوده أجواء روحانيَّة والتزامات دينيَّة، تنقلهم من أجواء اعتادوا عليها طوال أيَّام السَّنة إلى أجواء مختلفة تهيِّئهم إلى الكثير من التَّحوُّلات المختلفة سواء كانت دينيَّةً أو اجتماعيَّة وعلميَّة وأخلاقيَّة، وهي البرامج الَّتي يؤكِّد عليها الإسلام في هذا الشَّهر من أجل:

١- صياغة شخصيَّة الإنسان المؤمن المتكامل.
٢- وبناء الأمَّة على أساس الخير والمبادئ والقيم السَّامية.

ومن جانب آخر يُضيف إلى هذه الميزة أهمِّيَّة أخرى، وهو امتداده الزَّمنيِّ، فهو شهر كامل، فهو موسم متكامل قياسًا إلى البرامج الأخرى كالحجِّ مثلًا، ولكن ماذا عسى أن يُحدثه هذا الشَّهر من تغييرات وتحوُّلات؟

في الوقت هو ما نجده يتكرَّر بتكرار السَّنوات ومع ذلك لا نجد ذلك التَّغيير الشَّامل أو الجوهريِّ، خصوصًا على مستوى العام والمجتمع والأمَّة، فمنذ قرون والأمَّة بعيدة عن مسار التَّقدُّم والحضارة، ولم تجنِ ثمار التزامها

وإقبالها واهتمامها خصوصًا في هذا الشَّهر، ويزداد الطِّين بلَّةً كما يقال، ففي هذا المرحلة والحقبة تتعرَّض الأمَّة إلى تحدِّيات مختلفة وخطيرة من أهمِّها مسح هويَّتها الدِّينيَّة والحضاريَّة عبر الغزو الثَّقافيِّ والأخلاقيِّ الَّذي يدعو إلى التَّحرُّر من كلِّ القيود والالتزام والأخلاق، عبر الوسائل المختلفة والمتطوِّرة والمعروفة للجميع كالإنترنت، ومن خلال المواقع الإباحيَّة الَّتي تستقطب الشَّباب بالخصوص، ممَّا يعني صعوبة إيجاد ذلك التَّحوُّل المأمول أمام هذا التَّحدِّي، ناهيك عن وجود تلك السِّياسات الحاكمة على شعوب الأمَّة الَّتي لا يهمُّها سوى السَّيطرة على زمام الأمور وتكريس ثقافة الأمر الواقع وعدم قبول أيِّ تحوُّل وتغيير أساسيّ في مصير هذه السِّياسات، الَّتي تعكس بدورها تسطيح الثَّقافة وتهميش الاهتمامات وتفريغ المحتويات للدِّين والالتزام من خلال إعداد البرامج التَّرفيهيَّة والمسلسلات ذات المحتوى الهابط.

وهنا يأتي السُّؤال عن أهمِّيَّة رمضان والبرامج المقدَّمة، والثَّقافة الإسلاميَّة الَّتي بإمكانها إصلاح ما فسد، وتغيير ثقافة الأمَّة من خلال التَّركيز على تلك العوامل الَّتي تنهض بالأمَّة من جديد، وتساهم في خلق بيئة صالحة للبناء والتَّقدُّم والتَّنمية.

إنَّ الوعي بالهدف السَّامي للدِّين والتَّعاليم والالتزامات الشَّرعيَّة هو الَّذي يدفع الإنسان وكذلك الأمَّة إلى التَّغيير والتَّحوُّل في أيَّة لحظة وليس في مدَّة معيَّنة. والهدف الحقيقيّ من هذه المناسبة الكريمة وكلّ المناسبات والشَّعائر الدِّينيَّة هو توجيه النَّاس وإعدادهم وهدايتهم نحو هذه الأهداف والتَّأكيد على أبعادها ومعطياتها في جميع جوانب الحياة، ولكن تبقى مسألة التَّأثير رهينة بتحقيق هذه الاستفادة، وتطبيق ذلك على الواقع، والاستجابة

إلى أوامر اللَّه سبحانه. فشهر رمضان دعوة للنَّاس إلى التَّغيير والتَّحوُّل وليس مجرَّد الالتزام وتغيير في النِّظام الحياتيِّ اليوميِّ من مهامّ ووظيفة وأدوار ومسؤوليَّات، بل لا بدَّ أن تكون هناك استجابة للتَّعاليم، يقول تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ**﴾[1].

بين الشكل والمضمون:

من هنا فإنَّ تأكيد الإسلام على الشَّعائر الدِّينيَّة لا ينطوي فقط على مظاهرها والالتزام بحدودها وأحكامها، وإنَّما الأهمّ هو التركيز على تحقيق الهدف والمضمون حتَّى تحقّق أهدافها وثمارها، وألَّا تُصبح الشَّعائر الدِّينيَّة مجرَّد طقوس وعادات والتزامات قسريَّة. نعم، إنَّ الالتزام بالأحكام والعبادات والاهتمام بالحدود لهذه الشَّعائر واجب شرعيّ، لكن ليس هو المطلوب بذاته، وإنَّما هو مهمّ ووسيلة للأهداف، فمن دونها تصبح هذه الأهداف شعارات برَّاقةً، وكلمات فارغةً، وتشريعات ناقصةً، وانحراف عن الجادَّة المستقيمة، فالإسلام قيم وشريعة، وجاء في القرآن جملة من التَّشريعات بخصوص الشَّهر ﴿**أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَائِكُمْ هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَخْتَانُونَ أَنْفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنْكُمْ فَالْآَنَ بَاشِرُوهُنَّ وَابْتَغُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ثُمَّ أَتِمُّوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ وَلَا تُبَاشِرُوهُنَّ وَأَنْتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسَاجِدِ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا**

(١) سورة الأنفال، الآية ٢٤.

﴿كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾[١].

من هنا نجد القرآن الكريم يُرغِّب ويؤكِّد على الصِّيام والالتزام بالأحكام في هذا الشيء، وبأسلوب الإغراء والتَّشجيع، من خلال الإشارة إلى المدَّة المقرَّرة في ضمن السَّنة في قوله تعالى: ﴿أَيَّامًا مَعْدُودَاتٍ فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ فَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ وَأَنْ تَصُومُوا خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾[٢]، كما فيه إشارة إلى ذوي الرُّخَص مثل المريض والمسافر، ممَّا يوجب عليهما القضاء دون الكفَّارة، وكذلك الضُّعفاء ممَّن يفتقدون إلى الطَّاقة الكافية في تحمُّل الصِّيام مثل الشَّيخ والشَّيخة والحامل والمُرضع التي تخاف على نفسها وولدها، فهؤلاء يسقط عنهم الصَّوم، ولكن أهنَّاك اختلاف في مسألة القضاء والكفَّارة، على كلِّ حال فليُراجع ذلك في محلِّه، ممَّا يدلُّ على التَّيسير.

لكنَّ هذه المدَّة والمناسبة مهمَّة وكافية في إعداد الإنسان وصياغة الأمَّة وبثِّ روح الوعي والمسؤوليَّة؛ وذلك حينما نتوجَّه إلى اللَّه سبحانه بقلوب صافية وإرادة محقَّة وإقبال على الهداية الرَّبَّانيَّة وتحقيق القيم المنشودة في إصلاح الإنسان وتغيير الواقع والتَّطلُّع نحو المستقبل المشرق، وهذا هو المطلوب في حكمة التَّشريعات وحكمة الصِّيام بشكل خاصّ، يقول تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ

(١) سورة البقرة، الآية ١٨٧.
(٢) سورة البقرة، الآية ١٨٤.

﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾[١].

وإذا كان هناك وعي وإرادة وتصميم في تحقيق هذا الهدف والمضمون والغاية فمن السَّهل أن نجني ثمار الطَّاعة والعبادة والالتزام، وأن نحسن التَّعامل والقيام بواجبنا تجاه كلِّ الشَّعائر والتَّوجيهات والاهتمامات بأبعادها الحياتيَّة المختلفة. أمّا حينما يغيب هذا الوعي والمضمون الحقيقيّ فسوف تنصبُّ الاهتمامات بالشَّكليَّات والمظاهر، لتتحوَّل البرامج والشَّعائر الدِّينيَّة إلى ممارسات فارغة المحتوى ليس لها تأثير في الحاضر والبعيد. وهذه مشكلة أشبه بالإنسان المريض الَّذي يتعاطى الأدوية والعقاقير والمضادَّات ولكن لا يُجنِّب نفسه أساس المرض والوقاية منه إلَّا بمقدار الشُّعور بالألم والخوف من تطوُّره وهلاكه. وعلى سبيل المثال الإدمان على التَّدخين حيث إنَّ المدخِّن يقطع التَّدخين لفترة بسبب المرض وخطورته وتطوُّره وبعد العلاج سرعان ما يجد المدخِّن نفسه أسيرًا إلى العادة، و«العادات قاهرات»[٢].

ولذا نجد التَّأكيد على الوعي والفهم والعلاقة الصَّحيحة بالدِّين، وفي الصِّيام بشكل خاصّ، ففي نهج البلاغة يقول الإمام الرضا عليه السلام: «ليست العبادة كثرة الصِّيام والصَّلاة وإنما العبادة كثرة التَّفكُّر في أمر اللَّه»[٣]، ويقول الرَّسول الأعظم صلى الله عليه وآله: «إنَّ أيسر ما فرضه اللَّه للصَّائم في صيامه هو الامتناع عن الأكل والشُّرب»، ممَّا يعني أنَّ شهر رمضان زاخر بالقيم والتَّعاليم والأبعاد الَّتي هي بحاجة إلى التَّنبُّه لها والأخذ بها، ولا يكفي مجرَّد الصِّيام لأنَّه فريضة واجبة.

---

(١) سورة البقرة، الآية ١٨٣.
(٢) مجموعة ورام، ج٢، ص ١١٣.
(٣) تحف العقول، ص ٤٤٢.

ويقول علي عليه السلام: «كم من صائم ليس له من صيامه إلَّا الجوع والظمأ، وكم من قائم ليس له من قيامه إلَّا السهر والعناء. حبَّذا نوم الأكياس وإفطارهم»[١][٢]، فلا يحقِّقون النَّتيجة ولا يُدركون المغزى ولا يطرأ تغيير على حياتهم. وقد ترمز هذه الكثرة إلى المظاهر العامَّة بحيث تصبح نمطًا اجتماعيًّا وتقليدًا أعمى للشَّعائر، وبذلك يكون التَّأثير السَّلبيُّ أعمق في حياة النَّاس وعبر الأجيال ومن الصَّعب تغييره وتصحيح مفاهيمه، وهكذا يتحوَّل ما نشاهده في مجتمعاتنا الإسلاميَّة من كثير الشَّعائر والبرامج الدِّينيَّة إلى مظاهر سلبيَّة لا تعكس الرُّوح الإيجابيَّة والسُّلوك الصَّحيح في العلاقة مع هذا الشَّهر العظيم وأهدافه الإيمانيَّة والحضاريَّة. فمن مظاهر هذه الحالة السَّلبيَّة هو الإقبال والاهتمام المتزايد بشراء الأطعمة والموائد الرَّمضانيَّة وتكديسها والإعداد لها قبل حلول الشهر بشكل يلفت الانتباه والفضول للآخرين خصوصًا لغير المسلمين، من خلال الطَّوابير والصُّفوف في المحلَّات لتسديد الفواتير والمحاسبة، وهي أشبه بالجيوش والمعسكرات أو حالات الحرب الَّتي يحتاج فيها الإنسان إلى جمع أكبر قدر ممكن لتأمين حاجاته ومؤنته، وكذلك وبسبب مهمَّة الإعلام حيث يجنّد ويقدّم البرامج التِّلفزيونيَّة غير الهادفة والهابطة الَّتي تُكرِّس في حياة الإنسان الخمول والسُّكون والدّعة، وكذلك تقوم بمهمَّة تسطيح الثَّقافة وتعطيل الفكر وتبليد الرَّأي، مثل هذه البرامج الَّتي لها التَّأثير الأقوى على حياة النَّاس والتَّأثير على ميولاتهم

(١) نهج البلاغة، ص ٤٩٥.

(٢) والأكياس هم الواعون الَّذين يُطبِّقون الدِّين بشكل صحيح، و(كمّ) هنا ليس للإخبار، وإنَّما إشارة إلى الكثرة الَّتي عليها النَّاس حيث لا يستفيدون الاستفادة الحقيقة بسبب جهلهم أو انقيادهم إلى أهوائهم وشهواتهم.

واستقطاب اهتمامهم خصوصًا شريحة الشَّباب المسلم، فشبابنا اليوم يتعرَّضون إلى عوامل كثيرة من الضُّغوط الحياتيَّة والتَّحدِّيات السَّلبيَّة والإغراءات المادِّيَّة، كلَّ ذلك يجعلنا نستنكر هذه الحالة السَّلبيَّة، ويُحمِّلنا المسؤوليَّة، ويكرِّس فينا الشُّعور بالمسؤوليَّة تجاه أبنائنا وشبابنا ومجتمعاتنا وحال الأمَّة. أمَّا التَّحدِّي الآخر فهو الغزو الفكر والثَّقافيُّ في ظلِّ الانفتاح والتَّحوُّلات الاجتماعيَّة وعبر شبكات التَّواصل الاجتماعيِّ.

من هنا لا بدَّ من التَّأكيد والحديث عن تلك الأبعاد والمضامين الحيويَّة الَّتي تتَّصل بالصِّيام وبالبرامج المختلفة في شهر رمضان الكريم.

١- الالتزام بفريضة الصِّيام:

وقد تقدَّم أنَّ الصِّيام هو أسهل الأمور الَّتي يلتزم بها الصَّائم، فالأكل والشُّرب هو أحد متروكات الصِّيام، وأن الإتيان بأحد التُّروكات الَّتي ذكرها الفقهاء عمدًا مبطل للصِّيام، فالصِّيام أشبه بالحجِّ، فلا يكفي الإتيان بواجبات الإحرام، وإنَّما يجب الالتزام بتُروكات الإحرام. ولذا ينبغي للصَّائم إذا نوى أن يعقد العزم على عدم الإتيان عمدًا بشيء من تلك التُّروكات ولو كان ذلك مجملًا. ولذا فإنَّ الصَّائم لا يتميَّز عن سائر الناس إلَّا إذا أراد من هذا الصِّيام أن يحقِّق رضا اللَّه سبحان والالتزام ببقيَّة الواجبات الأخرى والآداب والتَّعاليم الأخرى.

فالصِّيام كذلك سنة إلهيَّة في كلِّ الأديان السَّماويَّة، ولم يختص بالتَّشريع الإسلاميِّ. نعم، قد تختلف طبيعة هذا الصِّيام من حيث المدَّة والأحكام، وذلك يرجع إلى الحكمة الإلهيَّة الَّتي تقضي المصلحة وتقتضيها

الظُّروف الَّتي تؤثِّر في مسير الحياة الإنسانيَّة وتحوُّلاتها. يقول تعالى: ﴿**أَيَّامًا مَعْدُودَاتٍ**﴾[١].

والصِّيام ذو أهمِّيَّة خاصَّة في التَّأثير على حياة الإنسان، فهو يزرع في الإنسان الإخلاص للَّه سبحانه حيث لا يطَّلع عليه أحد من الخلق في صيامه، فالصَّائم يجد نفسه تحت رقابة اللَّه فقط وهذا الشُّعور يُنمِّي في الإنسان الشُّعور والإحساس بالإيمان، وهكذا تبدأ العلاقة الإيجابيَّة والوثيقة بين الخالق والمخلوق، وزيادة الثِّقة والتَّوكُّل والإحساس بالقدرة للقيام والالتزام بكلِّ ما جاء به اللَّه وأمر، كما أنَّ الصِّيام يعتبر واحةً خضراء تشدُّ النَّاظرين ليُكثروا في التَّأمُّل والتَّفكير في روعة التَّشريع، فشهر رمضان فرصة ثمينة ونفحة ربَّانيَّة ورحمة إلهيَّة من أجل تحقيق ما يصبو إليه الإنسان من التَّدرُّج في الكمال، وتحقيق غاية الرَّحمن من عباده الَّذين أمرهم أن يعبدوه ويُنيبوا إليه ويتَّقوه ﴿**مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ**﴾[٢]، ولذا ورد في الحديث الشَّريف عن رسول اللَّه ﷺ: «لو يعلم العبد ما في رمضان لودَّ أن يكون رمضان السَّنة»[٣]، فلا ينبغي أن يحرم الإنسان نفسه من هذه النِّعمة والهداية بسبب الغفلة والجهل واتِّباع الأهواء والشَّهوات الَّتي تُكرِّس في الإنسان الضَّعف والانقياد والانحطاط في الرَّذيلة، فيفقد الشُّعور بالإنسانيَّة والكرامة الَّتي حباها اللَّه سبحانه لعباده ﴿**وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ**

(١) ﴿أَيَّامًا مَعْدُودَاتٍ﴾ بدل أو عطف بيان بتقدير في الآية أو مفعول ثانٍ، أي كتبنا عليكم الصِّيام أيَّامًا.

(٢) سورة الرُّوم، الآية ٣١.

(٣) بحار الأنوار (ط - بيروت)، ج٩٣، ص ٣٤٦.

﴿خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾[١]، كما لا ينبغي للإنسان أن يتأثَّر بالمحيط والأجواء السَّلبيَّة الَّتي تُثبِّط عزيمة الإنسان عن أداء الواجبات والشَّعائر، بل يحاول دائمًا أن ينتشل نفسه ويبتعد حتَّى يُربِّي نفسه ويستطيع مقاومة كلِّ الإغراءات ويصمد إمام الشَّهوات ويتسامى عن الرَّغبات الَّتي تُذلُّ الإنسان وتُركسه في أوحال الرَّذائل، ففي الحديث: «ما أقبح بالمؤمن أن تكون له رغبة تذلُّه»[٢].

ومن المهمِّ من أجل تربية الإنسان المسلم والجيل الحاضر على الشُّعور بالمسؤوليَّة تجاه دينه ونفسه ووطنه وأمَّته، أن يتوفَّر له المناخ المناسب والأجواء الإيجابيَّة والإيمانيَّة الَّتي تُحلِّق به في سماء القيم والرِّفعة والمبادئ، وتُشجِّعه على الالتزام بالضَّوابط الشَّرعيَّة والإنسانيَّة والأخلاقيَّة، وذلك من خلال نشر الفضيلة في المجتمع، والوعي وبثّ روح التَّواصي والصَّبر على تطبيق النِّظام الحقِّ الَّذي يكفل للإنسانيَّة والنَّاس الحياة لكريمة والسَّعادة الأبديَّة، وهذه المسؤوليَّة من شأن الجميع، بأن يحرصوا على تحقيق الأرضيَّة الصَّالحة الَّتي تنبت الغرس وتجني الثِّمار، قال تعالى: ﴿وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾[٣]، والحقُّ هو الدِّين، أي النِّظام العام للحياة.

ومن المشاكل الَّتي تفرض نفسها على الواقع الاجتماعيِّ اليوم هي تسيُّب الحكومات وتهاونها أمام انتشار الفساد والرَّذيلة والدَّعارة والمنكرات جهارًا دون ردع وزجر، ممَّا يساعد على الجرأة في ارتكاب المعاصي

(١) سورة الإسراء، الآية ٧٠.
(٢) الكافي (ط - دار الحديث)، ج٣، ص ٧٧٨.
(٣) سورة العصر، الآية ٣.

والذُّنوب وترك الواجبات والاستهانة بالمحرَّمات. حتَّى نجد كثيرًا من البلاد الإسلاميَّة اليوم تحاكي ما يجري في دول الغرب، من التَّحلُّل والإباحيَّة وشرب الخمور، وبعض الدُّول أباحت ذلك رسميًّا وفتحت البارات والملاهي ودور الدَّعارة والابتذال، ممَّا يشجِّع على فرض أجواء فاسدة ومهيَّأة للانحراف.

وتتحمَّل الحكومات اليوم كذلك مسؤوليَّة الإعلام الفاسد الَّذي يعكس القيم الهدَّامة، ويبثُّ ثقافة التَّحلُّل والانحلال من كلِّ القيود والضَّوابط، ويُلهي النَّاس ويشغلهم عن واجباتهم ومسؤوليَّاتهم، فأين الشُّعور بالمسؤوليَّة؟ وما مصير الإنسان والشُّعوب الَّتي يُستهان بمبادئها وتُسلب كرامتها ويُداس على حقوقها؟ وكيف يستطيع الإنسان المسلم أن يحافظ على دينه ويصون شرفه وعرضه ويُحقِّق الاستقامة؟ وماذا يمكن أن نتوقَّع لهذا الجيل الصَّاعد خصوصًا الشَّباب في ظلِّ هذا التَّسيُّب والانحدار في الأخلاق والعادات والأعراف، أن يكون له دوره ومساهمته في البناء والتَّنمية والتَّخطيط للمستقبل؟

إنَّها سياسات فاشلة وعاجزة عن البناء ومواجهة التَّحدِّيات والمخاطر.

ومن التَّأثيرات السَّلبيَّة هو التَّأثُّر بتلك المفاهيم الغربيَّة للحرِّيَّة كغطاء للتَّحلُّل والإباحيَّة، وإفساح المجال للممارسات المنحرفة، كالإغراق في الجنس، وقيام العلاقات العاطفيَّة، وإباحة المنكرات كشرب الخمور ولعب القمار واللَّهو بالاهتمام بتأسيس مسارح الغناء والرَّقص، على أن يتمَّ ذلك بتقديم ذلك بوصفه نموذجًا للحرِّيَّة والمدنيَّة والتَّطوُّر.

أليس كلُّ ذلك هو تعبير عن الانقياد وعبوديَّة الأهواء والشَّهوات،

والشُّعور بالضَّياع، وفقدان السَّعادة الحقيقيَّة والهدف السَّامي للإنسان والحياة؟ وأليس كلّ ذلك يعتبر تمهيدًا للتَّمرُّد على قيم السَّماء، وعدم الخضوع للحقِّ وأوامر اللَّه، وعدم الالتزام بشرعه؟ أليس ذلك هو مصداق للانحدار الأخلاقيِّ والحضاريِّ للأمم ومصيرها الأسود في النِّهاية؟ يقول تعالى: ﴿**فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا**﴾[١]. وهل تعني الحضارة والرُّقيُّ والمدنيَّة التَّبعيَّة للآخرين في كلِّ شيء وبما لا ينفع ولا يقدِّم، والانتقاء والتَّأثُّر بتلك الجوانب السَّلبيَّة والهدَّامة؟ أليس ذلك يعتبر عقدةً للحقارة ودناءة في النُّفوس واضمحلال للوعي والفكر وتعطيل للعقل وقوى الخير والإبداع؟ وهل استيراد هذه البضاعة يساهم في البناء والإصلاح والتَّنمية، أمّ إنَّ أولئك القوم أرادوا بنا خيرًا ليقدِّموا لنا هذه الفنون من أجل مواكبتهم؟

لا بدَّ من العودة إلى اللَّه وتحكيم العقول والشُّعور بالمسؤوليَّة من أجل النُّهوض حتَّى نستطيع تدارك الأمور وتصحيح الأخطاء ومعالج الواقع، وذلك بتبنِّي الإسلام منهاجًا للحياة، وتطبيق شرع اللَّه دستورًا للنَّاس، وتكريس قيم الخير والفضيلة والسَّعادة من العدل والمساواة والحرِّيَّة الفاضلة، يقول تعالى: ﴿**وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَنْ تَمِيلُوا مَيْلًا عَظِيمًا**﴾[٢]، فلا عزَّة وكرامة وبناء وتقدُّم إلاَّ في ظلِّ قيم القرآن والإسلام، قال تعالى: ﴿**اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ**﴾[٣].

---

(١) سورة مريم، الآية ٥٩.
(٢) سورة النِّساء، الآية ٢٧.
(٣) سورة الأنفال، الآية ٢٤.

إنَّ الصِّيام وشهر رمضان دعوة للعودة الحقيقيَّة إلى اللَّه سبحانه من خلال بناء الإنسان بتغلُّبه على أهوائه وشهواته، فالصِّيام هو تربية على المقاومة والصُّمود تجاه النَّوازع الشِّرِّيرة في النَّفس، وتحدٍّ للإغراءات، ومكاشفة للنَّفس عمَّا علق بها من عادات خاطئة وسلوكيَّات منحرفة وأفكار ضالَّة. ومن جهة أخرى إصلاح لواقع المجتمع من الرَّذائل والفساد، وتوجيه لطاقات المجتمع نحو الخير والفضيلة والقيم البنَّاءة؛ ولذلك قالوا: إنَّ الصِّيام وشهر رمضان بما يختزل من فلسفة ومعارف وقيم يعتبر مدرسةً متكاملةً في تربية الإنسان وإصلاح المجتمعات وإعداد الأمَّة نحو مسيرتها الحضاريَّة وتحقيق أهدافها المنشودة.

٢- التفقُّه في أحكام الصوم:

فالشَّرع له بعدان: التزامي وهو التَّكليف، ومحتوى ومضمون وهو الحكمة والغاية، فلا ينفصلان كما لا تنفصل الوسيلة عن الهدف، فكلاهما معنيَّان ومهمَّان وحقَّان ومطلوبان، بحيث لا يجوز التَّهاون بأحدهما على حساب الآخر، ففي الإسلام الغاية لا تبرِّر السِّيلة، فالغاية والهدف واضح، وكذلك الوسيلة محدَّدة، وليس من ذلك تلك المذاهب الفكريَّة والأخلاقيَّة الَّتي لا تراعي ذلك فيقولون: «الغاية تُبرِّر الوسيلة» وهو المذهب المادِّيُّ البرجماتيَّة[1].

ومن أجل ذلك، لا بدَّ من التَّفقُّه في أحكامه الصِّيام، فليس من الصَّحيح أن يقع الصيام بأيِّ شكل وكيفما كان، وإلَّا أصبح أشبه بالإضراب عن الطَّعام

(١) والَّتي تقوم عليها سياسات الغرب والأنظمة المادِّيَّة عامَّةً.

كوسيلة للضَّغط مثل ما يقوم به السُّجناء. كلَّا، فالصَّوم عبادة وتشريع، والتَّساهل بالأحكام هو تساهل في دين اللَّه الَّذي لا يُصاب ولا يُؤخذ بالأهواء والعقول الطَّائشة والنَّاقصة. فالصِّيام كما هو عبادة وفريضة هو التزام بالضَّوابط والأحكام الَّتي تتعلَّق به، ومن الالتزام تتبُّع مواطن الابتلاءات وما تُفضي إليه من أحكام، كما أشرنا سابقًا لذوي الرُّخص.

والقرآن الكريم أكَّد هذه العلاقة وبيَّن الغاية وبيَّن الالتزام بالأحكام، فلا ينفع أحدهما دون الآخر، وإن التَّهاون في جانب يعدُّ خطأً وانحرافًا، سواءً في الالتزام أو في الرُّؤية، يقول تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ * أَيَّامًا مَعْدُودَاتٍ فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ فَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ وَأَنْ تَصُومُوا خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ**﴾[1]، ونجد في هذه الآيات وما بعدها تأكيدًا على التَّفقُّه في أحكام الصِّيام بشكل مفصَّل، وكذلك تبيانًا للفلسفة والعلَّة لبعض الأحكام، نشير إلى بعض منها:

١ - فبدأ القرآن بالتَّأكيد على سنة الصِّيام والهدف والغاية منه، والتَّشجيع والتَّرغيب والإغراء على الصِّيام بقوله ﴿**أَيَّامًا مَعْدُودَاتٍ**﴾.

٢- وأشارت الآية بعدها إلى أحكام ذوي الرُّخص والأعذار حسب ظروفهم، ممَّا يعني أنَّ التَّشريع ليس من أجل الإضرار بالإنسان أو حرمانه لذَّة الحياة وطيِّباتها، وإنَّما من أجل مصلحته واستقامته وتربيته؛ ولذلك جاء تشريع الصِّيام مقرونًا بالقدرة والطَّاقة وليس مع العسر والحرج، يقول تعالى: ﴿**فَمَنْ**

(١) سورة البقرة، الآية ١٨٣ - ١٨٤.

كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ فَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ وَأَنْ تَصُومُوا خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾[1].

٣- من هنا نجد الأحكام تختلف حسب ظرف الإنسان واستطاعته، فبالنِّسبة للمريض والمسافر لا يجوز لهما الصِّيام، وإنَّما يجب عليهم القضاء فيما بعد **﴿فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾**.

٤- أمَّا بالنِّسبة لذوي الأعذار الآخرين والَّذين يشقُّ عليهم الصِّيام، أي يستنزف طاقاتهم **﴿وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ﴾**، فلهم أحكام خاصَّة بهم، حيث رخَّص لهم الشَّارع في الإفطار، لكن هل يجب عليهم القضاء أو الفدية أو معًا؟ هناك اختلاف عند الفقهاء في هذه المسألة، وقد بيَّنوا الآراء في ذلك:

أ- فيرى البعض سقوط القضاء والفدية عن الشَّيخ والشَّيخة، والبعض يرى وجوب القضاء عند تجدُّد القدرة مع الفدية عن كلِّ يوم. أمَّا بالنِّسبة إلى ذي العطاش فيشرب الماء بمقدار الحاجة.

ب- أمَّا بالنِّسبة صاحب المرض الدَّائم المانع من الصِّيام فلا يجب عليه، ولكن عليه الفدية بدل كلِّ يوم، ولا يجب القضاء.

ج- وقالوا في الحامل والمرضع الَّتي تخاف على نفسها بسقوط الصِّيام وليس عليها إلَّا القضاء لأنَّها تعتبر مريضةً، أمَّا إذا خافت على ولدها فيجب القضاء والفدية، وآخر يرى بوجوب الفدية في كلِّ الأحوال.

د- ثمَّ تشير الآية اللَّاحقة إلى حكم أهل الحضر والمقيمين حيث لم

(١) سورة البقرة، الآية ١٨٤.

يذكروا في السَّابق وإن كان ذلك يُفهم بالقرينة بعد ذكر المسافر، يقول تعالى: ﴿**شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ وَمَنْ كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ**﴾[1]، والشَّهادة في الآية تعني الحضور مع الرُّؤية أو إكمال العدَّة.

ح- ونجد في الآية الأخيرة تكرارًا لبيان حكم المريض والمسافر. وقالوا في ذلك: لرفع الالتباس، حيث يُتوهَّم شموليَّة أحكام ذوي الأعذار بدفع الفدية. ولكن قد يكون كلامًا جديدًا لبيان حكمة قضاء الصِّيام على المريض والمسافر بعد وجوب الإفطار عليهم، وقد بيَّنت الآية وجه هذه الحكمة والفلسفة، وهي:

١- إنَّ الرُّخصة في الإفطار كان تيسيرًا ودفعًا للحرج والمشقَّة، يقول تعالى: ﴿**يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ**﴾.

٢- إنَّ الأمر بالقضاء من أجل المساواة مع غيرهم من الصَّائمين في عدد أيَّام الصِّيام ﴿**وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ**﴾[2].

٣- إنَّ الالتزام بالصِّيام يعتبر توفيقًا من اللَّه وهداية لما فيه من الخير للإنسان، فلا يجوز أن يحرم الإنسان نفسه من هذه المصلحة وفوائدها وتأثيرها في الحياة ومن أجل الاستقامة، بل ينبغي تعظيم هذه النِّعمة والهداية

(١) سورة البقرة، الآية ١٨٥.
(٢) ذهب العلماء إلى القول: إنَّ الموضوع وهو الصِّيام قد ارتفع ولكن بقي الحكم.

﴿وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾. ولذلك أيضًا أكَّد على الصِّيام للعاجزين أو من لا يُطيق الصَّوم لجميع ذوي الأعذار فقال: ﴿وَأَنْ تَصُومُوا خَيْرٌ لَكُمْ﴾[١]. وقد ذكر القرآن جملة من الأحكام تتعلَّق بصيام المرأة في حال حيضها في الآيات التَّاليات في سورة البقرة وبشكل مفصَّل، ممَّا يدلُّ على ضرورة التَّفقُّه في أحكام اللَّه للرِّجال والنِّساء على حدٍّ سواء.

خلاصة ما نستفيده من أنَّ التَّفقُّه جزء وجانب من الالتزام الصَّحيح ومن فلسفة التَّشريع وليس المطلوب هو الصَّوم عن الأكل والشُّرب، وربَّما يكون الفارق بين الصَّوم والصِّيام الذي هو أعمُّ ليشمل كلَّ الجوانب من قيام وطاعات والتزامات. ويفهم ذلك من قصَّة المرأة الَّتي تغتاب جارتها فأُخبر الرَّسول ﷺ عنها، فدُعيت إليه، فأمرها أنَّ تتقيَّأ، فقالت: إنِّي صائمة، فأمرها ثلاث مرَّات وهي تؤكِّد بأنَّها صائمة، فأخبرها بأنَّ الصِّيام ليس فقط عن الطَّعام والشَّراب. وبناء على ذلك فصيامها صحيح، لكن غير تامّ في الجملة لأنَّها لم تلتزم بأخلاقيَّات وآداب الصِّيام، فتأمَّل. فالتَّقوى هي الالتزام بكلِّ ذلك، يقول تعالى: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾[٢].

٣- الإخلاص وتقوية الإرادة:

فمن أهمّ ما تُشير إليه جملة من الرِّوايات في موضوع الصِّيام هو تكريس الإخلاص[٣] للَّه سبحانه، ففي الحديث القدسيِّ: «كل عمل ابن آدم

(١) سورة البقرة، الآية ١٨٤.
(٢) سورة المائدة، الآية ٢٧.
(٣) فالصِّيام أمر سلبيّ، فلا يمكن للإنسان أن يُرائي فيه كما يمكن في سائر الأعمال الَّتي تتجلَّى بوضوح للنَّاس.

هو له غير الصِّيام هو لي وأنا أجزي به»[١]، وفي نهج البلاغة: «... والصِّيام ابتلاء لإخلاص الخلق»[٢].

فالإخلاص هو ثمرة المعرفة والإيمان والالتزام، يقول تعالى على لسان نبيِّه إبراهيم: ﴿**قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ * لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ**﴾[٣].

فاتِّباع الهوى هو أساس الانحراف وأساس التَّمرُّد والعصيان على ربِّ الأرباب يقول تعالى: ﴿**فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ**﴾[٤]، ويقول: ﴿**يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ**﴾[٥]، فمن أهمّ عوامل ضعف الإنسان وإذلاله هو بسبب هواه، من هنا جاء في الحديث: «إنَّ اللَّه -عز وجل- فوَّض إلى المؤمن أموره كلها، ولم يفوض إليه أن يذلَّ نفسه»[٦].

فالعلاقة بين الإخلاص والإرادة وثيقة، فمن دون الإخلاص يصبح

(١) الخصال، ج١، ص ٤٥.
(٢) نهج البلاغة، ص ٥١٢.
(٣) سورة الأنعام، الآية ١٦٢ - ١٦٣.
(٤) سورة المائدة، الآية ٤٨.
(٥) سورة ص، الآية ٢٦.
(٦) الكافي (ط - دار الحديث)، ج٩، ص ٥٠٣.

الإنسان خائرًا وضعيف العزيمة، فالإرادة وليدة الإخلاص، وقوَّة الإرادة أيضًا تُنمِّي الإخلاص، ولذلك جاءت التَّعابير مختلفةً في تحديد أهداف الصِّيام على لسان العلماء والباحثين، فالصِّيام هي تلك العبادة الَّتي تصقل الإنسان وتُروِّضه، وتكبح جوامح أهوائه، وتفرغ منه تلك الشِّحنات من الشَّوائب، وبذلك نكتشف سرّ وعظمة التَّشريع من تحريم اللَّه سبحانه تلك الطَّيِّبات من سائر الأطعمة وما هو حلال مثل الجماع، ولمدَّة شهر واحد، فهل من أجل الحرمان أم من أجل الإرادة والاستقامة؟

فليس المطلوب فقط في هذا الشَّهر هو العبادة من الصِّيام والصَّلاة والإتيان بالطَّاعات والمستحبَّات وسائر الأعمال الصَّالحة، ولكنَّه أيضًا القدرة على تجنُّب المعاصي ومقاومة الشَّهوات وعدم الوقوع في المحرَّمات. وهذا يحتاج إلى إرادة صلبة يُحقِّق بها الإنسان العبادة الحقيقيَّة والكاملة. وهنا مجموعة من الرِّوايات تُشير إلى ذلك، ففي الحديث «أعبد النَّاس من اتَّقى المحرَّمات»، و«قليل مع تقوى خير من كثير بدون تقوى».

وسأل أمير المؤمنين علي عليه السلام الرَّسول صلى الله عليه وآله: «ما أفضل الأعمال في هذا الشَّهر؟ قال: يا أبا الحسن، أفضل الأعمال في هذا الشهر الورع عن محارم اللَّه عز وجل»[1].

توجيه ويقظة:

ونجد الغفلة تستحكم عند كثير من المسلمين وخصوصًا الشَّباب في هذه الشَّهر الفضيل، فلا يراعون لهذا الشَّهر حرمةً ولا كرامةً، ولا يستفيدون

(١) الأمالي، الصدوق، ص ٩٥.

من ذخائره وتعاليمه وتوجيهاته، فيرتكبون الحماقات، ويضيِّعون الأوقات، وينغمسون في الشَّهوات، ويرتكزون في العادات.

فمن الانعكاسات السَّلبيَّة والمظاهر المنحرفة هو ما نراه من تحوُّل هذا الشَّهر إلى محطَّة تفريغ كلِّ القيم البنَّاءة والرُّوحيَّات الوضَّاءة الَّتي تُزوِّد الإنسان بالوقود في مواجهة طرق الحياة الوعرة، يصبح هناك انتكاسة، فيكثر الشِّراء والإقبال على الأسواق، ويكثر السَّهر إلى ما بعد الصَّباح، والإقبال المتزايد على مشاهدة الأفلام والمسلسلات وبرامج التِّلفزيون، وبعدها يكثر النَّوم، ويقلُّ العمل، وتُستباح في هذا الشَّهر الكثير من المحرَّمات هروبًا من قيود الصِّيام والالتزام، وتُفتح نوادي الطَّرب والغناء والرَّقص، وتعرض مسابقات اللَّهو واللَّعب، وتكثر اجتماعات النّصب والقمار، وتتركَّز أيضًا تعاليم وفنون الطَّبخ وتقديم الموائد و و... وماذا بعد ذلك؟ وماذا حقَّق الإنسان في هذه المدَّة؟ وماذا ينتظر من النَّتائج والجوائز؟

لا بدَّ من يقظة وصحوة تُذكِّرنا بمعنى الحياة الَّتي نعيشها، والأهداف الَّتي نرسمها، والطُّموحات الَّتي نتطلَّع إليها، والمستقبل الَّذي ننتظره، وهذا هو الهدف من التَّوجيه الرَّبَّانيِّ في هذا الشَّهر للعودة لحظيرة الإيمان، والتَّزوُّد من محطَّة التَّقوى، والتَّذكير بالقرآن والقيم السَّاميَّة والمبادئ الحقَّة والأخلاق الفاضلة. وهذا لا يتسنَّى إلَّا بالاستجابة الصَّادقة للأوامر الرَّبَّانيَّة، والاستفادة الحقيقيَّة من التَّوجيهات النَّبويَّة.

إنَّ هذه التَّوجيهات هي برنامج متكامل، وإعداد شامل لبناء الإنسان، وتقوية الإرادة، وتحقيق لسُبل الصَّلاح والاستقامة، فهي محطَّة تزوُّد لدخول معركة الحياة بروح جديدة مليئة بالعزيمة والإصرار والتَّفاؤل والتَّطلُّع إلى

آفاق الرَّحمة والبركة، والطَّمع في ثواب اللَّه وجنانه. ففي خطبة الرَّسول ﷺ قبيل شهر رمضان يُذكِّر النَّاس جميعًا بأهمِّيَّة هذا الشَّهر، وضرورة اليقظة لأبعاده ومراميه، يقول «أيُّها النَّاس، إنَّه قد أقبل إليكم شهر اللَّه بالبركة والرَّحمة والمغفرة، شهر هو عند اللَّه أفضل الشُّهور، وأيَّامه أفضل الأيَّام، ولياليه أفضل اللَّيالي، وساعاته أفضل السَّاعات، هو شهر دُعيتم فيه إلى ضيافة اللَّه، وجُعلتم فيه من أهل كرامة اللَّه، أنفاسكم في تسبيح، ونومكم فيه عبادة، وعملكم فيه مقبول، ودعاؤكم فيه مستجاب، فاسألوا اللَّه ربَّكم بِنِيَّات صادقة، وقلوب طاهرة أن يوفِّقكم لصيامه وتلاوة كتابه، فإنَّ الشَّقيَّ من حُرِمَ غفران اللَّه في هذا الشَّهر العظيم»[1].

إنَّ الغفلة عن تحقيق ما يصبو إليه الإنسان وما خُلق من أجله والسَّعادة الَّتي ينشدها هو سبب للشَّقاء والحرمان والضَّياع.

٤- التسلح بثقافة القرآن:

فخصوصيَّة نزول القرآن في هذا الشَّهر واللَّيالي المباركة لها بعدان:

١- تخليد الذِّكرى:

فالسَّبيل لتخليد هذه الذِّكرى العطرة هو شهر رمضان، شهر العناية بالقرآن. فالقرآن يمثِّل المعجزة الخالدة، القرآن معجزة الرَّسول ﷺ الحيَّة والخالدة؛ لأنَّه الكتاب السَّماويُّ الوحيد الَّذي أرادت له مشيئة السَّماء أن يبقى مصونًا من الزِّيادة والنُّقصان والتَّبديل والتَّغيير، رغم كثرة السَّعي لتحريفه

(١) الأمالي، الصدوق، ص ٩٣.

بالمعنى، والأحاديث المكذوبة على رسولنا الأكرم صلى الله عليه وآله ليصبح مشروعًا وسُنَّة في مقابل القرآن والسُّنَّة المطهَّرة الَّتي تنصُّ على أهل البيت عليهم السلام، كونه الكتاب الخالد والدُّستور الدَّائم للحياة إلى يوم القيامة مادام هناك إنسان يعيش على الكرة الأرضية؛ وذلك لما يحمل بين دفَّتيه من أحكام راقية وتعاليم عالية يضمن تطبيقها سعادة الإنسان.

إنَّ القرآن بالإضافة إلى أنَّه كتاب يحوي الكثير من العلوم والأحكام والحقوق والأخلاق وآداب وسياسة واقتصاد، لكنَّ أثره الرُّوحيَّ والنَّفسيَّ قد يطغى على كلِّ ذلك. ومن المؤسف حقًّا أن نجد البعض من دائرة الإسلام يُقلّل من شأن القرآن من ناحية الصِّياغة والبلاغة، وهو الَّذي تحدَّى فُصحاء العرب وأصحاب المعلَّقات السَّبع أن يأتوا بمثله، فلم يستطيعوا أن يأتوا بسورة من مثله، بل راحوا يجمعون ما علَّقوه على الكعبة من معلَّقاتهم، لكن لم ينفعهم ذلك.

وللأهمِّيَّة بخصوص الشَّهر الفضيل وردت الكثير من الرِّوايات الَّتي تُحيط بقداسته ودوره في حياة الإنسان وإيجاد التَّحوُّلات الاجتماعيَّة، بدءًا من قراءته والتَّدبُّر فيه، ليكون عَلَمًا وهاديًا إلى سُبل الخير والسَّلام.

إذًا شهر رمضان تذكير بهذه المعجزة الخالدة ذات الأثر الكبير على كلِّ المستويات، يقول تعالى: ﴿**شهر رمضان الَّذي أنزل فيه القرآن هدًى للنَّاس وبيِّنات من الهدى والفرقان**﴾[1]، فلا بدَّ أن تكون العلاقة مع القرآن متميِّزةً وخاصَّةً، يستعيد فيها الإنسان قوَّة الرَّابطة وروح العلاقة مهما كانت هناك من

(١) سورة البقرة، الآية ١٨٥.

شواغل وظروف وحواجز نفسيَّة وعوائق فكريَّة؛ لأنَّه كتاب هداية في الأساس لتحرير العقول من سباتها، وتطبيب النُّفوس من تعقيداتها، وتكريس القيم الخلَّاقة في سبيل البناء والإصلاح، كما أشار القرآن على لسان النَّبي شعيب عليه السلام لقومه: ﴿**إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ**﴾[١]، فكلُّ الرِّسالات إصلاحيَّة، وليس المقصود فقط إصلاح ما فسد، وإنَّما هي لصلاح كلِّ الشُّؤون، أي الاستفادة واستغلال كلِّ ما سُخِّر للبشر، من أرض وسماء وبحر وهواء وزرع، كقول تعالى: ﴿**وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا**﴾[٢]، وهذا لا يتمُّ إلاَّ من خلال قيم بنَّاءة، ومبادئ حقَّة وثابتة، وثقافة سليمة، وبدون ذلك يسود الفساد في الأرض والبحر، مهما تقدَّمت العلوم وتحقّق التَّقدُّم في كثير من المجالات، لكنَّ ما فسد أكثر بكثير، يكفي أنَّ أكبر ميزانيَّات الدُّول الكبرى والصِّناعيَّة تصرف على وسائل الدَّمار والخراب، وقتل البشر، واستباحة المحرَّمات، وانتهاك الحقوق، والتَّصدِّي لكلِّ راية إصلاح وأمر بالمعروف، لتُثبت للعالم أنَّها الأقوى والحضارة الَّتي تُحتذى، ولا يقف أحد في وجهها، كما قال تعالى: ﴿**ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ**﴾[٣]، وقال تعالى: ﴿**سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ**﴾[٤].

---

(١) سورة هود، الآية ٨٨.
(٢) سورة الأعراف، الآية ٥٦. سورة الأعراف، الآية ٨٥.
(٣) سورة الروم، الآية ٤١.
(٤) سورة الأعراف، الآية ١٤٦.

فهذا الحضارة المادِّيَّة البائسة هي اليوم تتشدَّق بالشِّعارات وحقوق البشر، لكنَّها أساس الدَّمار والظُّلم والعدوان، ولم تُحقِّق للعالم سوى تصدير الفساد وثقافة الاستبداد والتَّحلُّل من الأديان والأخلاق، وتكريس ثقافة التَّبعيَّة لضمان مصلحتها ونفوذها، وتُسوِّق بضاعتها، فهي ليست بريئةً من كلِّ شيء حتَّى فيما تُقدِّمه من علوم وصنائع وحاجات لغيرها، فما سبب الأزمات الاقتصاديَّة والعالميَّة والفيضانات والكوارث من الحروب والدَّمار، وتلوُّث البيئة والمناخ من البحار والأشجار والثَّروات الطَّبيعيَّة والخيرات؟ أليس ذلك من صنع البشر، وعلى رأسهم الدُّول الاستعماريَّة المُتجبِّرة والمُتغطرسة؟ فأين هذه السِّياسات الاستعماريَّة وقيم الإسلام والقرآن؟

فإن القرآن يُثبت لنا المبادئ والقيم في سبيل السَّعادة والرَّفاهية، شرط الإيمان والالتزام والشُّموليَّة للحياة وأبعادها وزواياها المختلفة، قال تعالى: ﴿**وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آَمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنْ كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ**﴾[1]، والآية فيها من الإشارات (فتحنا - بركات) والدَّلائل على عظمة القرآن وحكمة الباري، وفي آية واحدة فتأمل. كلّ مفردة تحتاج إلى تدبُّر وتأمل، ممَّا لا يتَّسع لها غور الفكر والآفاق في هذا الشَّأن، كلُّ ذلك يتحقَّق بإذن اللَّه لكن بشرط الإيمان والتَّقوى الَّتي أشارت إليها الآية في المقدِّمة.

وهنا نعود لتأكيد العلاقة والرَّابطة مع القرآن في كلِّ وقت ومكان، لكن هنا في شهر رمضان خصوصيَّة وتمايز عن غيره بسبب الذِّكرى الخالدة لنزول

(١) سورة الأعراف، الآية ٩٦.

القرآن، وكذلك في ليلة مباركة وهي ليلة القدر، ممَّا يدلُّ على مكانته وسرِّ عظمته وتأثيره والعناية به، ليزداد هذا الشَّهر وليلة القدر شرفًا وبركة وقدرًا، فتعظيم القرآن هو تعظيم للَّه أوَّلًا، فهو المُنزِل والمُشرِّع والمُدبِّر والحكيم، قال تعالى: ﴿**الر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ**﴾[١]، وفي الحديث: «إنَّ اللَّه تجلَّى في كتابه إلَّا أنَّكم لا تبصرونه»[٢].

فالقرآن هو أحد التَّجلِّيات الرَّبَّانيَّة، فآياته كلَّها جليلة وعظيمة، لكنَّ القرآن هو المعجزة الكبرى، الَّذي حوى كلَّ الآيات وأشار إليها، ومن تفكّر وتدبّر في القرآن يصل إلى هذه الحقيقة، قال تعالى: ﴿**أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا**﴾[٣]، ممَّا يستدلُّ به على وحدانيَّة وألوهيَّة الخالق وهو اللَّه سبحانه. وثانيًا على عظمة الرَّسولين وهما جبرائيل والرَّسول محمَّد بن عبد اللَّه عليهما الصَّلاة وأتمَّ التَّسليم، فهما الواسطة، ولقد ذكرهما القرآن وعظّمهما وأجلَّهما ورفع قدرهما، قال تعالى: ﴿**وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ * نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ * عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ**﴾[٤]، فقد جمع اللَّه بينهما. وثالثًا على عظمة الشَّهر، وبالخصوص على عظمة ليلة القدر، الَّتي أشار إليها القرآن في سورة كاملة، لمكانتها وعظم أمرها والسِّرّ المستودع فيها من الآيات والبركات والخيرات، التي لا تقارن بها الأزمان، يقول تعالى: ﴿**إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ * لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ * تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِنْ**

(١) سورة هود، الآية ١.
(٢) مستدرك سفينة البحار، ج٢، ص٨٣.
(٣) سورة النساء، الآية ٨٢.
(٤) سورة الشعراء، الآية ١٩٢ - ١٩٤.

﴿كُلِّ أَمْرٍ * سَلَامٌ هِيَ حَتَّى مَطْلَعِ الْفَجْرِ﴾[١]، وهي ليلة مباركة، يقول تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنْذِرِينَ﴾[٢].

فالقرآن مبارك، قال تعالى: ﴿وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ﴾[٣]، وليلة القدر مباركة والشَّهر مبارك، فتتوالى البركات والرَّحمات. والوقوف عند آيات ليلة القدر يحتاج إلى صفحات، فهي من التَّقدير للأرزاق والأمور، وهي خير من ألف شهر، كناية عن الكثرة وليس الحصر، كذا يقال، أمّا بقيَّة الأعاظم فهو نزول الملائكة. والفعل يدلُّ على الاستمرار في كلِّ أوقاتها. والرُّوح هو ملك غير جبرائيل. ومن المأثور أنَّ هناك ملائكةً عند اللَّه أعظم من جبرائيل على عظمته ومكانته. وهي سلام طول ليلتها، والسَّلام والاطمئنان والهداية.

وتوصيف القرآن بالبركة كما تقدَّم في الآيات بالخصوص، يشمل القراءة والحفظ والتِّلاوة وكلَّ ما يرتبط به من اهتمام، لكنَّ المعنى العميق والدَّقيق يقتضي اهتمامًا بالتَّدبُّر فيه والعمل به؛ لأنَّه هو الغاية من نزوله كما يفهم من الآيات الكثيرة، وهذه الآية بالخصوص قال تعالى: ﴿كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾[٤]، فالتَّدبُّر والفهم هو الطَّريق للوصول إلى النَّتائج والحقائق والبصائر، فهذه تنمية للعقول والأفهام، وهو المطلوب أوَّلًا. وثانيًا الطَّريق للعمل به في سبيل البناء والإصلاح والتَّقدُّم والرَّفاهية، وهذه تنمية أخرى، تفضي كلُّها إلى البركات، وهي النُّموّ والزِّيادة فتأمّل.

---

(١) سورة القدر، الآية ١ - ٥.
(٢) سورة الدخان، الآية ٣.
(٣) سورة الأنعام، الآية ٩٢. سورة الأنعام، الآية ١٥٥.
(٤) سورة ص، الآية ٢٩.

إذًا هناك علاقة كما في الآية المباركة بين التَّدبُّر والبركة، علاقة تعليليَّة وسببيَّة، ولام التَّعليل تفيد ذلك.

لكنَّ السُّؤال: كيف تنمو هذه البركة؟ وكيف تكون العلاقة مع القرآن في حياتنا وليس في هذه اللَّيلة فقط؟ وكيف تتحوَّل هذه الذِّكرى إلى منعطف وتحوَّل في حياة الإنسان ومسار المجتمعات؟

٢- كيفية العلاقة مع القرآن:

أ- كثرة القراءة والتمعن في الآيات:

لقد أشرنا في الجزء الأول عن الاهتمام بالقرآن فليراجع، وهنا نضيف أمرين مهمين كذلك، وهو كثرة القراءة للقرآن ضرورية من أجل الاستفادة والفهم، وهو ما يشير إليه القرآن بمصطلح (الترتيل) أي الكثرة مع التأمل والوقوف عن حدوده، قال تعالى: ﴿**وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا**﴾[1]، فقراءة القرآن لا تحكمها المناسبات فقط، والرَّابطة القويَّة من خلال القراءة هي أساس الانطلاقة والمرجع في صيانة الإنسان وقيادة الحياة، وتغيير وإصلاح الأمَّة والعالم من كلِّ ما علق به من أهواء وصراعات، وما تكرّس فيه من بؤر للفساد والتخلُّف. وحينما نفتقد هذه العلاقة أو تضعف فإنَّنا نفتقد تلك الرُّوح الَّتي تبعث على التَّمسُّك به والشُّعور بضرورة تفهُّمه والحاجة إليه من هنا جاء التَّأكيد على أهمِّيَّة القراءة الواعية الَّتي يستشعر فيها الإنسان عظمة القرآن ودوره في الحياة، وأنه منزل من اللَّه، فعن النَّبيّ صلى الله عليه وآله: «من قرأ القرآن فظنَّ

(١) سورة المزمل، الآية ٤.

أنَّ أحدًا أُعطي أفضل ممَّا أُعطي فقد حقَّر ما عظَّم اللَّه، وعظَّم ما حقَّر اللَّه»[١].

وعنه ﷺ: «إنَّ هذا القرآن مأدبة اللَّه فتعلَّموا مأدُبته ما استطعتم. إنَّ هذا القرآن حبل اللَّه، وهو النُّور المبيَّن، والشِّفاء النَّافع، عصمة لمن تمسَّك به، ونجاة لمن تبعه»[٢].

فمن المظاهر السَّلبيَّة لهذه العلاقة هو ما نجده من ذلك الاهتمام المتزايد في المجالس والبيوت والمساجد والمحافل لقراءة القرآن خلال شهر رمضان لكنَّه يفتقد إلى الفهم والوعي والتَّركيز على دلالة هذه القراءة، فالقراءة وإن كانت مطلوبةً لكنَّها وسيلة للفهم والعمل. من هنا جاء التَّوجيه والتَّحذير من الاهتمام بالقراءة ومحاولة ختم القرآن مرَّةً ومرَّتين وأكثر خلال الشَّهر لكنَّ دون استفادة حقيقيَّة، يقول الرَّسول الأعظم ﷺ: «ولا يكن همُّ أحدكم آخر السُّورة»[٣].

فالحثُّ على القراءة والتَّعبُّد بالقراءة في هذا الشَّهر له ثواب عظيم كما ورد في ذلك الكثير من الرِّوايات، ولكن ما هو المغزى والهدف الَّذي تُرشد إليه هذه الرِّوايات؟

ولقد حضرنا بعض مجالس القرآن في البيوت والمساجد في شهر رمضان وهي ما زالت إلى وقتنا الحاضر، حيث يختم القرآن مرَّتين في الشَّهر الكريم لكنَّ دون عناية للقراءة والتِّلاوة، لكثرة الأخطاء واللَّحن في الآيات

(١) وسائل الشِّيعة، ج ٦، ص ١٧٠.
(٢) وسائل الشِّيعة، ج٦، ص ١٦٨.
(٣) الكافي (ط - دار الحديث)، ج٤، ص ٦٢٩.

مع تحريف للمعنى، واقترحنا عليهم بجلب وتقديم متخصِّصين ولو بأجرة، لكنَّ الحال لم يتغيَّر، فينصبُّ الاهتمام بختم القرآن حسب العادة المتَّبعة، وليس هناك اهتمام حتَّى بالقراءة فضلًا عن العناية بالتَّدبُّر.

ب- الاهتمام بالموعظة والاتعاظ:

فالقرآن كله مواعظ، فهناك الآيات والقصص والأمثلة، ولا يمكن حصر ذلك في جهة معينة، قال تعالى: ﴿**وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ**﴾[١]، لكن المطلوب هو التقاط هذه العبر والمواعظ، فالقرآن وصف نفسه بالموعظة قال تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ * قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ**﴾[٢]، فتأمل هذه الآيات، فالخطاب للناس جميعًا لكن من المستفيد هم المؤمنون فقط، لأنهم يستجيبون ويتأملون لأهمية الخطابات ويتدبرون الآيات، أما أكثر الناس والغالبية فيمرون على الآيات سواء الكونية أو القرآنية ويعرضون عن ذلك، وصدق الإمام علي عليه السلام حيث قال: «ما أكثر العبر وأقل المعتبر»، والأهمية الأخرى هو التفاعل مع المواعظ والأخذ بها وليس فقط الإيمان بها، يقول الحق: ﴿**وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا**﴾[٣]، ولذلك جاء التأكيد على الاعتبار كما قال تعالى: ﴿**لَقَدْ كَانَ فِي**

(١) سورة النحل، الآية ٨٩.
(٢) سورة يونس، الآية ٥٧ - ٥٨.
(٣) سورة النساء، الآية ٦٦.

﴿قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي﴾[١]، وفي الحديث «تدبَّروا آيات القرآن واعتبروا به فإنَّه أبلغ العبر»[٢].

فمن دون فهم للقرآن أوَّلًا لا يمكن أن نتسلَّح بالقيم والثَّقافة السَّليمة. وثانيًا السَّعي للعمل به وتطبيقه ﷺ فلا يكفي أن نقرأ أو نستنتج منه الأفكار والنَّظريَّات ونهمل الجانب العمليَّ، وهنا تكن المشكلة، حينما نواجه تلك التَّحدِّيات الحضاريَّة والمشاكل الحياتيَّة فإنَّنا نفتقد العلاج والطَّريقة الصَّحيحة، فنبحث عن ذلك ونستجدي الحلول من هنا وهناك، ونتخبَّط ونستمرُّ في هذا التَّخبُّط سنين طويلةً ثمَّ نكتشف أنَّنا ما زلنا مخطئين، لأنَّنا نفتقد الحقيقة الرَّبَّانيَّة والحلول القرآنيَّة الَّتي جاءت من أجل إخراج النَّاس من الظُّلمات إلى النُّور، ولكنَّ نستبدل ذلك بالاعتماد على تلك القوانين والتَّشريعات والسِّياسات الَّتي نحاول أن نستوردها أو نُجبر على تطبيقها، فهي لا تستهدف مصلحتنا ولا تريد إصلاحنا.

فما نجده في الكثير من مجتمعاتنا اليوم كيف يهرعون إلى تبنِّي تلك السِّياسات والمفاهيم الغربيَّة للحرِّيَّة والتَّقدُّم والتَّنمية؛ إنَّهم مخطئون. فإنَّ الأنظمة والحكومات في بلداننا مهما سعت لإصلاح الأوضاع والواقع الفاسد من خلال تبنِّي واستيراد هذه المنظومات من القيم المزيَّفة دون الرُّجوع إلى القرآن وتحكيم مبادئه، فإنَّ ذلك لا يزيدنا إلَّا ارتكاسًا وتخلُّفًا وتراجعًا، فهذه الحقيقة الَّتي نعيشها. يقول تعالى: ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُمْ

(١) سورة يوسف، الآية ١١١.
(٢) غرر الحكم ودرر الكلم، ص ٣١٨.

مِنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾[١].

فلماذا لا تكون هناك عودة حقيقيَّة للقرآن والاستنارة بهداه والتَّدبُّر في آياته؟ إنَّ الإيمان الحقيقيَّ باللَّه والثِّقة به يهدينا إلى كتابة، وفهمنا إلى هذا الكتاب يشقُّ لنا طريق الحياة السَّاميَّة، فنزداد إيمانًا وتوكُّلًا وبصيرةً، قال تعالى: ﴿**وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ**﴾[٢].

إنَّ شهر رمضان دعوة للعودة الحقيقيَّة لفهم القرآن والالتصاق به، ومحاولة الاهتداء إلى حقائقه، والتَّترُّس به في مواجهة المخاطر والمشاكل والتَّحدِّيات الَّتي نواجهها اليوم. وإن التَّدبُّر في القرآن فقط هو الَّذي يمنحنا هذه القدرة والوعي، ويرشدنا إلى الحلول، يقول تعالى: ﴿**كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ**﴾[٣]، وقال تعالى: ﴿**شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ**﴾[٤].

فنحن بحاجة اليوم أن نستلهم من القرآن كلَّ المبادئ الحياتيَّة، والقوانين الاجتماعيَّة المختلفة، والسُّنن الحضاريَّة، والأنظمة المدنيَّة الَّتي تتَّفق مع روح وثوابت الدِّين ومتغيِّرات العصر وآفاق المستقبل.

لا بدَّ أن تكون علاقتنا مع القرآن علاقةً مستمرَّةً ومتطوِّرةً من خلال فهمنا واستعدادنا للأخذ بتعاليم القرآن، وأن تكون عندنا المبادرة في تقديم رؤى القرآن ونظريَّاته في كلِّ شيء قبل أن تغزونا تلك المفاهيم والأطروحات،

(١) سورة البقرة، الآية ٢٥٧.
(٢) سورة محمَّد، الآية ١٧.
(٣) سورة ص، الآية ٢٩.
(٤) سورة البقرة، الآية ١٨٥.

ثمَّ نحاول الوقوف أمامها ومواجهتها. يقول الإمام علي عليه السلام: «اللَّه اللَّه في القرآن، لا يسبقنكم بالعمل به غيركم»[١]. ويقول الشَّاعر:

كتاب ربِّـي عظيم كيف نترُكُه ونلوذ بالكفَّار نستجدي القوانينا

ويجب كذلك أن نتحرَّر من كلِّ القيود الَّتي تحجبنا عن فهم القرآن من الرَّواسب والضُّغوط والإملاءات الاجتماعيَّة والسِّياسيَّة، فمن أخطر وأسوأ العلاقة مع القرآن حينما يتحوَّل إلى مطيَّة للمصالح والأغراض الدُّنيويَّة؛ لأنَّ القرآن حمَّال ذو وجوه، وعام. وهنا تأتي أهمِّيَّة الرُّجوع إلى الثِّقل الآخر، وهم أهل البيت عليهم السلام؛ لأنَّهم أهل الذِّكر والمعرفة، وباب علم رسول اللَّه صلى الله عليه وآله وعيبته. فكم من النَّاس، بل من العلماء الَّذين يقرؤون القرآن ويفسِّرونه ويُعلِّمونه للنَّاس، ولكنَّهم في حقيقة الأمر هم ضالُّون ومضلُّون، وهؤلاء هم الأخطر على الدِّين والأمَّة. ولقد حذَّرنا رسول اللَّه صلى الله عليه وآله من هؤلاء ومن مواقفهم، يقول: «كم من قارئ للقرآن والقرآن يلعنه»[٢].

وإن من أهمِّ أسباب التَّخلُّف في الأمَّة وانتكاسها هو بسبب علماء السُّوء وأصحاب الأفكار المنحرفة والكتَّاب المصلحيين الَّذين يُزيِّفون الحقائق ويتملَّقون السَّلاطين والحكَّام، ويخدعون النَّاس والشُّعوب باسم الدِّين والإسلام، فهؤلاء لا يفقهون من القرآن شيئًا، بل يُتاجرون بالقرآن، وهم الَّذين يقول عنهم القرآن: ﴿**وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ * أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ * وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ**﴾[٣]، وقال تعالى: ﴿**أَلَمْ تَرَ إِلَى**

(١) نهج البلاغة، ص ٤٢٢.
(٢) مستدرك الوسائل و مستنبط المسائل، ج٤، ص ٢٥٠.
(٣) سورة الشُّعراء، الآية ٢٢٤ - ٢٢٦.

الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلَاءِ أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا﴾[١].

فنعوذ باللَّه أن يُصبح القرآن سببًا لشقائنا وتعاستنا حينما نتجاهل أو نحاول أن نطمس حقائقه ونحن نتظاهر بالاهتمام به أو ندَّعي فهمه، ونصبح مصداق لقوله تعالى: **﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِيَذَّكَّرُوا وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا﴾**[٢]، وقال الرَّسول: **﴿يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا﴾**[٣].

ومن هنا ينبغي أن تكون هناك دراسات قرآنيَّة وافية، ومنتديات وحوارات حول كلِّ المواضيع الحياتيَّة، وبالخصوص الَّتي تتعلَّق بحضارة الأمَّة ومصيرها ومسيرتها، وما تتعرَّض له من نكبات، وما تواجه من تحدِّيات، وما يقف في طريقها من عقبات في خلال هذا الشَّهر الكريم، حتَّى يتحوَّل القرآن إلى مائدة أساسيَّة نتذوَّق من خلالها طعم الحياة، ويصبح القرآن مدرسةً للتَّخرُّج في كلِّ سنة، وهكذا يتحوَّل رمضان إلى مناسبة وإحياء في تخليد القرآن وتحقيق أهدافه السَّاميَّة.

---

(١) سورة النِّساء، الآية ٥١.
(٢) سورة الإسراء، الآية ٤١.
(٣) سورة الفرقان، الآية ٣٠.

ثانيًا: التحولات الاجتماعية

إنَّ تأكيد الإسلام ومن خلال شهر رمضان والصِّيام على المفاهيم السُّلوكيَّة والرَّوابط الاجتماعيَّة والأبعاد الإنسانيَّة والحضاريَّة هو من أجل إيجاد التَّحوُّلات، فمن دون تحقيق هذه التَّحوُّلات ووعي هذه التَّأثيرات لا يمكن أن تكون هناك نقلة وتغيير واستفادة كاملة من هذه المحطَّة، ولا يمكن أن نحقِّق أهدافها، فلا بدّ للأمَّة أن تكون لها صبغة وهويَّة تُميِّزها عن سائر الأمم والمجتمعات في السُّلوك والمعتقد والعادات والمفاهيم، ويمكن الوقوف على هذه الاهتمامات والأبعاد من خلال خطبة الرَّسول ﷺ قبيل شهر رمضان الَّتي تُشير إلى ضرورة هذه التَّحوُّلات وتفعيلها.

١- على الصعيد الشخصي:

إنَّ الإنسان مطالب في هذا الشَّهر بالعودة إلى اللَّه والإنابة إليه والتَّوبة، والوقفة مع الذَّات ومكاشفتها ومحاسبتها في جميع المجالات، خصوصًا الَّتي ترتبط بشخصيَّة الإنسان ودورها الحياتيِّ والاجتماعيِّ. إنَّ الشُّعور بالتَّقصير أو الذَّنب يدفع الإنسان نحو التَّغيير والازدياد والاستفادة والتَّكامل، وعكس ذلك فعدم الشعور بالتَّقصير أو اللَّامبالاة أمام الأخطاء والمعاصي والذُّنوب الَّتي يقترفها الإنسان هو من أسباب الغفلة والتَّمادي والاسترسال

في حياة الأهواء والشَّهوات. والإنسان بصير على نفسه، وعن تلكم الجوانب الَّتي تحتاج للتَّغيير والإصلاح والمحاسبة، يقول تعالى: ﴿**الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلَّا اللَّمَمَ إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَإِذْ أَنْتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ فَلَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى**﴾[1]، فهذه الآية المباركة تفتح لنا أبواب الرَّحمة والمغفرة والسُّموِّ والتَّوبة من أجل إعادة صياغة الشَّخصيَّة وبنائها بناءً محكمًا.

وشهر رمضان يُمثِّل تلك الفرصة الرَّوحانيَّة والمحطَّة الرَّبَّانيَّة والأجواء الإيمانيَّة الَّتي تُحرِّك في الإنسان مشاعر العروج إلى اللَّه والتَّوبة، والقلوع من الذُّنوب والأخطاء، والإحساس بالتَّقصير والعودة إلى حظيرة الإيمان والتقى. من هنا نجد نبيّ الرَّحمة يخاطب النَّاس جميعًا بقيمة هذا الشَّهر وعظمته، ويفتح لهم أبواب الأمل والسَّعادة والتَّفاؤل والخروج من ضيق الحياة وكدرها وشوائبها، يقول ﷺ: «أيُّها النَّاس، إنَّه قد أقبل إليكم شهر اللَّه بالبركة والرَّحمة والمغفرة، شهر هو عند اللَّه أفضل الشُّهور، وأيَّامه أفضل الأيَّام، ولياليه أفضل اللَّيالي، وساعاته أفضل السَّاعات، هو شهر دُعيتم فيه إلى ضيافة اللَّه، وجُعلتم فيه من أهل كرامة اللَّه، أنفاسكم في تسبيح، ونومكم فيه عبادة، وعملكم فيه مقبول»[2].

فمن يمنع الإنسان في هذا الشَّهر من الإقبال على اللَّه بكلِّ الحبِّ والامتنان والرَّغبة والطَّمع في رحمته، فهذه حقيقة الضِّيافة والكرم الإلهيِّ الَّذي يجود به على عبادة ويُرغِّبهم في الزِّيادة من كلِّ خير وعبادة؟! إنَّها منحة

(١) سورة النجم، الآية ٣٢.
(٢) الأمالي، الصدوق، ص ٩٣.

إلهيَّة للإنسان في تحقيق ما يريده ويبتغيه ويتطلَّع إليه من كمال وسعادة ومغفرة.

ولكي يوفِّق الإنسان لاغتنام هذه الفرصة وتحقيق هذه الرَّغبة والاستفادة من هذه المنحة لا بدَّ أن يكون مستعدًّا وحاضرًا وصادقًا ومؤهَّلًا لهذا الكرم وتلك الضِّيافة الرَّبَّانيَّة. يقول الرَّسول ﷺ: «فاسألوا اللَّه ربَّكم بِنِيَّات صادقة وقلوب طاهرة أن يوفِّقكم لصيامه وتلاوة كتابه»[1]. وبعد ذلك لا يجوز للإنسان أن يحرم نفسه ويكون غافلًا منشغلًا عن حظِّه؛ لأنَّ ذلك سبب للحرمان والشَّقاء؛ «فإنَّ الشَّقيَّ من حُرم غفران اللَّه في هذا الشَّهر الكريم»[2].

لا مجال للتَّمادي والاسترسال في الحياة، ولا بدَّ من وقفة مع الذَّات من أجل الارتقاء بالحياة إلى الأفضل والتَّخطيط للبناء السَّويِّ وشقِّ طريق المستقبل، فلا عذر للإنسان أن يُسوِّف الفرصة أو يتهاون في حياته بالتَّقصير ويسترسل في الانحراف، حتَّى جاء في الحديث: «إنَّ من لم يُغفر له في هذا الشَّهر فمتى يغفر له».

وهنا تكمن أهمِّيَّة وطبيعة هذه ا العلاقة الصَّادقة مع الذَّات، وإيجاد ذلك التَّحوُّل الجذريِّ في حياة الإنسان والانعطافة التَّاريخيَّة في سجلِّ الشَّخص وتأثيراتها على صعيد الحياة والمجتمع، فذلك يحتاج إلى وعي وترشيد. فمن الضَّروريِّ أن تكون هناك عمليَّة متكاملة في هذه العلاقة والمكاشفة حتَّى تُحقِّق الغرض والفائدة المطلوبة، ولتشمل حياة الإنسان

(١) الأمالي، الصدوق، ص ٩٣.
(٢) الأمالي، الصدوق، ص ٩٣.

ودوائر تعاطيه مع الواقع والمحيط والمجتمع. يقول المفكِّر الإسلاميُّ الشَّيخ حسن الصَّفَّار: «في تعاليم الإسلام دعوة مكثَّفة للانفتاح على الذَّات ومحاسبتها بعيدًا عن الاستغراق في الاهتمامات المادِّيَّة والانشغالات الحياتيَّة الَّتي لا تنتهي»[١]، وفي الحديث عن رسول اللَّه ﷺ: «حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا، وزنوها قبل أنَّ توزنوا»[٢]. ثمَّ يتابع الحديث عن أهمِّيَّة هذه المراجعة من خلال مجالات التَّأمُّل الذَّاتيِّ، ومن خلال أبعاد ثلاثة:

« البعد الأول: المراجعة الفكرية:

أن يراجع الإنسان أفكاره وقناعاته ويتساءل عن مقدار الحقِّ والصَّواب فيها، ولو أنَّ النَّاس جميعًا راجعوا أفكارهم وانتماءاتهم لربَّما استطاعوا أن يُغيِّروا الأخطاء والانحرافات فيها، غير أنَّ لسان حال الكثير من النَّاس ﴿**إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُقْتَدُونَ**﴾[٣].

البعد الثاني: المراجعة النفسية:

أن يراجع الإنسان الصِّفات النَّفسيَّة الَّتي تنطوي عليها شخصيَّته، فهو جبان أم شجاع؟ جريء أم متردِّد؟ حازم أم لين؟ صادق أم كاذب... إلخ. وتأتي أهمِّيَّة هذه المراجعة النَّفسيَّة أن يقرِّر الإنسان بعدها أن يُصلح من كلِّ خلل نفسيّ.

---

(١) شهر رمضان والانفتاح على الذات (بصائر - ٢).
(٢) بحار الأنوار، ج ٦٧، ص ٧٣.
(٣) سورة الزخرف، الآية ٢٣.

البعد الثالث: المراجعة الاجتماعية والسلوكية:

أن يراجع الإنسان سلوكه وتصرُّفاته مع الآخرين بدءًا من زوجته وأطفاله، وانتهاءً بخدمه وعُمَّاله وسائر النَّاس ممَّن يتعامل معهم ويرتبط بهم... وشهر رمضان هو خير مناسبة للارتقاء بالأداء الاجتماعيِّ للمؤمن، ولتصفية كلِّ الخلافات والحزازات الَّتي تحول دون التَّقارب مع الآخرين، ولقد حثَّت الرِّوايات الكثيرة على ذلك»[1] انتهى.

٢- البعد الاجتماعي:

من أهمِّ الأبعاد في ترسيخ قيم الإسلام ومبادئه وتحقيق نتائجه وثماره هو بعده الاجتماعيّ، فالكثير من النَّاس يجهلون تأثير وعمق الرُّؤية الإسلاميَّة في بناء المجتمعات وتحقيق السَّعادة والكرامة الإنسانيَّة من خلال ذلك.

وقد يكون إهمال هذا الجانب بسبب مخالفته لأهواء الإنسان ومصالحه، وكذلك يطلب شعورًا بالمسؤوليَّة. وقد يعود السَّبب الرَّئيسي لتفريغ الإسلام من محتواه وقيمه الحضاريَّة بشكل عامّ، وهو أمر ناشئ من تلك السِّياسات الحاكمة الَّتي حاولت جاهدةً في فصل الدِّين عن روحه وتعاليمه وسياساته الحياتيَّة والاجتماعيَّة. وعلى إثر ذلك نجد ضعف الثَّقافة الإسلاميَّة الحياتيَّة، وتفكُّك المجتمعات، بعد أن ترسَّخت تلك الفواصل والمفاهيم الدُّنيويَّة والمادِّيَّة.

---

(١)راجع كتاب: شهر رمضان والانفتاح على الذات، لسماحة الشيخ حسن الصفار، الطبعة الثانية، ص١٦.

ومن أجل صياغة الإنسان والمجتمع والأمَّة على قيم الإسلام وأبعاده يتطلَّب عودةً حقيقيَّةً لحظيرة الإيمان، وجسر البناء والعلاقة مع النَّاس، لإيجاد التَّحوُّل على هذا الصَّعيد. وفي خطبة الرَّسول ﷺ تأكيد على تلك الأبعاد والجوانب، ومن أهمِّها:

١- مساعدة المحتاجين من الفقراء والمساكين والتَّحنن على الأيتام.
٢- الآداب الاجتماعيَّة وسيادة الاحترام والفضيلة.
٣- التَّواصل والتَّراحم.
٤- الأخلاق العامَّة مع النَّاس.

ففي الخطبة تأكيد على قيمة العطاء والإنفاق «وتصدَّقوا على فقرائكم ومساكينكم... وتحننوا على أيتام النَّاس يُتحنَّن على أيتامكم»[1]، فالإيمان كالزَّرع لا يمكن أن ينمو من دون سقي، والأعمال الصَّالحة تُنمِّي إيمان الإنسان وتُزكِّي نفسه من العوائق والرَّذائل.

والإيمان ليس مجرَّد كلام وعلاقة روحانيَّة خالية من مشاعر الحبِّ للنَّاس والإحساس بحياتهم وظروفهم، ولذلك لا يمكن أن يزكو في النَّفس المليئة بالحقد والحسد والأنانيَّة، إنَّما الإيمان الحقيقيُّ يتجلَّى في الحبِّ الكبير الَّذي يعمُر قلب الإنسان، ويشتدُّ في الارتباط الحقيقيِّ والصَّادق مع النَّفس والآخرين. هذه هي لغة الإيمان والعلاقة الإيجابيَّة، ففي الحديث: «وهل الدِّين إلَّا الحبُّ»[2]، وفي آخر: «لاَ يَسْتَكْمِلُ الْمَرْءُ الإِيْمَانَ حَتَّى يُحِبَّ

(١) الأمالي، الصدوق، ص ٩٣ - ٩٤.
(٢) المحاسن، ج١، ص ٢٦٣.

لِأَخِيهِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِه»[١].

ونجد أنَّ القرآن يؤكِّد على هذه العلاقة من خلال الصَّلاة والزَّكاة في أغلب الآيات، ممَّا يدلُّ على أنَّ العطاء والإنفاق من أهمِّ عوامل تزكية النَّفس وتنمية وتثبيت الإيمان، ومن دون ذلك لا يمكن للإنسان أن يتحرَّر من قيود النَّفس الشَّحيحة والبخل والأنانيَّة، وهي من أهمِّ العقبات في طريق البناء والتَّكامل في حياة الإنسان، يقول تعالى: ﴿**فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ * فَكُّ رَقَبَةٍ * أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ * يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ * أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ * ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آَمَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ**﴾[٢].

فمن الممارسات الخاطئة والغفلة عن تحقيق بناء النَّفس وتزكيتها هو التَّشدُّد والالتزام لبعض أحكام الدِّين كالصَّلاة ولكنَّ دون الالتفات إلى الجانب الآخر خصوصًا الجانب الَّذي يتعلَّق بالإنفاق والعطاء لأنَّ ذلك مخالف للهوى ومصلحة الإنسان الذَّاتيَّة. والبعض يتملَّص حتَّى من الالتزامات والواجبات الَّتي تتعلَّق بالحقِّ الماليِّ كالزَّكاة والخمس وسائر الأمور الماليَّة كالإنفاق المستحبِّ وفي سبيل اللَّه، ويتأكَّد هذا الأمر بالنِّسبة للأغنياء والأثرياء، حيث يجدون صعوبة في القيام بهذا الواجب وبهذا الدَّور الإنسانيِّ والاجتماعيِّ، ويحسبون بذلك أنَّهم أفضل من غيرهم في كسب المال وجمع الثَّروات الطَّائلة دون التَّفكير في الحقوق والإحساس بالآخرين. إنَّهم يفكِّرون ويخطِّطون في بناء المشاريع والمستقبل على أساس ماديِّ دون أن يكون للإيمان تأثير في حياتهم، ودون التَّفكير في مشروعيَّة هذا المال من

(١) بحار الأنوار (ط - بيروت)، ج٦٩، ص ٢٥٧.
(٢) سورة البلد، الآية ١١ - ١٧.

حلال أو حرام، وكما يقول الإمام على عليه السلام:

إنَّ من النَّاس لبهيمة في صورة الرَّجل السَّميع المبصر
وتراه فطنًا لكلِّ رزيَّة في ماله وإذا ما أُصيب في دينه لم يشعر[1]

وأحيانًا يتظاهرون بأنَّهم من أهل الخير والصَّلاح، لكنَّ ذلك لا ينفعهم؛ لأنَّ اللَّه لا يُبارك في أموالهم، ولا يحظون بحبِّ النَّاس، كما أنَّهم بسبب أنانيَّتهم وبخلهم يتعرَّضون إلى أنواع من المشاكل النَّفسيَّة والاجتماعيَّة بسبب التَّحوُّلات الاقتصاديَّة والسِّياسيَّة الَّتي تؤثِّر على أوضاعهم الماليَّة، فهم يعيشون الضَّعف في داخلهم، وإن قوَّتهم المادِّيَّة ليست دائمةً لهم، وإن إحساسهم بهذا الضَّعف نابع من فقدانهم الصِّلة مع اللَّه سبحانه قبل كلِّ شيء، وعدم ثقتهم برحمته وفضله، وكذلك صلتهم مع النَّاس. من هنا ورد في الحديث: «البخيل بعيد من اللَّه، بعيد من الجنَّة، بعيد من النَّاس»[2].

وفي الحقيقة، إنَّ الغنى والفقر وجهتان لحقيقة واحدة هي الابتلاء والاختبار، وإن غياب هذه الفلسفة والحكمة أساس تفسير الحياة والارتباط بها على أساس مادِّيّ، فهم يشعرون بالسَّعادة عند الغنى، ويفتقدون هذه السَّعادة عند زوالها والتَّعرُّض لأزمات في طريق تحصيلها، لكنَّ ذلك مخالف إلى الحقيقة الرَّبَّانيَّة والتَّوجيهات القرآنيَّة، ونتيجة لحبِّ الذَّات والأنانيَّة والبخل، يقول تعالى: ﴿**فَأَمَّا الْإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ * وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ * كَلَّا بَل لَا تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ * وَلَا تَحَاضُّونَ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ * وَتَأْكُلُونَ التُّرَاثَ أَكْلًا**

(١) من الديوان المنسوب للإمام علي عليه السلام.
(٢) بحار الأنوار (ط - بيروت)، ج٦٨، ص ٣٥٢.

لَمًّا * وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا﴾[١]. والبخل عند الإنسان في الأساس هو نتيجة لعدم الثِّقة باللَّه وبرزقه وقيمومته للحياة ونواميسها وسننها، يقول علي عليه السلام: «منَّ أيقن بالخلف جادّ بالعطيَّة»[٢]؛ ولذا يعتبر البخل من أقبح الصِّفات، ففي الحديث: «البخل جامع لمساوئ العيوب»[٣].

وشهر رمضان فرصة لتغيير النَّفس وتزكيتها من خلال الإنفاق. والإحساس بالجوع والعطش ينبغي أن يؤدِّي إلى الإحساس بحاجة الآخرين، والأهم إحساس الإنسان بذلك اليوم وهو يوم القيامة الَّذي يحتاج فيه الإنسان إلى الأعمال الصَّالحة والثَّواب العظيم نتيجة ما يقوم به الإنسان في الحياة.

إنَّ الانفتاح في هذا الشَّهر على كرم اللَّه ورحمته وفضله من أهمِّ القيم والآداب الَّتي يتربَّى عليها الإنسان في هذا الشَّهر، وأن يمارس الإنسان هذه العمليَّة التَّربويَّة والتَّزكية حسب قدرته وسعته، يقول تعالى: ﴿**لِيُنْفِقْ ذُو سَعَةٍ مِنْ سَعَتِهِ وَمَنْ قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنْفِقْ مِمَّا آَتَاهُ اللَّهُ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَا آَتَاهَا سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا**﴾[٤].

ولقد أوصانا الرَّسول الأكرم صلى الله عليه وآله في هذا الشَّهر أن نتصدَّق ولو بشقِّ تمرة وليس بتمرة كاملة. إنَّ هذا الدَّرس كافٍ في تحقيق البناء الإنسانيِّ والارتقاء إلى رحاب الإيمان والمؤمنين الصَّادقين الَّذين قال في وصفهم البارئ: ﴿**وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا**

(١) سورة الفجر، الآية ١٥ – ٢٠.
(٢) نهج البلاغة، ص ٤٩٤.
(٣) نهج البلاغة، ص ٥٤٣.
(٤) سورة الطَّلاق، الآية ٧.

يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾[١]، فالإنفاق والعطاء مؤشِّر صادق على الالتزام والوعي. كما ينبغي الاقتداء بالمعصومين وأهل بيت العترة والطَّهارة الَّذين ذكرهم القرآن ومجدهم، فهم قدوة ونموذج للخير والعطاء، ومدرسة في الإيثار والتَّضحية، حيث يقول تعالى في حقِّهم: ﴿**وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا * إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا**﴾[٢]، وفي دعاء شعبان: «وارزقني مواساةً من قتَّرت عليه من رزقك بما وسَّعت عليَّ من فضلك ونشرت عليَّ من عدلك وأحيني تحت ظلِّك»[٣].

أخيرًا، إنَّ قيمة العطاء في أيِّ مجتمع هي الَّتي تُبرز قدرته على مواجهة المشاكل والتَّحدِّيات والقضاء على السَّلبيَّات، وكذلك إنَّ ممارسة هذا الدَّور يساهم بشكل حقيقيّ في إيجاد الحلول والإمكانات الكثيرة الَّتي يحتاجها النَّاس، فهي مؤشِّر حضاريّ على إرادة المجتمع على التَّقدُّم والتَّغيير وتجاوز العقبات وليس بالشِّعارات.

وهنا نذكر بعض الاهتمامات الاجتماعية التي ذُكرت في الخطبة:

التربية والتنشئة الاجتماعية:

«ووقِّروا كباركم، وارحموا صغراكم»[٤].

(١) سورة الحشر، الآية ٩.
(٢) سورة الإنسان، الآية ٨ – ٩.
(٣) مصباح المتهجد وسلاح المتعبد، ج٢، ص ٨٢٩.
(٤) الأمالي، الصدوق، ص ٩٤.

من أهمِّ الأبعاد التَّربويَّة يمكن أن نستفيدها من خلال هذا الشَّهر، والَّتي أكَّدت عليها الخطبة، هي التَّربية التَّنشئة الاجتماعيَّة، فما هو المقصود منها؟

التَّربية الاجتماعيَّة تقوم على أسس ثلاثة:

١- التَّربية الدِّينيَّة المنفتحة والواعية، من خلال الالتزام بالعبادات الجماعيَّة كصلاة الجمعة والجماعة والعيدين والإتيان بالصَّلوات في المساجد وبقيَّة الآداب الإسلاميَّة.

٢- غرس القيم البنَّاءة والخلَّاقة بالتَّأكيد على قيم الخير والفضيلة والتَّنافس مثل التَّواضع والاحترام والتَّنافس على العلم والتَّقوى.

٣- غرس الطُّموح والأهداف النَّبيلة، ففي الرِّواية: «وإن كنتم حقًّا متنافسين فتنافسوا على الخصال الرَّغيبة»[١]، وآخر: «ليس الخير أن يكثر مالك وولدك، ولكنَّ الخير أن يكثر علمك وأن يعظم حلمك»[٢].

ويتمَّ بالتَّركيز على الأدوار المهمَّة والَّتي تعود بالنَّفع على الإنسان والمجتمع، والأهم أنَّ كلَّ الأدوار لا تنفصل عن أخلاقيَّاتها وأهدافها النَّبيلة مهما كانت، فحينما يريد الإنسان أن يكون مهندسًا فلنسأله: ما هو الهدف من هذا الاختيار، هل الرَّاتب أمَّ الرَّغبة الشَّخصيَّة فقط؟ والطَّبيب نسأله عن سبب اختياره، هل هو خدمة المرضى وضمان جيل يتمتَّع بالصِّحَّة والعافية، أم هناك أغراض أخرى؟ وطالب الدِّين ما هو هدفه، هل الشُّهرة وكثرة النَّعل من خلفه أو المباهاة... أمّ أنَّ العلم رسالة حضاريَّة وإنقاذ للبشريَّة من الضَّلال؟

(١) ميزان الحكمة.
(٢) نهج البلاغة، ص ٤٨٤.

وهكذا كلَّما كانت الطُّموحات عاليةً وساميةً ومؤثِّرةً وقياديَّةً لا بدَّ من تأكيد الأهداف الاجتماعيَّة، فحينما يكون العلم للعلم، أو يكون لأغراض دنيويَّة، فإنَّه يفقد رسالته ويصبح وبالًا على الإنسان كما قيل: «العلم سلاح ذو حدَّين أمّا يبلغ بك مصافَّ الأنبياء أو تهبط به إلى أسفل سافلين»، وحينما يكون العلم رسالةً حقيقيَّةً في المجتمع يصبح «مداد العلماء أفضل من دماء الشُّهداء» ولا ينبغي التَّقليل من قيمة الأدوار والوظائف والمهامِّ حينما تهدف إلى صقل شخصيَّة الإنسان، وتعكس أهدافه النَّبيلة في الحياة والمجتمع.

إنَّ التَّأكيد على قضيَّة احترام العلاقات الإنسانيَّة في المجتمع إنَّما ينشأ من خلال وعي هذه الأسس وتكريسها في حياة الأبناء حتَّى يشبُّوا عليها، وهنا يأتي دور الأسرة أوَّلًا؛ لأنَّ الأبوين يمثِّلان القدوة الأولى في حياتهم، ثمَّ المدرسة والأصدقاء والتَّوعية الاجتماعيَّة.

ومن الأخطاء فرض الاحترام والسُّلوكيَّات والقيم بالقوَّة والتَّخويف، فكثير من الآباء والمعلِّمين يفرضون شخصيَّاتهم بالقوَّة والتَّرهيب، والأسوأ في هذا التَّوجيه والأساليب أنَّها خالية من الوعي والمضمون والأهداف الاجتماعيَّة، فكيف يا ترى حينما تكون هذه الأرضيَّة الَّتي ينشأ عليها الأولاد؟ ومن الأمثلة نجد بعض الآباء يأمر ويصرخ على أبنائه أمام أصدقائه وضيوفه دون أسلوب واحترام. فهذا السُّلوك لا يمكن أن يُنشئ الأولاد على أسس صحيحة، أو يعالج المشاكل والسَّلبيَّات في شخصيَّاتهم وسلوكهم، إلَّا إذا كان الاستبداد والقمع سياسةً حكيمةً أو تربَّينا عليها ولسان حالنا يقول: ﴿بَلْ

﴿وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ﴾[١].

من هنا يؤكِّد الإسلام على دور الأسرة في غرس القيم الصَّحيحة، يقول الرَّسول ﷺ: «برُّوا أبناءكم يبرُّوكم»، أيُّ نتيجة طبيعيَّة وثمرة للتَّربية الصَّالحة. ولكن الكثير من الآباء يُلقون بالتُّهم والسَّلبيَّات في سلَّة الأبناء. ونجد في العصر الحاضر كيف أنَّ جيلًا بكامله يصبح محطَّ العيوب والتُّهم والتَّساؤلات والحديث عن السَّلبيَّات، بينما نحن من تسبَّب ولو بجزء وساهمنا في هذا البناء الهشِّ.

وفي حديث آخر تأكيد على القدوة والتَّواضع في أجواء الأسرة وليس فقط في الشَّارع ومع النَّاس، يقول ﷺ في وصيَّته للآباء: «من لم يكن صبيًّا فليتصابى». وفي القرآن نجد وصيَّة لقمان لابنه مشبعة بالقيم الاجتماعيَّة والمضامين الحياتيَّة والأهداف السَّاميَّة، نقتبس منها بعض الجوانب في التَّواضع والصَّبر والعزَّة والالتزام بالعبادات: ﴿**يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلَاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ * وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ * وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ**﴾[٢]. ونجد في خطبة الإمام علي عليه السلام إلى ولديه الحسن والحسين عليهما السلام في شهر رمضان المناهج التَّربويَّة في جميع جوانب الحياة الشَّخصيَّة والاجتماعيَّة والسِّياسيَّة والأخلاقيَّة، فبعد أن يؤكِّد على الأسس التَّربويَّة في شخصيَّة القيادة الَّتي تتمثَّل في الإمامين حيث يقول: «أوصيكما

(١) سورة الشُّعراء، الآية ٧٤.
(٢) سورة لقمان، الآية ١٧ - ١٩.

بتقوى اللَّه، وأَلَّا تبغيا الدُّنيا وإن بغتكما، ولا تأسفا على شيء زُوِي عنكما، وقولا بالحقَّ، وأعملا للأجر، وكونا للظَّالم خصمًا، وللمظلوم عونًا»[1]، فنجد الإمام ركَّز في هذا البعد القياديِّ على:

١- التقوى كأساس للبناء والزاد في الدنيا.
٢- الالتزام بالمبدأ والاستقامة، وليس البحث عن المصالح الشخصية «وقولا بالحق، واعملا للأجر» أي الثواب.
٣- العدل فهو أساس الحكم، والعدل يؤسِّس للحرِّيَّة الصَّحيحة؛ لأنَّ النَّاس متساوون في القانون «وكونا للظَّالم خصمًا وللمظلوم عونًا».

ثمَّ يتحدَّث الإمام عليه السلام عن وصاياه العامَّة لولديه وأهل بيته والنَّاس وكلُّ الأجيال المتعاقبة: «أوصيكما وأهل بيتي ومن بلغه كتابيّ هذا»، وفيها تأكيد على كلِّ الجوانب والمضامين الحيويَّة، منها: الصَّلاة، والمساجد، والجار، والتَّصدُّق على الفقراء والأيتام، والجهاد بالأموال والأنفس، والأمر بالمعروف والنَّهي عن المنكر، (راجع الخطبة في نهج البلاغة).

أمَّا الوصيَّة الأخرى فهي لابنه الإمام الحسن عليه السلام والَّتي زخرت بالمعاني والمُثُل والقيم والدُّروس حيث يعجز الإنسان أن يتناولها بالشَّرح والتَّطبيق، لكن نقتطف بعض الجوانب الَّتي تتَّصل بموضوع التَّنشئة:

١- نقل التجربة:

لا بدَّ من الحديث مع الأبناء عن التَّجربة الأبويَّة والخبرة الحياتيَّة. وفي وصيَّة الإمام علي عليه السلام لابنه الحسن عليه السلام يقول: «أيَّ بني، إنِّي لما رأيتني

(١) مكاتيب الأئمة عليهم السلام، ج٢، ص ٢٥٥.

قد بلغت سنًّا، ورأيتني أزداد وهنًا بادرت بوصيَّتي إليك، وأوردت خصالًا منها قبل أن يعجل بي أجلي دون أن أُفضي إليك بما في نفسيّ، أو أن أنقص في رأيي كما نقصت في جسمي، أو يسبقني إليك بعض غلبات الهوى وفتن الدُّنيا فتكون كالصَّعب النَّفور»[1].

فلا ينبغي أن يبخل الأب عن هذا الحديث لأنَّه الأساس في تكوين معالمهم وفتح آفاقهم وأرضيَّة لانطلاقهم، فليس من الصَّحيح أن يعتمد الأبناء على أنفسهم في المرحلة الأولى، ويبدؤون من الصِّفر، بل هي حقّ إنسانيّ ودينيّ.

٢- الأبناء أرضية صالحة لغرس القيم:

فمن الخطأ الفادح حينما نتصوَّر أنَّ الأبناء ليسوا مؤهَّلين لتلقِّي المفاهيم والدُّروس الحياتيَّة المختلفة بحكم سنِّهم، وعلى القاعدة الخاطئة ما زالوا: صغارًا، جهالًا... وإنَّما القاعدة الصَّحيحة في المجال هي: «إنكم صغار قوم ويوشك أن تكونوا كبار قوم آخرين»[2]، وكما قال الإمام علي عليه السلام في الأبيات المنسوبة إليه:

ورب كبير القوم لا علم عنده صغير إذا التفَّت عليه المحافل

وقد أشار الإمام عليه السلام في خطبته إلى هذه الأهمِّيَّة: «وإنَّما قلب الحدث كالأرض الخالية ما أُلقي فيها من شيء قبلته».

(١) نهج البلاغة، ص ٣٩٣.
(٢) بحار الأنوار (ط - بيروت)، ج٢، ص ١٥٢.

٣- وبناء على ذلك يجب المبادرة في التوجيه:

فحينما يكبر الإنسان وتنقطع مراحل من حياته ويصبح شابًّا يافعًا قد يكون من الصَّعب إقناعه؛ لأنَّه قد فتح عينه على الكثير من المجالات وتلقَّى الدُّروس والتَّدريبات، وبهذه التَّأثيرات فإنَّ الكبر عامل من عوامل الجمود والصَّلابة والقسوة كما أشار إلى ذلك القرآن: ﴿**أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آَمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ**﴾[1]، وكما قيل: «العلم في الصِّغر كالنَّقش على الحجر»، من هنا يؤكِّد الإمام عليه السلام المبادرة حتَّى لا يصبح الولد كالصَّعب النَّفور. يقول الإمام عليه السلام في نفس الوصية للحسن عليه السلام: «فبادرتك بالأدب قبل أن يقسو قلبك أو يشتغل لبُّك».

ومن هذا المنطلق هنا واجبات على الأسرة والوالدين بشكل خاصّ اتِّجاه الأبناء:

أ- التَّفرُّغ وتقديم الوقت المثاليِّ لغرس هذه القيم وهذه مسؤوليَّة وحقّ للأبناء وليس وقتًا مستقطعًا من عمر الإنسان الخاصِّ، ففي الحديث: «حقَّ الأبناء على الآباء ثلاث: أن يحسن اسمه، وأن يحسن تربيته، ويعلمه القرآن»، وكذلك: «كلّكم راعٍ، وكلُّ راع مسؤول عن رعيَّته».

ب- التَّدرُّج في التَّوجيه والتَّربية، فالإنسان لا يتحمَّل أكثر ممَّا يطيق، وكذلك هو الطِّفل، والمهمَّ هو إعداده لكلِّ مرحلة هو مقبل عليها، فالبلوغ مرحلة للتَّكليف، فينبغي الاهتمام بما يجب عليه من العبادات والطَّهارات

(١) سورة الحديد، الآية ١٦.

لأنَّها من العبادات الدَّائمة والملازمة للحياة ولكلِّ الأوقات والصِّيام والحجِّ وهكذا.

وبسبب ذلك نجد المشكلات التَّربويَّة الَّتي تفقد دورها الصَّحيح في توجيه الأبناء في كثير من الحالات الَّتي نعيشها، سواءً كانت دينيَّةً أسريَّةً وظيفيَّةً وإداريَّةً.

ونجد القلَّة في مجتمعاتنا من يلتزم هذه السِّياسة التَّربويَّة حتَّى في أوساط أهل الفهم مع التَّفاوت، والأكثر بين إفراط وتفريط.

وهنا نرجع إلى وصيَّة الإمام عليه السلام لابنه الحسن عليه السلام ويقول: «ورأيت حيث عناني من أمرك ما يعني الوالد الشَّفيق، وأجمعت عليه من أدبك أن يكون ذلك وأنت مقبل العمر ومقتبل الدَّهر، ذو نيَّة سليمة ونفس صافية، وأن أبتدئك بتعليم كتاب اللَّه وتأويله، وشرائع الإسلام وأحكامه وحلاله وحرامه، لا أجاوز ذلك بك إلى غيره»[1].

وأحيانًا يتطلَّب الأمر أسلوب الخشونة، أي تحمُّل الصِّعاب أو في نمط العيش؛ لأنَّ ذلك قد يكون مفيدًا ومطلوبًا في حالات.

والإمام علي عليه السلام يضرب لنا مثلًا فيقول: «ألا وإنَّ الشَّجرة البرِّيَّة أصلب عودًا، والرواتع الخضرة أرق جلودًا، والنباتات البرية أقوى وقودًا وابطأ خمودًا»[2] كالنَّباتات المنزليَّة الَّتي يعتني بها. ويقول أبو ذرٍّ رضوان اللَّه عليه: «ما خيَّرت بين أمرين إلَّا واخترت أشدَّهما على نفسي». لكن يجب

(١) نهج البلاغة، ص ٣٩٤.
(٢) نهج البلاغة، ص ٤١٨. شرح نهج البلاغة، ابن أبي الحديد، ج١٦، ص٢٨٩.

المراعاة في المراحل الابتدائيَّة من عمر الإنسان لبعدهم عن الاستيعاب وعدم النُّفور والأبعاد.

٤- الاعتدال في التربية والتأثير:

فخير الأمور أوسطها، والوسطيَّة هي الحقُّ بين الضَّلال ﴿**فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ**﴾(١)، وهذا هو منهج الإسلام في كلِّ شيء، فلا خير في الغلوِّ والتَّطرُّف والامتهان. والأمَّة الإسلاميَّة هي أولى بتطبيق هذا النَّهج الرَّبَّانيِّ في كلِّ شيء حتَّى تصبح مصداقًا للحقِّ الَّذي قال: ﴿**وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا**﴾(٢)، والشَّهادة في الآية أي القدوة والبلاغ، ولذلك يجب تبنِّي الآباء سياسة الاعتدال والتَّدرُّج في التَّربية.

دعاء الإمام زين العابدين لوالديه:

ونجد في دعاء الإمام عليه السلام لوالديه في الصَّحيفة السَّجاديَّة تجسيدًا لتلك العلاقة المثاليَّة الإسلاميَّة للأبناء اتِّجاه الآباء وفي جميع المجالات الاجتماعيَّة، وهي نتيجة طبيعيَّة للتَّربية الصَّحيحة وثمرة لها، فالإمام عليه السلام تربَّى في البيت النَّبويِّ الَّذي لا يُضاهيه شيء، وفي الأسرة العلويَّة الَّتي لا يدنوها فضل، وتخرَّج من المدرسة الَّتي حوت كلَّ العلوم والفضائل والكمال، فهو بحقِّ الثَّمرة من تلك الشَّجرة.

فتعالوا نقتبس من هذا الدعاء بعض الفقرات الَّتي تجسِّد الخُلق النَّبويَّ

(١) سورة يونس، الآية ٣٢.
(٢) سورة البقرة، الآية ١٤٣.

الرَّفيع، والنَّهج العلويَّ الصَّادق، والتُّرجمان القرآنيَّ الواضح. فنجد من هذه الفقرات تلك العلاقة المثاليَّة تجاه الآباء، يقول الإمام عليه السلام: «اللَّهُمَّ اجْعَلْنِي أَهَابُهُمَا هَيْبَةَ السُّلْطَانِ الْعَسُوفِ، وَأَبَرُّهُمَا بِرَّ الْأُمِّ الرَّؤُوفِ، وَاجْعَلْ طَاعَتِي لِوَالِدَيَّ وَبِرِّي بِهِمَا أَقَرَّ لِعَيْنِي مِنْ رَقْدَةِ الْوَسْنَانِ، وَأَثْلَجَ لِصَدْرِي مِنْ شَرْبَةِ الظَّمْآنِ حَتَّى أُوثِرَ عَلَى هَوَايَ هَوَاهُمَا»[1]، وفي الجانب الآخر نجده يجسِّد الأخلاقيَّات العالية في الحياة ومع النَّاس، نجد روعة الرُّوح وجمال الخلق ورفعة المنزلة الَّتي يتحلَّى بها الإمام عليه السلام في كلِّ العلاقات والرَّوابط الإنسانيَّة والاجتماعيَّة، نقتطف شيئًا منها: «اللهمّ صلِّ على محمَّد وآل محمَّد، وأبدلني من بغضة أهل الشَّنآن المحبَّة، ومن حسد أهل البغي المودَّة، ومن ظِنَّة أهل الصَّلاح الثِّقة، ومن عداوة الأدنين الولاية، ومن عقوق ذوي الأرحام المبرَّة، ومن خذلان الأقربين النُّصرة، ومن حبِّ المُدارين تصحيح المِقَة، ومن ردِّ المُلابسين كرم العشرة، ومن مرارة خوف الظَّالمين حلاوة الأمنة»[2]. أمَّا ما جاء في رسالة الحقوق للإمام عليه السلام فهو يمثّل نهجًا تأصيليًّا للدِّين والقيم والأخلاق والأعراف.

وفي الخطبة أيضًا: «وصلوا أرحامكم»، وفي خطبة الإمام علي عليه السلام في شهر رمضان: «وعليكم بالتراحم والتواصل، وإياكم والتقاطع والتدابر».

ونتساءل في هذا الشأن: ما هو سبب القطيعة مع الناس خصوصًا مع ذوي الأرحام؟

---

(١) الصحيفة السجادية، ص ١١٦، (دعاء الإمام زين العابدين عليه السلام لأبويه).
(٢) الصحيفة السجادية، ص ٩٤.

هناك ثلاثة عوامل أشد تأثيرًا للقطيعة عند أغلب الناس وهي:

١- النزاعات في الأمور المالية كالإرث مثلا.
٢- التعصب لوجهات النظر المختلفة.
٣- سوء الأخلاق مع الناس.

ونجد أن هذه الأمور تقع بشكل كبير ومن الصعب انفكاكها عن حياة الناس، والسبب الأساسي هو غياب المرجعية الدينية (أي الوعي بمفاهيم الدين وقيمه ومبادئه وسيادتها في الحياة). ولكن ما هو العلاج لهذه المشاكل الحياتية؟ ولماذا تبقى عالقة في العقول وتُعشِّش في النفوس لتُشكِّل حاجزًا سميكًا وسدًّا منيعًا عن قيام علاقات إنسانية رحبة وروابط دينية أخوية وتواصل حضاري بين الناس؟ والسؤال الآخر: كيف يمكن أن ننهض بمجتمع وهو يختزل عوامل الشرور والضعف و التفكُّك في داخله؟

لا شك أنَّ استئصال جذور هذه المشاكل لا يتمُّ إلَّا بالعودة إلى الدِّين والمفاهيم السَّامية للحياة، والَّتي تركِّز على الاستجابة الفعليَّة والأخذ بتعاليم الإسلام الَّذي يقود البشريَّة إلى رحاب الإيمان والتَّقوى وأسس الحياة الإنسانيَّة من العلم والفضيلة والمساواة والحرِّيَّة. وقد فاض القرآن بذكر هذه القيم والتَّعاليم وحثَّ البشريَّة على الالتزام بها وإلَّا تعرَّضت إلى صنوف من المشاكل وفقدان السَّعادة والاستقرار، ولا يكتفي القرآن بالتَّوجيهات العامَّة للنَّاس للأخذ بهذه التَّعاليم، بل يُقرِّر لهم سبل السَّلام وطرق الالتزام وفضِّ النِّزاعات لتبقى عُرى الرَّوابط وثيقةً لا تخضع للتَّأثيرات والأهواء والعواطف الَّتي يجنح لها البشر، والَّتي تُفضي إلى النِّزاعات والصِّراعات. يقول تعالى: ﴿**يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ**

﴿بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾[١]. ومثال على ذلك يقرِّر تعالى في المعاملات المادِّيَّة -وهي مسألة الدَّين، وهي من أهمِّ المسائل الَّتي يحتاجها النَّاس بينهم- أن تخضع إلى موازين الشَّرع. وآية الدَّين هي من أكبر الآيات في القرآن لأهمِّيَّتها، ولأن الديون سبب لكثير من النِّزاعات. فبسبب غياب هذا النَّهج الرَّبَّانيِّ الأصيل على كلِّ المستويات فقدت الأمَّة والمجتمعات الإنسانيَّة أهمَّ الدَّعائم في حياتها، لتسودها أحكام باطلة وأهواء مضلَّة وفوضى عارمة. فما أحوج الأمَّة اليوم -من أجل استرداد هويَّتها وكيانها وروابطها الإنسانيَّة والإيمانيَّة- أن تعود إلى رشدها، وتتطلَّع نحو أفق جديد يغيِّر مسارها، ويمنحها القوَّة والمناعة ضدَّ كلِّ التَّأثيرات والاختلافات والصِّراعات الَّتي تنشأ بسبب انحرافها وعدم التزامها. وهل نجد ثقافة حيويَّة شاملة تساهم في رقِّي المجتمعات وتعالج المشكلات في الحياة أفضل من ثقافة الإسلام؟

إنَّ بصيصًا من هذه الثَّقافة الإنسانيَّة والحضاريَّة يدفعنا للتَّأمُّل في طبيعة واقعنا الاجتماعيِّ وطبيعة علاقتنا مع الآخرين سواء من الأقرباء والآخرين ممَّن يختلفون معنا أو يقفون ضدّنا، وكيف نمنح أنفسنا الإرادة لتحقيق ما هو أفضل سواء على صعيد المجتمع أو العالم الآخر.

الأخلاق الإسلاميَّة وقوَّة التَّأثير وتأثير العلاقة:

والأخلاق الإسلاميَّة مصدر للقوَّة في التَّأثير في العلاقات والرَّوابط الإنسانيَّة، وزخم يُغذِّي الرُّوح بالمعاني السَّاميَّة، فلا يكتفي الإسلام بالحثِّ

(١) سورة المائدة، الآية ١٦.

على التَّرابط والتَّواصل والتَّراحم بين النَّاس، ولكن أيضًا يقودهم لقوَّة التَّأثير في تكوين هذه الرَّوابط الاجتماعيَّة والحفاظ عليها من خلال المبادرة والقدوة وحسن المقابلة والتَّسامح، وهي القوَّة الجاذبيَّة لقوَّة تأثيرها في النُّفوس وأسر العقول وتأليف القلوب، يقول تعالى: ﴿**وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ أُولَئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ**﴾[١]، ﴿**وَلاَ تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلاَ السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ**﴾[٢]، وفي الحديث عن الرَّسول صلى الله عليه وآله: «صل من قطعك، وأعطِ من حرمك، واعفُ عمَّن ظلمك»[٣]. وفي آخر عن الإمام الباقر عليه السلام: «ما من مؤمنين اهتجرا فوق ثلاث إلَّا برئتُ منهما في الثَّالثة، فقيل له: يا ابن رسول اللَّه، هذا حال الظَّالم فما بال المظلوم؟ فقال عليه السلام: وما بال المظلوم لا يصير إلى الظَّالم فيقول: أنا الظَّالم حتَّى يصطلحا»[٤].

أمَّا الحديث عن آثار هذه القوَّة والجاذبيَّة من المواقف والقصص خصوصًا في حياة المعصومين عليهم السلام فكثيرة، وكان لها الأثر العظيم في النُّفوس والهداية والتَّحوُّلات الشَّخصيَّة والحياتيَّة، نذكر بعض منها للمثال:

١ - الإمام الباقر عليه السلام والنصراني:

أراد رجل نصرانيّ أن يستهزئ بالإمام محمَّد بن علي بن الحسين عليه السلام

(١) سورة الرَّعد، الآية ٢٢.
(٢) سورة فصلت، الآية ٣٤.
(٣) الأصول الستة عشر (ط - دار الشبستري)، ص ٧٧.
(٤) الخصال، ج١، ص ١٨٣.

الملقَّب (بالباقر) فقال له: أنت بقر، أجابه الباقر: لا، أنا الباقر، فمضى النَّصرانيُّ يمعن باستخفافه فقال: أنت ابن الطَّبَّاخة، فقال الإمام: تلك هي حرفتها، أنت بن السَّوداء الزِّنجيَّة البذيئة، فأجابه الإمام: إنَّ كنت صدقت غفر اللَّه لها، وإن كنت كذبت غفر اللَّه لك. ثمَّ أسلم[١].

٢- شتم رجل الإمام زين العابدين عليه السلام فقصده غلمانه فقال: دعوه، ثمَّ قال للرَّجل: ألك حاجة؟ فخجل الرَّجل، ثمَّ أعطاه ثوبًا وأمر له بألف درهم، فانصرف الرَّجل وهو يقول: أشهد أنَّك ابن رسول اللَّه صلى الله عليه وآله [٢].

٣- مالك الاشتر:

كان مالك ضخم الجثَّة طويل القامة يرتدي قميصًا وعِمَّة، وقد طبعت الحرب أثرها على حياته وقسمات وجهه، وبينما كان يمشي ذات يوم في سوق الكوفة وإذا بأحد السُّوَقة تُحدِّثه نفسه بالازدراء به والاستهزاء بزيِّه فرماه ببندقة، ولم يلتفت إليه الاشتر وواصل السَّير حتَّى توارى عن الأنظار، عندها قيل للسُّوقيِّ: ويحك، أتعرف من رميت؟ لا لم أعرفه عابر مثل غيره. إنَّه مالك الاشتر النَّخعي صاحب أمير المؤمنين عليه السلام وقائد جيشه، فقال السُّوقيّ: أهذا هو مالك الَّذي ترتعد فرائص الأسد خوفًا منه ويرتجف العدوّ من اسمه؟ نعم هو بعينه. فهرول الرَّجل من ساعته راكضًا خلف مالك ليعتذر إليه عمَّا بدر منه، إلَّا أنَّ مالكًا قد دخل أحد المساجد، فلمَّا وصل الرَّجل وجده قائمًا يصلِّي، فلمَّا انتهى من صلاته انكبَّ الرَّجل على قدميه يقبلهما،

(١)البحار، ج ١١، ص ٨٣، من كتاب قصص الأبرار للشَّهيد مطهّري.
(٢) سبط ابن الجوزي، تذكرة الخواصِّ (مؤسّسة البلاغ)، من كتاب سير رسول اللَّه وأهل بيته.

فقال له مالك: ما هذا؟ فقال: اعتذر إليك عمَّا صدر منِّي، أنا الَّذي استهزأت بك وتجرَّأت عليك، فقال له: لا بأس عليك، فواللَّهِ ما دخلت المسجد إلَّا لأستغفر لك[1].

وشهر رمضان محطَّة لإشباع الرُّوح بهذه القيم وبنائها بالأخلاق العالية، فرمضان مدرسة تربويَّة متكاملة، فهو بحقّ انطلاقة تتجدَّد في كلِّ عام، وإن ما فيه من الخير والبركة والتَّرغيب في الثَّواب ومضاعفة الأعمال وقبولها يبعث الإنسان على تفعيل هذه القيم الاجتماعيَّة لتساهم في التَّغيير والتَّحوُّلات المأمولة.

(١) سفينة البحار، مادة شتر، ص ٦٨٦، من كتاب قصص الأبرار للشَّهيد مطهّري.

ثالثًا: مفهوم التقوى في القرآن

إنَّ التَّقوى هي الحصيلة النِّهائيَّة من كلِّ التَّشريعات والتَّكليفات بما فيها تشريع الصَّوم في شهر رمضان الكريم، وهذا يدفعنا للتَّعريف بالتَّقوى وأهمِّيَّتها سواء في شهر رمضان أو في بقيَّة المشاريع والتَّكاليف والتَّوجيهات، فقد يظنُّ البعض أنَّ التَّقوى هي الورع والخوف من اللَّه، أو الإتيان بالعبادات والطَّاعات والقربات المعروفة والبعد عن المعاصي، فهذا صحيح في الجملة، ولكن قد يعكس ذلك حالةً من السَّلبيَّة، وهو الحذر والالتزام الصَّارم، ممَّا يفقد الرَّاحة النَّفسيَّة وكذلك الحيويَّة في كلِّ الأبعاد والمسؤوليَّات والانفتاح على كلِّ المعطيات الَّتي سخَّرها اللَّه للإنسان.

وقد نرى بعضًا ممَّن يتَّصفون بهذه الحالة يعيشون العزلة، أو يسلكون طرقًا وعادات غير مألوفة وغير متناسقة مع النَّسيج الاجتماعيِّ.

من هنا نحن بحاجة للتَّعرُّف على حقيقة التَّقوى ومفهومها وأبعادها الحيويَّة. فالأصل اللُّغويُّ هو الوقاية، والوقاية من النَّار والعذاب، فالتقوى من اللَّه أي من عذابه، وهو ما يبرِّر الخوف من اللَّه؛ لأنَّ اللَّه رحيم بالعباد ولا يظلم أحدًا. إن العدالة والرَّحمة الإلهيَّة هي الأصل في تحديد العلاقة بين العبد وربِّه، من هنا ينشأ الحبُّ والاطمئنان، قال تعالى: ﴿**أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ**

الْقُلُوبُ﴾[١]، فالقلب المملوء بالحبِّ والإيمان يكون مستقرًّا وثابتًا ويتمتَّع بالحويَّة والنَّشاط وليس الخمول أو العزوف عن الحلال أو كلِّ ما سخَّره اللَّه للإنسان. نعم، يجب الحذر من الوقوع في الحرام والمعصية، لكن هناك بابًا فتحه اللَّه لعباده وهو التَّوبة، فإذا كانت التَّوبة نصوحًا فهي مقبولة، والنصوح بأَلَّا يتهاون الإنسان في المعصية ولا تتكرَّر، ويطلب من اللَّه المغفرة، أمَّا حالة الحزن أو الخوف المبالغ فيه الَّذي يمنع المؤمن من استعادة نشاطه وحيوته وإقباله على الحياة فهذا غير مطلوب.

إنَّ رحمة اللَّه واسعة، ممَّا يكرِّس في الإنسان الشُّعور بالأمل والاطمئنان، ويغلب حالة الانكفاء والحزن الشَّديد، لما له من أثر سلبيّ على حالة الإنسان وتوازنه. ومن هذه الرَّحمة الَّتي يشير إليها القرآن في قوله: ﴿**قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ**﴾[٢]، فهذه الآية المباركة تفتح أبوابًا واسعة ورحبة في صياغة العلاقة الإيجابيَّة بين العبد وخالقه، نشير إلى بعضها:

١- إنَّ الخطاب موجَّه من الخالق إلى الرَّسول ﷺ، بما هو يفيد البشارة والأمل بالرَّحمة الإلهيَّة إلى العباد والاطمئنان، خصوصًا للعصاة والمسرفين في الذُّنوب والآثام، فكيف بحال المؤمنين الصَّادقين والملتزمين بشرع اللَّه.

(١) سورة الرعد، الآية ٢٨.
(٢) سورة الزمر، الآية ٥٣.

٢- ومن تجلِّيات هذه الرَّحمة الإلهيَّة أنَّ الخطاب يبدأ بصيغة ﴿**يَا عِبَادِيَ**﴾، فالخلق عيال اللَّه مهما ابتعدوا عن وتخلَّوا عن زيِّ العبوديَّة، فهو يحمل ويتضمَّن الرَّأفة بحال الخلق والعاصين بالخصوص، وبأنَّهم يستحقُّون التَّوبة والعودة، مهما كانت الأسباب أو المعاصي وكثرتها، المهمَّ هو تبنِّي قرار التَّوبة والعودة من الإنسان والعبد. ومن هنا ليس من الصَّحيح الوقوف أمام العاصين والمذنبين بوجه من الوجوه تمنع من التَّوبة، بأن تشعرهم باليأس أو النُّفور.

وهذا يؤسِّس إلى أهمِّيَّة الخطاب والأساليب في الدَّعوة إلى اللَّه، بأن يكون الخطاب مبنيًّا على أساس التَّأثير الإيجابيِّ، وهو تأصيل الرَّحمة وليس العكس بأن يكون خشنًا ومنفِّرًا وقاسيًا. فكثير من العصاة والمنحرفين يزدادون غيًّا وتماديًا واستمرارًا في انحرافهم وعاداتهم بسبب عدم وجود التَّوجيه الصَّحيح والرِّعاية الكافية والأساليب النَّاجعة، مثل من يدَّعون بأنَّهم حماة الإسلام والعقيدة من العلماء لكنَّهم لا يلتزمون بالأخلاقيَّات والأساليب الحسنة في التَّبليغ والإرشاد؛ ولذلك نجد الخطاب من اللَّه للرَّسول ﷺ وهو المثل الأعلى والقدوة في كلِّ الأمور، وفي الدَّعوة بالخصوص ﴿**فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ**﴾[1]، فأساس وأسلوب الدَّعوة هو اللِّين، أمَّا الحزم فيكون في حالات استثنائيَّة تراعي المصلحة والظُّروف.

وهنا يؤكِّد القرآن على المبدأ العامِّ في هداية النَّاس والتَّأثير فيهم، قال

(١) سورة آل عمران، الآية ١٥٩.

تعالى: ﴿**ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ**﴾[1]، فهنا تقديم للحكمة قبل الموعظة، وهي مراعاة الحالة والظُّروف أو الملابسات الَّتي تُحيط بالخطاب والتَّوجيه والواقع، وكذلك النَّظر إلى الزَّمان والمكان، فكلُّ ذلك له مدخليه في الخطاب والتَّوجيه، وليس الخطاب للشَّخص الواحد كالخطاب للكثير لاختلاف القابليَّات. والوقوف عند آية التَّبليغ والدَّعوة يحتاج إلى موضوع مستقلّ ليس هذا محلّه.

٣- وتشير الآية إلى الإسراف الَّذي لم يُقدّر بكمِّيَّة معيَّنة، ومع ذلك نجد القبول والرَّحمة والحنيَّة لهذا العبد، أي إنَّ باب التَّوبة مفتوح على مصراعيه ولا يشترط نسبة في هذا القبول كما هو في الدِّراسات والجامعات حيث تشترط النِّسبة، وهذا تجسيد آخر للرَّحمة، وكرامة لهذا الإنسان عند ربِّه، فأين يجد الإنسان مثل هذا التَّكريم والعناية الخاصَّة؟ وأين هي المناهج والنَّظريَّات والأفكار الَّتي تُعنى بالإنسان قبل كلِّ شيء؟

إنَّ مثل هذا المبدأ للرَّحمة لا تجده إلَّا في القرآن والإسلام، بينما نجد في تلك الأديان المنحرفة وفي عصرنا الحاضر تُوضع موازين للحساب في الدُّنيا قبل الآخرة، فتأخذ الأموال من أجل الحصول على صكِّ الغفران، ودون التَّوجيه والموعظة والحثِّ على الالتزام.

ثمَّ إنَّ التَّوبة في الإسلام لا تحتاج إلى الذَّهاب إلى أحد أو كنيسة كي تُزكِّي الإنسان وتُبرهن على قبول توبته. كلَّا، إنَّما هي علاقة مع الخالق مباشرة، فهو الَّذي يأمرنا بذلك ووعدنا الاستجابة، قال تعالى: ﴿**ادْعُونِي**

(١) سورة النحل، الآية ١٢٥.

﴿أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾،[١] وهذه نعمة كبيرة، وهي السَّتر على المذنبين والعاصين، بأَلَّا يطَّلع أحد عليهم وعلى أسرارهم، ليعيش العبد راحة البال وفي نفسيَّة مطمئنة مستقرَّة بخصوص أعباء وحيثيَّات حياتيَّة واجتماعيَّة مثل السُّمعة، أو التَّأثير على الأبناء والأسرة والمحيط والبيئة الَّتي يعيش فيها الإنسان، ممَّا يطرُّه أحيانًا إلى الهروب من الدِّيار خوفًا من الملاحقات وإثارة العيوب والصَّدمات والكدمات من كلام النَّاس.

هذه هي أخلاقيَّات الإسلام الَّتي يبشِّر بها القرآن، حتَّى جاء في الحديث: «من قال في مؤمن ما رأته عيناه وسمعته أذناه كان من الَّذين قال اللَّه عز وجل: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[٢]»[٣]، فهؤلاء الَّذي لا يحترمون المبادئ ولا يُقيمون وزنًا لكرامة الإنسان ولا سيادة الأخلاق في الحياة والمجتمع؛ هم بالتَّأكيد أسوأ حالًا من العصاة مهما تظاهروا بلباس التَّقوى والإيمان؛ لأنَّ شرَّهم أعظم وفسادهم كبير، ويكفي أنَّ اللَّه يقبل توبة أولئك العصاة ويدخلهم الجنَّة، فهذا مقتضى قبول التَّوبة، بينما هؤلاء يستحقُّون العذاب.

والسُّؤال: لماذا هذا التَّعامل والأسلوب مع النَّاس والعصاة بشكل خاصّ ممَّن يستحقُّون التَّوصية والهداية، فهل حسابهم من شأننا؟ وكذلك لماذا نزرع إلياس والقنوط في نفس الإنسان؟ وما الحكمة والمصلحة في ذلك؟ ألا تكفي التَّوبة الصَّالحة منهم كما قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا

(١) سورة غافر، الآية ٦٠.
(٢) سورة النور، الآية ١٩.
(٣) الإختصاص، ص ٢٢٧.

تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَصُوحًا عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُكَفِّرَ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾[١].

أمَّا التَّوبة فهي ليست مقبولةً لصنفين ذكرهما القرآن، الأوَّل وهم الكفَّار، والثَّاني وهم من سوَّفوا التَّوبة إلى عند خروج الرُّوح. وقد أشار اللَّه في كتابه قال تعالى: **﴿وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْآنَ وَلَا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ﴾**[٢]، أمَّا غيرهم فتشملهم الرَّحمة والعناية، هذا بشكل عامّ ـ أمَّا التَّفاصيل فليراجع فيها الكتب المتخصِّصة.

٤- وهنا تأتي البشارة الأخرى، وهي المغفرة، وهي الطَّهارة وليست فقط القبول، وهي سبب دخول الجنَّة. وهنا تأكيدات على قبول ذلك من الآية نفسها، فدخول الألف واللَّام في الذُّنوب يفيد العموم، وجميعًا، والثَّالث هو **﴿إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾**.

وهذا الاستنتاجات تفيدنا بأنَّه ليس من الصَّحيح للإنسان المذنب أو شعوره بالذَّنب مهما كان أن يدفعه إلى إلياس والقنوط أو إلى الانتحار أوجلد الذَّات، فهذه الممارسات أو الظَّواهر ليس مقبولةً، كما في الكثير من قصص الصَّالحين، وكما تنقل، وقد يصاحب ذلك شيء من اليأس ممَّا يتنافى مع التَّعاليم، والقرآن بشكل خاصّ **﴿إِنَّهُ لَا يَيْأَسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾**[٣]، فالمطلوب من التَّائب إلى اللَّه أن يعود بين النَّاس وفي

(١) سورة التحريم، الآية ٨.
(٢) سورة النساء، الآية ١٨.
(٣) سورة يوسف، الآية ٨٧.

المجتمع بثوب جديد وطهارة روحيَّة، وينخرط في سلك الصَّالحين، ويمارس حياته الطَّبيعة دون تكلُّف أو شعور بوخز الذَّنب وتذكُّر الماضي وما صاحبها من أعمال مشينة؛ لأنَّ هذا الإحساس نفسه يمنع من التَّواصل مع النَّاس، وربَّما تسبَّب في الانتكاسة والعودة والحنين إلى الماضي. كما ينبغي للنَّاس أن يتسلَّحوا بالوعي والثَّقافة في التَّعامل مع هذه الأصناف، بأن يظهروا الاحترام والأخلاق تجاههم، فهذا من سمات المجتمع الإسلاميِّ والأخلاق الحضاريَّة، وهو التَّسامح والتَّجاهل عن سيِّئات وتصرُّفات الآخرين.

٥- وهنا تبرز وتنشأ قيمة التَّقوى في الإنسان من خلال العودة إلى اللَّه، ليس فقط من خلال العبادة والأذكار، بل هو في تدارك الأخطاء، والسَّير في طريق الحقِّ، والثَّبات على المبادئ، والتَّسلُّح بالعلم والمعرفة والثَّقافة الإسلاميَّة، فهذا جانب مهمّ يجسِّد التَّقوى، قال تعالى: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ**﴾[1]، فليس المقصود من التَّقوى الملكة، فهذا أمر لا يطاق ولا يتحصَّل في غير المعصومين، ولذلك جاء عن أمير المؤمنين عليه السلام: «من العصمة تعذُّر المعاصي»[2]، فمن المستحيل في حقِّهم عقلًا وشرعًا، أمّا غيرهم فمن المستحيل أن يخلوا من المعصية ولو كانت من الصَّغائر، وفي المشاعر والأحاسيس، وينقل عن الرَّسول صلى الله عليه وآله هذا المعنى المنسوب إليه:

إن تغفر تغفر جمًّا وأيُّ عبد لك ما ألمَّا

ولذلك نقول: إنَّ التَّقوى مستويات، ودرجات، حسب الالتزام والورع،

(١) سورة الأعراف، الآية ٢٠١.
(٢) نهج البلاغة، ص ٥٣٥.

ولذلك جاء في الحديث: «إياكم ومحقّرات الذُّنوب»[١]، والآخر: «لا تحقِّروا شيئًا من العمل الصَّالح، فإنَّ الجبال بني من الحصى»، وبين هذا وذاك يكون التَّنافس وكسب الدَّرجات، فتأمَّل رعاك اللَّه.

ثمَّ إنَّ التَّقوى حالة روحيَّة ونفسيَّة تصاحب الإيمان كما أشرنا، في قوَّته وضعفه، أي هي نسبيَّة من شخص لآخر، حسب قوَّة الإيمان والحالات الَّتي تصاحبه من اليقين والتَّوكُّل والصَّبر والصِّدق، كلُّ ذلك هو مقدِّمة مهمَّة لقيمة ومكانة التَّقوى، كفضيلة تنمو في مشاعر الإنسان وأحاسيسه«

لكنَّ السُّؤال المهمَّ هو: كيف تتجلَّى التَّقوى في مشاعرنا وفي حياتنا وأبعادها المختلفة، وتنمو لتكون هي الحالة السَّائدة والمهيمنة في كلِّ أبعاد الحياة الَّتي يتعاطاه النَّاس، وليس فقط حبيسة النُّفوس والقلوب أو في حالات فرديَّة غير قابلة للانتشار والتَّوسُّع، وهذا الأمر الَّذي نحتاجه، والقضيَّة الَّتي تشغلنا بسبب الانحرافات وتفشِّي السَّلبيَّات والصِّراعات والخلافات، بحيث يفقد الإنسان والمجتمع الأمن والاستقرار والاهتداء إلى سبل الخير والصَّلاح وتحقيق الآمال والتَّطلُّعات؟

والجواب: هو في تحقيق مفهوم التَّقوى وأبعادها الإيمانيَّة والأخلاقيَّة والحضاريَّة، وعلى كلِّ الصُّعد، فهذا يتطلَّب أمور وآفاق وعوامل نشير إلى أهمِّها:

أوَّلًا: أنَّ مفهوم التَّقوى يختزل مبادئ وقيمًا وثقافة تُجسِّد تعاليم الإسلام وشموليَّته للحياة وكلَّ أبعادها المختلفة، من هنا لا يمكن أن نختزل

(١) وسائل الشيعة، ج١٥، ص ٣١٣.

التَّقوى في بعد واحد، أو جانب، بل يقتضي أن تكون التَّقوى هي الَّتي تُعبِّر عن الالتزام الكامل لتعاليم الإسلام؛ ولذلك نجد قيمة التَّقوى سواء في القرآن أو الإسلام تبزر في كلِّ الأمور، سواء على صعيد التَّكاليف والواجبات، أو في التَّوجيهات والإرشادات والمناسبات الخاصَّة والعامَّة، من المواعظ والخطب والنَّصائح، فهي ركيزة أساسيَّة أيضًا لصدق الإيمان والالتزام، وكذلك على مستوى الوعي والثَّقافة.

ونتيجةً لذلك من الصَّعب أن يكون الإنسان ذا تقوَّى وهو جاهل أو متنسِّك بلا معرفة وفِقه، فهذا يسيء إلى الدِّين، ويُقدِّم صورةً سيِّئةً؛ لأنَّه بعيد كلَّ البعد عن الأهداف والغايات الَّتي يهدف إليها الدين والإسلام. قال الإمام علي عليه السلام: «قصم ظهري عالم مُتهتِّك، وجاهل متنسِّك، فالجاهل يغشُّ النَّاس بتنسُّكه، والعالم يغرُّهم بتهتُّكه»[1]، فالاثنان يمارسان صورًا من الانحراف المضرَّة والمؤثِّرة في نفوس الآخرين، وهذه الحالات وغيرها ليست من التَّقوى في شيء، وهذا يدلُّ على الفهم السَّقيم والمعرفة القشريَّة والمبتورة، إمَّا بسبب الجهل، أو من أجل المصالح الدُّنيويَّة.

ثانيًا: أنَّ مفهوم التَّقوى ليس سلبيًّا، كما يفهم من معناها اللُّغويِّ وهو الوقاية. نعم، إنَّ الوقاية من الانحراف والمعاصي والذُّنوب هي أحد الجوانب، فهو أيضًا اتِّقاء النَّار، ولكنَّ دخول الجنَّة أيضًا يطلب عبادات وطاعات وأعمال صالحات وكلَّ وجوه الخير وليس منحصرًا في بعد واحد، فكما الإنسان مكلَّف بالعبادات الواجبة فهو مطلوب منه الإتيان بالالتزامات

(١) بحار الأنوار (ط - بيروت)، ج٢، ص ١١١.

الأخرى من عطاء وإنفاق ومساعدة ومعاملة حسنة مع النَّاس، فكلُّ ذلك يزيد في إيمان الإنسان ويؤثِّر في تقواه، حتَّى يصل في التَّقوى إلى مستويات عالية، وهذا يتطلَّب الوعي والمعرفة والثَّقافة كي يجسِّد التَّقوى في مفهومها العامِّ والشَّامل وعلى كلِّ الصُّعد الإنسانيِّ والإيمانيِّ والأخلاقيِّ، فالتَّقوى بذلك تعكس صورةً مشرقةً لمعالم الدِّين والإسلام.

ولذلك نجد التَّقوى مصاحبةً للإيمان في كلِّ الأمور؛ لأنَّ الإيمان هو الجانب النَّظريُّ الَّذي يقوم ويُشيَّد بالعلم والمعرفة والأدلَّة والتَّفكير السَّويِّ، أمَّا التَّقوى فهي الجانب العمليُّ الَّذي يؤطِّر عمل الإنسان من خلال الصِّدق والإتقان والصَّلاح، بمعنى أن يقوم بكلِّ ما يقوم به من أجل تحقيق رضا اللَّه، أي لا يتنافى مع هذا الرِّضا، وإن لم يشترط فيه القربى، وهو أعمال الخير التي تصبُّ في مصلحة الدِّين والنَّاس وتحقيق السَّعادة.

ومن يخلّ بذلك ومن منطلقات ضيِّقة ومنحرفة فليس من التَّقوى. فكثير من النَّاس يقومون بأعمال كبيرة ويصرفون الأموال والطَّاقات لكن من أجل الدُّنيا، حتَّى لو كانت تحت شعار وستار الدِّين أو مصلحة المجتمع. فهذا غير مقبول عند اللَّه ولا يساوي بعوضةً فما فوقها. وعلى سبيل المثال، في التَّاريخ نجد مسجد ضرار الَّذي أطال الحديث عنه في القرآن، حيث بُني على أساس الإضرار بالمسلمين واحتواء المناصرين تحت ستار الدِّين وشعائر الإسلام من صلاة وغيرها، قال تعالى: ﴿**وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَى وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ * لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ**

﴿يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ﴾[1]. إنَّ الوقوف عند هذه الآيات يكشف لنا حقائق مذهلة في أساليب النِّفاق والعمل السِّياسيِّ الَّذي يتصدَّر المشهد في عالمنا المعاصر، حيث السِّياسات الحاكمة باسم الإسلام وحماية شعائره، لكنَّها تعمل في الخفاء وأحيانًا في العلن ضدَّ الإسلام وضد المسلمين والأمَّة، وتحيك المؤامرات مع الأعداء بينما هي تقسم وتحلف باليمن وعلى القرآن في البدء على أنَّها تحكم بكلِّ ما يُرضي اللَّه ويصبُّ في مصلحة الوطن، وعزَّة وكرامة الإنسان والأمَّة، فهذه الآيات تكشف عن مثل هذه الخدع والممارسات الَّتي يُجيدها أهل النِّفاق، فهؤلاء القوم هم أبناء القوم لا يختلفون في شيء، فالقرآن فضحهم وفضح أساليبهم الَّتي لا تنطلي إلَّا على العامَّة من النَّاس والسُّذَّج، من ليس لهم علم ودراية وثقافة.

ونشير إلى أهمَّ تلك الحقائق والأساليب من أجل اليقظة وتكريس الوعي وأخذ العبرة وهذا هو المهمُّ:

١- فهناك إصرار وإرادة مبيَّتة من أجل السَّعي لتحقيق تلك المآرب والأهداف الشَّيطانيَّة، وهو المفهوم من كلمة ﴿اتَّخَذُوا﴾، ثمَّ جاء بتنكير كلمة المسجد ممَّا يدلُّ على التَّحقير والاستهزاء لهذا العمل والمشروع.

٢- ثمَّ يشير القرآن إلى تلك الأهداف الشَّيطانيَّة ومن أهمِّها:

أ- هو الإضرار بالدِّين والمصالح الإسلاميَّة والأمَّة ﴿ضِرَارًا﴾.

ب- هو نشر ثقافة الكفر والعصيان ﴿وَكُفْرًا﴾.

---

(١) سورة التوبة، الآية ١٠٧ - ١٠٨.

ج- نشر الفرقة بين أبناء الأمَّة من أجل إضعاف قوَّة الإسلام ﴿**وَتَفْرِيقًا**﴾، وبالتَّحديد المؤمنين الَّذين يعلنون الولاء والطَّاعة والتَّسليم للقيادة.

د- الدَّعوة للكفَّار والمشركين الَّذين كانت لهم سوابق ضدَّ الإسلام، فهم يمثِّلون أرضيَّة منحرفة في مواجهة الحقِّ، ﴿**وَإِرْصَادًا لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ**﴾.

د- التَّظاهر بالتَّديُّن ولباس الإسلام بالتَّحاكم إلى القرآن أو القسم والحلف من أجل تمرير خططهم وتكريس أهدافهم ﴿**وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَى**﴾.

٣- وهنا تأتي الحقيقة من اللَّه سبحانه بعد أن كشفهم بأنَّهم كاذبون ولا يرتبطون ولا يتَّصلون بالإسلام، بل ينطلقون ويسعون من أجل مصالحهم لتحقيق أهداف الأعداء؛ لأنَّ الإيمان لم يدخل قلوبهم. وهذا هو دين الطُّغاة والحكَّام الَّذين يحكمون العالم الإسلاميّ، فهم لا يختلفون عن تلك الحكومات في التَّاريخ مثل الأمويَّة والعبَّاسيَّة ومن سار على دربهم ومن يرفعون شعار الإسلام ويهتفون باسم الأمَّة وهم من أشدِّ أعدائها، فالنِّفاق أشدُّ من الكفر؛ لأنَّهم يمثِّلون مرضًا سرطانيًّا في جسد الأمَّة، يحتاج إلى استئصال.

٤- من هنا جاء التَّحذير الشَّديد بقطع العلاقة التَّامَّة من أجل كشفهم أمام النَّاس، وعدم قبول دعواهم، وذلك لعدم تمرير مخطَّطاتهم ﴿**لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا**﴾.

٥- وهنا يشير القرآن إلى الفارق بين عملين ومنهجين، الأوَّل قائم على

أساس دنيويّ ومصالح ذاتيَّة وأهداف منحرفة بعيدة عن الدِّين ومصالح النَّاس والأمَّة، والثَّاني هو القائم على التَّقوى، قال تعالى: ﴿**لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ**﴾، وهنا نشير إلى أهمِّيَّة الأهداف والمنطلقات، في أيِّ عملٍ وخطوة أو مشروع:

أ- بأَلَّا نكتفي بالظَّواهر والشَّكليَّات في الأمور، وإنَّما نحاول أن نغور في أعماقها وبطونها، وندرس خلفيَّاتها واتِّجاهها كي لا نُخدع، ونتفاجأ، فلا بدَّ من الدِّراسة الوافية، خصوصًا فيما يتعلَّق بالدِّين، قبل المصالح.

ب- كما ينبغي الإشارة إلى حقيقة مهمَّة لا تقلُّ تأثيرًا من سابقتها، وهي المعاينة الأوَّليَّة ومن الأساس في كشف الهدف؛ لأنَّ البدايات تحدِّد النِّهايات والغايات كذلك، أي يجب حسم واتِّخاذ القرارات والإجراءات أمام الجهات المسؤولة كي لا نتعثَّر في نصف الطَّريق، وهنا يشير القرآن ﴿**لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ**﴾.

ج- أن تكون هناك دراسة وافية لأصحاب المشروع أو المؤسَّسة والمركز الَّذي تنطلق منه الدَّعوات والشِّعارات؛ لأنَّ خلفيَّة الأشخاص وتاريخهم هو الطَّريق للحكم عليهم، وليس الانبهار بالشِّعارات والأساليب أو الكاريزما في شخصيَّاتهم؛ لأنَّ أهل النِّفاق والمنحرفين قادرون على تقمُّص الأدوار، ويتفنَّنون في تقديم الشِّعارات، وارتفاع الأصوات، كما نراهم في كثير من المجالات من خلال علماء السُّوء والسِّياسة وغيرها. من هنا يؤكِّد القرآن على الهويَّة الَّتي تعرف النَّاس حقيقة هؤلاء، ومن يمثِّل التَّقوى والمنهج الصَّحيح، وبين أولئك المنافقين والَّذين لا يردُّون خيرًا لأنفسهم ولا لغيرهم من شذَّاذ الآفاق ومن يتَّبعون ويعبدون الطَّواغيت.

وهذه مسألة مهمَّة وفي غاية الخطورة، فالقرآن لم يكتفِ بشعار التَّقوى كقيمة أساسيَّة، وإنَّما أشار أيضًا إلى هويَّة الرِّجال الصَّالحين والمعروفين في الحياة والمجتمع من خلال سجلِّه النَّاصع، يقول الحقُّ: ﴿**فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا**﴾.

د- من هنا نعرف الفوارق بين مختلف الجهات من خلال الأسس الصَّحيحة، من خلال الاطِّلاع على الأفكار والنَّظريَّات والتَّوجُّهات، فهذا جزء لا يتجزَّأ من مفهوم التَّقوى الَّتي تمثِّل -في هذا الإطار- الوعي السِّياسيّ والالتزام الإيمانيّ بالأهداف والأساليب، فالتَّقوى ليست حالةً مخدِّرةً للعقول والأفهام أو تعبيرًا عن السَّذاجة أو ما تعرف عند النَّاس بالطِّيبة. كلَّا، إن التَّقوى هنا هي الكياسة والوعي والخبرة، وكذلك الشَّجاعة في المواقف والمواجهة خصوصًا بما يتعلَّق بمصير النَّاس والأمَّة أو الدِّين؛ ولذلك يشير القرآن إلى هذه المقارنة والفوارق في المواقف والأمور، قال تعالى: ﴿**أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى تَقْوَى مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَمْ مَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ**﴾[1].

إذًا القضيَّة خطيرة، وإن أي غفلة أو تسامح أو تجاهل للحقائق من شأنه قد يُعرِّضنا إلى المسؤوليَّة والمصير المجهول. من هنا جاء في الحديث عن صفات المؤمن: «المؤمن كيِّس فطن حَذِر»[2].

٦- إنَّ هذا المفهوم والبعد للتَّقوى وفي القضايا المصيريَّة هو ما نريد

(١) سورة التوبة، الآية ١٠٩.
(٢) جامع الأخبار، الشعيري، ص ٨٥.

التَّأكيد عليه وفي كلِّ الأبعاد، وهنا نشير إلى أهمِّ الأبعاد الَّتي يجب أن نتعاطاها في ظلِّ التَّقوى، والَّتي تبرز المعالم الحقيقيَّة في الالتزام بها، وليس فقط الاهتمام بها شكلًا أو في مجال ضيّق وفي جانب محدودة، فإنَّ ذلك له انعكاسات سلبيَّة، ومن شأنها أن تُعيق حركة الإنسان المؤمن ودوره في رسم الحياة الفاضلة، وقدرته على تبنِّي الخيارات الصَّحيحة واتِّخاذ القرارات المصيريَّة، بينما المطلوب أن يكون المؤمن هو من يقود الحياة بكلِّ أبعادها لأنَّه يمثِّل المنهج الرَّبَّانيّ وكذلك المصداقيَّة وقوَّة التَّأثير والجاذبيَّة.

٧- وقبل ذلك نشير إلى أهمِّيَّة القدوة والاقتداء بالرَّسول الأكرم صلى الله عليه وآله وبالأئمَّة المعصومين عليهم السلام لما يُمثِّلون من هدًى وتقوى وصدق وطهارة، فلا يمكن الخوض في مسائل الدِّين ومفاهيمه وأبعاده من دون الرُّجوع إليهم وإلى تلك المدرسة العريقة الَّتي تُمثِّل منهج القرآن والإسلام في كلِّ خطوة أو إشارة من حياتهم، فهم النَّموذج والقدوة والمُثُل العُليا في كلِّ شأن، مهما اختلفت أدوارهم وأساليبهم، لكنَّهم يمثِّلون مبدأً واحدًا وهدفًا كذلك، أي «تعدُّد أدوار ووحدة هدف»، وهو من أجود ما قيل في هذا الصَّدد.

وتبرز شخصيَّة الإمام علي عليه السلام في المقدِّمة بعد رسول اللَّه صلى الله عليه وآله، لأنَّه مثَّل الحياة بكلِّ سبلها ومنعطفاتها وأحداثها، فهو الخبير الحاذق في كلِّ الأمور، ولا نستغرب بعد ذلك من وجود الكمِّ الهائل من الرِّوايات والأقوال والخطب والتَّوجيهات والمواعظ والنُّصح في كلِّ الأمور، فكان رجل المحراب والعبادة، ورجل الحروب والمعارك، ورجل الدَّولة والسِّياسة، فقد خاض غمرات الحياة بتفاصيلها، كما قال الشَّاعر:

هو البكَّاء في المحراب ليلًا وهو الضحَّاك إذا اشتدَّ الحراب

ومن عجائب الدَّهر أن يُقارن به مع الفسقة ومن ليس لهم نصيب من الدِّين والتُّقى، فيقولون: إنَّ معاوية -مثلًا- هو أدهى من علي عليه السلام، فمعاوية يصلح للسِّياسة والقيادة أمَّا علي عليه السلام فهو رجل في دُور العبادة أو الحروب.

وقد تأثَّر الكثير من النَّاس إلى يومنا الحاضر بهذه الحماقة أو المهزلة، لكنَّ الإمام عليه السلام يضع الأمور في نصابها بقوله: «واللَّهِ ما معاوية بأدهى منيّ، ولكنَّه يغدر ويفجِّر»[1]، فهل يستوي المتَّقي والفاجر، كما قال تعالى: ﴿**أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِنًا كَمَنْ كَانَ فَاسِقًا لَا يَسْتَوُونَ**﴾[2].

٨- وبالتَّالي يُقدِّم لنا الدُّروس والعبر من كلِّ ذلك، فلا يُضاهيه أحد في أيِّ مجال، وكيف ذلك وهو الابن والتِّلميذ والطَّالب عند رسول اللَّه صلى الله عليه وآله، وهو باب مدينة رسول اللَّه صلى الله عليه وآله، فلا يمكن أن نقف عند حقيقة التَّقوى إلَّا من خلال الوقوف عند حياته والتَّأمُّل في كلِّ خطواته كي نستلهم منه حقيقة المبادئ والقيم والتَّقوى، فحُقَّ له أن يتحدَّث عن التَّقوى وهو أهل التَّقوى، وعن صفات المتَّقين في كلِّ الأبعاد، فهو يقول «اعرف الحقَّ تعرَّف أهله»[3]«

أمَّا أهمُّ الأبعاد الحيويَّة لمفهوم التَّقوى من وجهة نظرنا هي:

١- الوازع الدِّينيُّ:

وهو الالتزام بالدِّين والشَّرع، بدافع الإيمان والتَّقوى، في كلِّ مجالات

(١) نهج البلاغة، ص ٣١٨.
(٢) سورة السجدة، الآية ١٨.
(٣) بحار الأنوار (ط - بيروت)، ج٤٠، ص ١٢٦.

الحياة وتشعُّباتها، فالشُّعور برقابة اللَّه يزرع في الإنسان الرِّقابة النَّفسيَّة والذَّاتيَّة، ليكون هو المحرِّك الفعليّ، وهو ما يُولِّد في النَّفس الطَّاقة للالتزام بكلِّ التَّكاليف والتَّوجيهات والتَّعاليم، ويتجسَّد في بعدين أساسيَّين:

الأوَّل الإتيان بالعبادات والطَّاعات، ويشتدَّ هذا الالتزام بالواجبات المفروضة من صلوات وزكاة وصيام وحجّ وغيرها، والَّتي حُدِّدت في رسائل الفقهاء، فيأتي بها على أكمل وجه، أمَّا المستحبَّات فهو مخيَّر بالإتيان بها، لكنَّها مطلوبة في الشَّرع، حتَّى جاء في الحديث: «ما تقرَّب عبد لي بمثل النَّوافل»[1]، وهكذا في بقيَّة المستحبَّات، وفيها من الحكمة والتَّعليلات الكثير، فيُراجع المصادر الفقهيَّة.

أمَّا الثَّاني فهو ترك المحرَّمات الَّتي نصَّ عليها الشَّرع، ودُوِّنت كذلك في مسائل الفقه، أمَّا المكروهات فارتكابها لا يحاسب عليها، كما قُرِّر في محلِّه، لكنَّ فيها منقصة في الثَّواب أو فوات مصلحة.

ومثال على الأوَّل الصَّلاة في الخلاء مع إحراز الطَّهارة، وأمَّا الثَّاني فالكلام في الخلاء فإنَّه مضرَّة إلَّا بذكر اللَّه فهو حسن على كلِّ حال، والمتصيَّد والحصيلة من الرِّوايات والتَّعاليم، إنَّ التَّقوى تُعرف من خلال البعد الثَّاني وهو ترك المحرَّمات؛ لأنَّ الإنسان المؤمن قد يأتي بالطَّاعات ويحرص عليها لكن قد لا يتورَّع عن ارتكاب المحرَّمات، ولو في بعض الجوانب، فقد روي عن الإمام الصَّادق عن رسول اللَّه ﷺ: «لا يزني الزَّاني حين يزني وهو مؤمن. قال جعفر بن محمَّد عليه السلام: إذا دنا الزَّاني من الزَّانية وصار على بطنها

(١) ميزان الحكمة، ج٣، ص٢٥٤٠.

خرج منه الإيمان، فإذا قام عنها عاد إليه إن استغفر اللَّه عزَّ وجلَّ»[١]، ومثله روي عن الرضا عليه السلام: «لا يزني الزَّاني حين يزني وهو مؤمن، فسئل عن معنى ذلك فقال: يفارقه روح الإيمان في تلك الحال فلا يرجع إليه حتَّى يتوب»[٢].

ولا يقتصر ذلك على الزِّنا لأنه مصداق، بل ينطبق على كثير من المعاصي دون تحديد في الجملة، ففي الحديث: «لا يزني الزَّاني حين يزني وهو مؤمن، ولا يسرق السَّارق حين يسرق وهو مؤمن...»[٣].

وهنا روايات كثير تدلُّ على ذلك، منها: عن الإمام الباقر عليه السلام «يا ابن آدم اجتنب ما حرمتُ عليك تكن من أورع الناس»[٤]، فلم يُشر إلى الطَّاعات لأنَّها من المسلَّمات، أي مفروغ عنها، لكن المُعوَّل على عدم ارتكاب المحرَّمات. وسأل الإمام علي عليه السلام الرَّسول صلى الله عليه وآله في شهر رمضان عن أفضل الأعمال فقال: «الورع عن المحارم»[٥].

فتأمَّل رعاك اللَّه، فكلَّما ازداد الوازع الدِّينيُّ عند الإنسان قلَّت عثراته وزلَّاته، فهو دائم التَّوبة والاستغفار من المعاصي، قال تعالى: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ**﴾[٦]، وفي الحديث: «كلُّ ابن آدم خطَّاء، وخير الخطَّائين التَّوَّابون، فقال أمَّا واللَّه، للَّه

(١) دعائم الإسلام، ج٢، ص ٤٤٨.
(٢) الفقه المنسوب إلى الإمام الرضا عليه السلام، ص ٢٧٥.
(٣) جامع أحاديث الشيعة، البروجردي، ج٢٢، ص ٥٣٠.
(٤) الكافي، ج٢، ص٧٧، ح ٧.
(٥) بحار الأنوار، المجلسي، ج٤٢، ص١٩٠.
(٦) سورة الأعراف، الآية ٢٠١.

أشدُّ فرحًا بتوبة عبده من الرَّجل براحلته»[١]، وعنه ﷺ: «لَلَّه أفرح بتوبة عبده من العقيم الوالد، ومن الضَّالِّ الواجد، ومن الظَّمآن الوارد»[٢].

إذًا باب التَّوبة مشرع ومفتوح، قال تعالى: ﴿**وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ**﴾[٣].

ومن التَّقوى والوازع الدِّيني أَلَّا يزكِّي الإنسان نفسه بأن يدَّعي الكمال والملكة، فهذا يتنافى مع التَّقوى؛ لأنَّ الإنسان ضعيف، ومن الصَّعب كذلك تحقيق الكمال، قال تعالى: ﴿**فَلَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى**﴾[٤]، وقال: ﴿**أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنْفُسَهُمْ بَلِ اللَّهُ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا**﴾[٥]، أي تمدحوها وتشكروها وتمنُّون على اللَّه بأعمالكم، فقد نسب إلى الرَّسول ﷺ:

إن تعفو تعفو جمًّا وأي عبد لك ما ألمَّا

فالإنسان المؤمن يكون على حذر من نفسه بأن يُصاب بالعجب والاغترار خصوصًا أمام ضعيفي الإيمان والالتزام بأن يستخفَّ بهم، ففي الرِّواية: «العجب يمنع الازدياد»[٦]، وأخرى عن الصَّادق عليه السلام: «من أعجب بنفسه هلك، ومن أعجب برأيه هلك، وإن عيسى بن مريم عليه السلام قال: داويت المرضى فشفيتهم بإذن اللَّه، وأبرأت الأكمة والأبرص بإذن اللَّه، وعالجت

(١) ميزان الحكمة، ج١، ص٣٣٨.
(٢) نهج الفصاحة، ص ٦٢٠.
(٣) سورة الشورى، الآية ٢٥.
(٤) سورة النجم، الآية ٣٢.
(٥) سورة النساء، الآية ٤٩.
(٦) غرر الحكم ودرر الكلم، ص ٤٩.

الموتى فأحييتهم بإذن اللَّه، وعالجت الأحمق فلم أقدِّر على إصلاحه، فقيل: يا روح اللَّه، وما الأحمق؟ قال: المُعجب برأيه ونفسه، الَّذي يرى الفضل كلَّه له لا عليه، ويوجب الحقَّ كلَّه لنفسه ولا يُوجب علَّيها حقًّا، فذاك الأحمق الَّذي لا حيلة في مداواته»[١].

والتَّقوى ليس فقط عدم ارتكاب الكبائر من الذُّنوب، ولكنَّ عدم الإصرار على الصَّغائر، كما في الحديث: «إياكم ومحقرات الذُّنوب»[٢] أي صغائرها، وقالوا: «الإصرار على الصَّغائر من الكبائر». أمَّا عن تعريف الكبائر فقال البعض: أي المهلكات، وهو الَّتي ذكر في الأحاديث والرِّوايات، مثل الشِّرك باللَّه، واليمين أي الحلف باللَّه كذبًا وزورًا، والزِّنا، وظلم النَّاس، والرِّبا، وقتل النَّفس المحترمة، والبهتان. أمَّا القول الآخر فهو إنَّ مثل هذه الأمور الَّتي ذُكرت وغيرها، هي مصداق وليس للكبائر مفهوم محدَّد، بل هو مخفيّ من أجل أَلَّا يُستهان بالمعصية، فتأمَّل.

٢- تحمل المسؤولية الاجتماعية:

وهو الشُّعور والإحساس بالمسؤوليَّة الاجتماعيَّة، أي اتِّجاه الآخرين، بدءًا من الأسرة إلى المجتمع والأمَّة. وهذا قد يغيب عن الكثير من النَّاس حتَّى من أهل الإيمان، فضلًا عن غيرهم، فإن هذا البعد يتطلَّب الوعي والإدراك للتَّعاليم الدِّينيَّة والإسلاميَّة، فالمسؤوليَّة الاجتماعيَّة لا تقلُّ أهمِّيَّةً في الالتزام، بل هي المعيار ومؤشِّر للوعي والتَّقوى، فكلَّما كان الإنسان

(١) الإختصاص، ص ٢٢١.
(٢) وسائل الشيعة، ج١٥، ص ٣١٣.

واعيًا للحياة والأمور الَّتي تحيط به وبالمجتمع، ومتسلِّحًا بالثَّقافة الإسلاميَّة والإنسانيَّة والحضاريَّة؛ كان أقرب لتحمُّل المسؤوليَّة.

من هنا جاء التَّأكيد على هذه البعد الحيويِّ في حياة الإنسان والمجتمعات، وذلك من خلال التَّركيز على مدى التزام المجتمع والنَّاس بالتَّعاليم وتطبيق الدِّين الَّذي كفل للنَّاس السَّعادة والرُّقيَّ والتَّقدُّم والرَّفاهية، فالدِّين ضرورة لإسعاد البشر، قال تعالى: ﴿**فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ**﴾[١]، وقال: ﴿**اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ**﴾[٢]، فالدِّين يمثِّل التَّعاليم والمبادئ الكفيلة بتحقيق كلِّ التَّطلُّعات الَّتي تنشدها وتتَّفق مع الحقِّ والفطرة السَّليمة، كما تتَّفق مع سُنن الكون والحياة، وإن الانحراف عن ذلك يعدُّ انحرافًا عن الجادَّة المستقيمة في كلِّ الشُّؤون. ومن هذا المنطلق تكتسب المسؤوليَّة الاجتماعيَّة بُعدًا إنسانيًّا ودينيًّا وأخلاقيًّا وحضاريًّا، وإنَّ فقدان أو التَّهاون في ذلك يعدُّ ظلمًا وضلالًا وسوف يحاسب الإنسان عن ذلك.

وعلى هذا الأساس فالإنسان مسؤول عن نفسه أوَّلًا، وعن الآخرين ثانيًا، بدءًا من أسرته والأقربين إليه، كما قال تعالى: ﴿**قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا**﴾[٣] بأن يأمرهم بالصَّلاح والطَّاعات، ويزرع في نفوسهم الخير والتَّديُّن بالدِّين، ويوفِّر لهم البيئة الصَّالحة، كي يتمكَّنوا من الالتزام، حتَّى جاء في

(١) سورة الروم، الآية ٣٠.
(٢) سورة الأنفال، الآية ٢٤.
(٣) سورة التحريم، الآية ٦.

الرِّواية عن أبي بصير، عن أبي عبداللَّه عليه السلام في قوله تعالى: ﴿**قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا**﴾[١] كيف نقي أهلنا؟ قال: «تأمرهم بما أمر اللَّه، وتنهاهم عمَّا نهاهم اللَّه، فإنَّ أطاعوك كنتَ قد وقيتهم، وان عصوك كنتَ قد قضيتَ ما عليك»[٢].

وهذا يتطلَّب أن يكون الأب قدوةً في الالتزام من أجل التَّأثير، وليس فقط يكتفي بالأوامر والتَّنفيذ، فيشهر سلاح الغضب والإكراه، ممَّا يُنفِّرهم أو يقتصروا في الالتزام عند وجوده، فكثير من العادات والسَّلبيَّات والظَّواهر تسود في المجتمع بسبب هذه السِّياسات والأساليب الخاطئة في التَّربية، فالأسرة والأقربون هي الدَّائرة الضَّيِّقة «فالأقربون أولى بالمعروف»، ثمَّ تتَّسع الدَّائرة إلى المجتمع والأمَّة وحتَّى المستضعفين في الأرض، فالإسلام يختزل كلَّ المبادئ، قال تعالى: ﴿**وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَل لَنَا مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا وَاجْعَل لَنَا مِنْ لَدُنْكَ نَصِيرًا**﴾[٣]، فكلُّ إنسان أو مجتمع يتعرَّض للظُّلم في الحياة يستحقُّ النُّصرة والدِّفاع والسَّعي بكلِّ الوسائل والسُّبُل المشروعة في الإسلام وفي القوانين الدَّوليَّة المعترف بها، ولذا أنشأت الهيئات والمنظَّمات العالميَّة مبادئ عامَّةً تكفل حقوق الإنسان في بقاع العالم.

ومن تجلِّيات هذه المسؤوليَّة الاجتماعيَّة الأمر بالمعروف والنَّهي عن

(١) سورة التحريم، الآية ٦.
(٢) وسائل الشِّيعة، ج ١٦، ص ١٤٨.
(٣) سورة النساء، الآية ٧٥.

المنكر، فهي فريضة كبقيَّة الفرائض في الجملة، أي كفائيَّة إذا قام بها البعض سقطت عن الباقين، ويشترط فيها:

أوَّلًا: التَّفقُّه؛ لأنَّ الجاهل يُفسد أكثر ممَّا يُصلح، والأمر في الواجب واجب، وفي المستحبَّ مستحبّ، وكذا ينطبق في الحرام فيجب إنكاره، أمَّا المكروه فمخيَّر في النَّهي عنه أي ليس لازمًا، ولكن يؤجر عليه.

أمَّا الشَّرط الثَّاني فهو احتمال القدرة على التَّأثير كما قال تعالى: ﴿**فَذَكِّرْ إِنْ نَفَعَتِ الذِّكْرَى**﴾[1]، والتَّذكير والموعظة والنَّصيحة وكلُّ ما يؤدِّي الغرض يدخل في باب المعروف والنَّهي عن المنكر. وهنا قاعدة ضابطة في الأمر بالمعروف والنَّهي عن المنكر وهي «دفع المفسدة أولى من جلب المصلحة»، أي إذا دار الأمر بين مفسدة ومصلحة، فيقدّم الدَّفع على الجلب.

وهذه الأمور تحتاج إلى الحكمة والدِّقَّة والقدرة على تشخيص المواضيع، ولهذا يُشترط الفقه، ولكنَّ الأمور العامَّة والعرفيَّة والعقلائيَّة لا يشترط فيها ذلك، كالأمرِّ بإماطة الأذى عن الطَّريق. كما يشير القرآن إلى أهمِّيَّة الحكمة في الدَّعوة والتَّبليغ، وهذا ينطبق تمامًا في قضيَّة المعروف والمنكر، قال تعالى: ﴿**ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ**﴾[2]، فقدَّم الحكمة على الموعظة، والحكمة هي مراعاة الحال والظُّروف الملائمة والمهيِّئة في التَّوجيه والإصلاح، وذلك حسب مقتضى الحال. ويمكن القيام به مباشرة أو الواسطة، وذلك عند فقدان

(١) سورة الأعلى، الآية ٩.
(٢) سورة النحل، الآية ١٢٥.

القدرة على التَّأثير، لأيِّ سبب كان، كما قال موسى عليه السلام لربِّه: ﴿**وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ**﴾(١).

إنَّ فريضة الأمر بالمعروف والنَّهي عن المنكر من أهمِّ القضايا المصيريَّة في حياة الفرد والمجتمع، فهي تمثِّل عمليَّة البناء والهدم، البناء لدروب الخير والصَّلاح، والهدم لكل الطُّرق الملتوية من ظلم وفساد وخراب، فهي فريضة لا غنى عنها في كلِّ الأحوال والأزمان والأمكنة، لكن من المؤسف القليل من يعتني بها، ولذلك قيل عنها: الفريضة الغائبة. فما أكثر التَّبريرات الَّتي ترد لأجل تعطيل القيام بالواجب فكيف بالمستحبِّ، ونتيجة لذلك يسود الجهل وتتفشَّى الأمراض وينتشر الظُّلم والفساد والخراب دون رادع أو اعتراض، حتَّى يستفحل الأمر وتكبر القضايا وتخور الإرادات والعزائم، فيستولي الأشرار على السِّياسات والحكم، ويهيمنوا على المقدَّرات والخيرات، فينعدم الأمن والاستقرار، وينتشر القفر وكلَّ أنواع الانحراف والإذلال، فيصبح العزيز ذليلًا والغنيَّ فقيرًا، ليسوا لهم قرار ومنع، قال تعالى: ﴿**إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ**﴾(٢). وهنا البلوي الَّتي تجتاح البشريَّة والمجتمعات، من هنا جاء التَّحذير من ترك المعروف والنَّهي عن المنكر.

والأمَّة الإسلاميَّة في عصرنا الحاضر لا تختلف عن الماضي السَّحيق، حيث تكالبت عليها الطُّغاة والجبابرة الَّذين سعوا في الأرض فسادًا وظلمًا،

(١) سورة القصص، الآية ٣٤.
(٢) سورة النمل، الآية ٣٤.

والسَّبب هو التَّقاعس والخوف وعدم الأمر بالمعروف والنَّهي، وهكذا ربمَّا توارثنا الماسيَّ والمصائب، حيث نجد في المجتمعات العربيَّة والإسلاميَّة كلُّ المنكرات والظُّلم والفساد، ولكن لا تجد من يقف أمام هذه الانحراف ويواجه السِّياسات الظَّالمة والاستبداد إلَّا القلَّة ممَّن يخافون اللَّه ويتحمَّلون المسؤوليَّات الجسام؛ ولذلك يتعرَّضون إلى أنواع العذاب والإهانات والمطاردات، فيضطر بعضهم إلى الهجرة إلى بلاد الكفر، حاملًا معه أثقالًا من المعاناة.

فأصبحت الأمَّة الإسلاميَّة كاليهود، وكما أخبرنا بذلك الرَّسول ﷺ حيث نسير على أثرهم القذَّة بالقذة، قال تعالى في حقِّ اليهود: ﴿**لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ * كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ**﴾[1].

من هنا فإنَّ قضيَّة إصلاح المجتمعات تحتاج إلى التَّعاون والتَّكاتف وليس ذلك مسؤولية فرد أو جماعة، بل هي مسؤوليَّة اجتماعيَّة نابعة من الشُّعور والوعي لمتطلَّبات الحياة والنُّهوض بالمجتمع للقيام بدوره في سبيل البناء والتَّقدُّم والازدهار، أمَّا التَّبرير والتَّقاعس فهو السَّبب في الاستمرار في الهدم والتَّخلُّف، لذا يؤكِّد القرآن على تضافر الجهود والمسؤوليَّات، وحسب الطَّاقات والإمكانيَّات، قال تعالى: ﴿**وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ**﴾[2]، وقال: ﴿**فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ**﴾[3]، ويقول الإمام

(١) سورة المائدة، الآية ٧٨ - ٧٩.
(٢) سورة المائدة، الآية ٢.
(٣) سورة التغابن، الآية ١٦.

علي عليه السلام: «لا تتركوا الأمر بالمعروف والنَّهي عن المنكر فيُولَّى عليكم شراركم ثمَّ تدعون فلا يستجاب لكم»[١].

والمجتمع الإيمانيُّ هو المجتمع الَّذي يسعى إلى تحقيق البناء الصَّحيح من خلال الاهتمام بالبيئة الصَّالحة، فلا يقبل بالانحراف وسيادة الظُّلم، ولذلك يرى السَّبيل لذلك وتحقيق هذا الإصلاح من خلال التَّعاون والتَّواصي والتَّكاتف، قال تعالى: ﴿**وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ**﴾[٢]، وهنا تبرز حقيقة التَّقوى من خلال الوعي وكذلك الشُّعور بالمسؤوليَّة.

قصة أصحاب السبت دروس وعبر:

وباختصار القصَّة كما رودت في التَّفاسير، بأنَّ قومًا يقطنون بجانب البحر ويصطادون السَّمك، لكن بسبب فسوقهم وانحرافهم ابتلاهم اللَّه واختبرهم، فأمرهم نبيُّهم أَلَّا يصطادوا السَّمك في يوم السَّبت حيث تتكاثر فيه الأسماك دون سائر الأيَّام، لكن لم يلتزموا بذلك، فانقسم القوم إلى ثلاثة فرق: فرقة تمرَّدت وعصت الأوامر وذهبت لتَّصطاد، وفرقة قامت بدورها في تقديم النُّصح والموعظة والتَّحذير من العواقب، والفرقة الثَّالثة قامت بالدَّور السَّلبيِّ فوقفت ضدَّ الفرقة الثَّانية.

وقد حكى اللَّه سبحانه عن هذا الموقف السَّلبيِّ المتقاعس والمتخاذل تجاه الفرقة الثَّانية، حيث قال على لسان حالهم: ﴿**لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ**

(١) نهج البلاغة، ص ٤٢٢.
(٢) سورة التوبة، الآية ٧١.

﴿أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا﴾، فكان الرَّدُّ عليهم من الفرقة الثَّانية الَّذي يجسِّد الشُّعور والرُّوح والمسؤوليَّة ﴿قَالُوا مَعْذِرَةً إِلَى رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾[١]، فنجد هذا الموقف ينطلق من مبرِّرات دينيَّة ومنطقيَّة، ومن منطلق الوعي والإدراك للمخاطر، وهذا يمثِّل التَّقوى، حيث تشير الآية إلى ذلك، السَّبب الأوَّل هو رسالة الأمر بالمعروف والنَّهي عن المنكر، وهذا أمر واجب وتكليفيّ، والثَّاني احتمال التَّأثيرعليهم وردعهم عن فعلهم ومغامرتهم، لكنَّ ماذا كانت النَّتيجة بعد إصرارهم وعنادهم؟

يشير تعالى ذلك حيث قال: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾[٢]، وفي وآية أخرى: ﴿فَلَمَّا عَتَوْا عَنْ مَا نُهُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾[٣]، فهذا هو العقاب الأوَّل للفرقة الأولى، أمَّا العذاب الآخر للثَّالثة نتيجة التَّقاعس فهو ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَنْجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾[٤]، فلم تنجُ من العذاب إلاَّ الفرقة الَّتي قامت بواجبها وأمرت بالمعروف ونهت عن المنكر.

وهذه موعظة وعبرة ورسالة خالدة لكلِّ المجتمعات الَّتي لا تقُّوم بواجبها أو تتلكَّأ وتتردَّد اتِّجاه قضاياها المصيريَّة.

وأحيانا هذا التَّقاعس يُبرَّر بحجج واهية وبمنطلقات ربَّما دينيَّة وشرعيَّة

(١) سورة الأعراف، الآية ١٦٤.
(٢) سورة البقرة، الآية ٦٥.
(٣) سورة الأعراف، الآية ١٦٦.
(٤) سورة الأعراف، الآية ١٦٥.

تدلُّ على الفهيم السَّقيم للقرآن بالخصوص، أو اتِّباع الأهواء، كتفسير قوله تعالى: ﴿**وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ**﴾[1]، فيأخذون بعضًا من الآية ويتركون البعض الآخر، وهو مقدِّمة الآية الَّتي تؤكِّد على الإنفاق، فكيف تنسجم المقدِّمة مع المؤخِّرة؟

إن التَّعاليم القرآنيَّة والإسلاميَّة تنصُّ على رسالة الأمر بالمعروف والنَّهي عن المنكر بشكل لا لبس فيه ولا تهاون، وأنه جزء لا يتجزَّأ من الواجبات والمسؤوليَّة على عاتق الفرد والمجتمع، وتُحذِّر من مغبَّة تعطيل هذه المسؤوليَّة، كما هي أيضًا تحذير إلى الجهة الَّتي تتظاهر بالدِّين والتَّقوى والشَّعائر، لكنَّها تمارس الدَّور السَّلبيَّ والتَّثبيطي من خلال موقعها للتَّأثير على النَّاس، بالوقوف تجاه المصلحين والمجاهدين ومن يقولون كلمة الحقِّ.

فهذه المواقف المخزية والسَّلبيَّة هي من الأسباب والعوامل في ترسيخ الواقع الفاسد، وهي خلاف الإحسان في الآية كذلك، فيجب على المجتمع الواعي أَلَّا يترك فراغًا ومجالًا لهذه الأصوات النَّاشزة، والوقوف أمامها وتعريتها.

٣- الأخلاق الإسلامية:

لقد تكلَّمنا عن هذا البعد وأهمِّيَّة الأخلاق في طيِّ هذه الدِّراسة، وأنَّها تمثِّل مبدأ لا يتزلزل ولا يتغيَّر حسب الظُّروف والعوامل والتَّحوُّلات مثل واقع الحال في عصرنا الحاضر، في ظلِّ الانفتاح والتَّواصل الاجتماعيِّ عبر

(١) سورة البقرة، الآية ١٩٥.

الوسائل المتطوِّرة، حيث أصبح العالم أقلَّ من القرية، حيث نجد البعض من النَّاس يتهاونون في الأخلاق من خلال أقوالهم وسلوكهم وعاداتهم، من لباس وموضة وغير ذلك، مبرِّرين ذلك أحيانًا بما اشتهر من مأثور «لا تُخلِّقوا النَّاس بأخلاقكم فإنَّهم خُلقوا لزمان غير زمانكم»، فحينما تتحدَّث عن عدم احترام الأبوين أو عن القطيعة للأرحام فيحتجون بتغيُّر الزَّمان؟ وهذا خطأ فادح، فإمَّا الحديث فهو غير ثابت، وعلى فرض صحَّته فهو غير كافٍ في الدَّلالة، فهو لا يتناول الأخلاق، إنَّما يُشير إلى أسلوب إيقاع الحياة بسبب اختلاف الوسائل وطرق تأثيرها في طبيعة التَّفكير، على سبيل المثال ما ينتقده بعض الآباء على طبيعة الحجِّ بين الماضي والحاضر، حيث يقولون ويعبِّرون: بأنَّ الحجَّ في الماضي هو الحجُّ الصَّحيح حيث المشقَّة والعناء، بينما اليوم تُحيط به وسائل الرَّاحة من مسكن وطعام وكلِّ الحاجات متوفِّرة.

هذا من جانب، كما نجد البعض من النَّاس حتَّى من بعض الصَّالحين يتحرَّز في المسائل العباديَّة من صلاة وصوم وحجّ وغيرها من التَّكاليف الشَّرعيَّة أنَّ تكون أو تقع فيها أخطاء من شكّ أو تقصير، بينما نجد منه ذلك التَّهاون في الجانب الأخلاقيِّ مع نفسه، والأهم مع النَّاس عامَّةً، من قول وفعل، وكل ما يُعبِّر عن خلق سيِّئ. وهذا انحراف صريح عن قيمة التَّعاليم وبالخصوص الأخلاق الإسلاميَّة، الَّتي تُجسِّد القيم والمبادئ، وتُبرز الحيويَّة في أيِّ مجتمع، والقوَّة الخلَّاقة الدَّافعة نحو البناء والإصلاح والتَّقدُّم.

من هنا يؤكِّد القرآن في كثير من الآيات والسور على أهمِّيَّة الأخلاق، في كلِّ شؤون الحياة مع البشر وحتَّى بقيَّة المخلوقات من حيوان أو نبات وغير ذلك من النِّعم الَّتي تحيط بنا، ممَّا تستلزم أخلاقيَّات مفصَّلة في محلِّها

في طبيعة التَّعاطي معها.

إنَّ الحديث عن الأخلاق في المجتمع له أهمِّيَّة بالغة وحيويَّة، فهي لا تنفكُّ عن كلِّ التَّعاليم والقيم والمبادئ الإنسانيَّة والدِّينيَّة على حدٍّ سواء، ولذلك جاء التَّحذير من القرآن بالخصوص، وفي سورة الحجرات بالأخصِّ عن تلك المساوئ الخطيرة الَّتي تنخر في الغالب في أيِّ مجتمع، ولا ينفكُّ عنها إمَّا بسبب الجهل أو التَّهاون ببعدها الدِّينيّ والحضاريِّ.

قال: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَومٌ مِنْ قَوْمٍ عَسَى أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِنْ نِسَاءٍ عَسَى أَنْ يَكُنَّ خَيْرًا مِنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ بِئْسَ الِاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ وَمَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ**﴾[1]، وقال: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ**﴾[2]، فالآيات تحتاج إلى تأمُّل وتدبُّر.

ربَّما نجد هناك ترقِّيًا في الصِّفات السَّيِّئة تبعًا للتَّأثير والخطورة، فيبدأ بالآية الأولى من السُّخرية والتِّلامز والتَّنابز، ثمَّ انتقلت إلى الآية الأخرى مكمِّلةً للصِّفات الأخطر في التَّأثير، مثل الظَّنِّ والتَّجسُّس والغيبة، وكيف يصوِّر القرآن الغيبة، كأكل لحوم البشر، ممَّا تتقزَّز وتنفر منه الطَّبيعة البشرية. كما أشارت الآية الأولى إلى الظُّلم، فالظُّلم لا ينحصر في أكل الأموال

(١) سورة الحجرات، الآية ١١.
(٢) سورة الحجرات، الآية ١٢.

بالباطل فقط. والشَّاهد الأهمُّ هو أنَّ هذا الصِّفات والسُّلوكيَّات تعدُّ انحرافًا صريحًا عن التَّقوى المشار إليها في الآية، وإن الاستخفاف بذلك يُعرِّض صاحبه إلى العقاب، ولذلك يجب تقديم التَّوبة والكفِّ عن هذه الانحرافات.

وحينما يُشير القرآن إلى هذه السَّيِّئات ليس للحصر، وإنَّما لخطورتها وتفشِّيها في الغالب بين النَّاس، ممَّا يجب الحذر؛ لأنَّها تستنزف طاقات المجتمع، وتُضعف من التزامه وبُعده عن أسباب البناء والتَّقدُّم؛ لأنَّ الأخلاق هي الدِّعامة الحقيقيَّة في هذه الطَّريق.

ولقد تناول القران مفصَّلًا دور الأخلاق وأهمِّيَّتها، ممَّا ينبغي أن تتحوَّل إلى ثقافة وسلوك ونهج يحمي المجتمعات من التَّآكل والانهيار والتَّخلُّف. وقد أشار الرَّسول الأكرم ﷺ في حديث مطوَّل إلى هذه الانهيار الأخلاقيِّ الَّذي يبدأ بخطوة ويتدرَّج إلى أن يستفحل، وحينها تنقلب الموازين والقيم لصالح الشَّرِّ وجبهة الباطل.

ولذلك نجد القرآن يُشير إلى أهمِّيَّة الأخلاق في أبعادها المهمَّة والمؤثِّرة:

١ - الأخلاق مع النَّاس جميعًا؛ لأنَّها تُمثِّل مبدأ إنسانيًّا ودينيًّا وحضاريًّا، ولأنَّها تمثِّل قيم الإسلام من الرَّحمة، قال تعالى: ﴿**وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا**﴾[1]، وقال أيضًا: ﴿**وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْزَغُ بَيْنَهُمْ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوًّا مُبِينًا**﴾[2]، والآية تُشير إلى أنَّ سوء الخُلق مع

(١) سورة البقرة، الآية ٨٣.
(٢) سورة الإسراء، الآية ٥٣.

النَّاس هو سبب لكثير من الصِّراعات والنِّزاعات المختلفة، وليس بسبب الاختلاف في الرَّأي أو الدِّين، ومن الأوَّليَّة هو العلاقة مع المؤمنين، فهم أحقُّ بذلك، كما هو خُلق الرَّسول ﷺ حيث أخبر القرآن بذلك ﴿**بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ**﴾[١]، وقال: ﴿**إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ**﴾[٢].

٢- الأخلاق في الدَّعوة إلى النَّاس لهدايتهم وجذبهم؛ لأنَّ النَّاس لا يتأثَّرون بالحقائق والمبادئ إلَّا إذا تمثَّلت وتجسَّدت على أرض الواقع، قال تعالى: ﴿**فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ**﴾[٣]، وتشير الآية إلى أنَّ الأخلاق التي تتجسَّد في اللِّيِّن هو من الرَّحمة الرَّبَّانيَّة، كما هي إشارة إلى أهمِّيَّة الأخلاق في التَّأثير، بمعنى لا يكفي أن يكون الإنسان على حقّ أو يحمل مبادئ كذلك، بل المهمُّ كيف تُقنع النَّاس بذلك. وهذا يحتاج إلى أخلاق وأسلوب في الدَّعوة، فالدَّعوة لا تنفصل بحال عن صاحب الدَّعوة، ولولا ذلك ما استطاع الرَّسول ﷺ أن يهدي قومه والبشريَّة، وكان ذلك من خلال أخلاقه وآدابه مع الجميع بدون استثناء، مع الكبير والصَّغير، مع الذَّكر والأنثى، مع الغنيِّ والفقير؛ لذلك مدحه القرآن الكريم ﴿**وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ**﴾[٤].

٣- وتزداد الأخلاق أهمِّيَّةً عند المحاورة والحوار والنِّقاش في ظلِّ الاختلافات؛ لأنَّها تُجسِّد أخلاقيَّات العقيدة والفكر والثَّقافة وكلّ القيم

(١) سورة التوبة، الآية ١٢٨.
(٢) سورة الحجرات، الآية ١٠.
(٣) سورة آل عمران، الآية ١٥٩.
(٤) سورة القلم، الآية ٤.

والمبادئ الَّتي يتبنَّاه الإنسان أو المجتمعات، فهي لا تنفصل عن ذلك، بل هي المؤشِّر عن الاستحقاق والمصداقيَّة؛ ولذلك جاء التَّأكيد في القرآن على ذلك، خصوصًا مع اختلاف العقيدة والدِّين، مثل الدِّيانة اليهوديَّة والنَّصرانيَّة، قال تعالى: ﴿**وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ**﴾[١]، بل حتَّى مع غيرهم من الكفَّار والمشركين، قال تعالى: ﴿**لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ**﴾[٢]، وقال تعالى: ﴿**وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ**﴾[٣].

ويُشير القرآن إلى أهمِّيَّة المبرَّة، أي الوسع في العلاقة والعدل والإنصاف، وهو من أهمِّ المبادئ الأخلاقيَّة على الإطلاق، والعدل هو مبدأ آخر ثابت لا يتغيَّر في الدِّين والأخلاق، فينبغي العدل والإنصاف حتَّى مع العدوِّ؛ لأنَّه يمثِّل الأخلاق والتَّقوى، أي الالتزام بالتَّعاليم الحقَّة، قال تعالى: ﴿**وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى**﴾[٤] أي من التَّقوى.

وما أحوجنا اليوم في ظلِّ الاختلافات والفتن إلى الالتزام بالأخلاق وتجلِّياتها من العدل والإنصاف في المعاملة والسُّلوك، ومن التَّخلُّص من العقد النَّفسيَّة والمنطلقات المنحرفة الَّتي تستهين بالأخلاق من أجل تحقيق انتصارات وهميَّة على الخصم أو الطَّرف الآخر وعبر كلّ الوسائل الرَّخيصة، ومدفوعة الثَّمن.

---

(١) سورة العنكبوت، الآية ٤٦.
(٢) سورة الممتحنة، الآية ٨.
(٣) سورة التوبة، الآية ٦.
(٤) سورة المائدة، الآية ٨.

وفي ظلِّ التَّواصل الاجتماعيِّ تتعدَّد أساليب الخطاب والحوارات، فقد تكون مباشرةً وغير مباشرة، فيجب الالتزام بالأخلاق؛ لأنَّ الغاية لا تبرِّر الوسيلة، حيث نجد المنابر الصَّوتيَّة إذا كانت في المهجر والدُّول الَّتي تنشد الحرِّيَّة مثل الغرب تتجاوز الكثير من الأخلاقيَّات والتَّعدِّي على الحقوق، وتسعى لتسقيط الأشخاص والرُّموز، وبأساليب رخيصة أيضًا من السِّباب والشَّتائم والاتِّهامات والطَّعن في الأعراض وتناول الخصوصيَّات، ولا نهاية لهذا التَّسافل؛ لأنَّهم باختصار يجدون المناخ المناسب للحرِّيَّة المطلقة، لكنَّهم بذلك يفتقدون الحكمة والتَّقوى، وكذلك يقعون في فخِّ الشَّيطان الَّذي يُكرِّس من خلالهم العداوة والبغضاء والتَّفرقة بين النَّاس والمسلمين خاصَّةً، وكذلك يُنفِّذون خطط وسياسات الاستعمار وتحقيق أهدافه في إضعاف قوَّة الأمَّة والنِّيل من كرامتها، فهم أصبحوا أجندةً للأعداء سواء شعروا أم لم يشعروا. أمَّا في داخل الوطن العربيِّ والإسلاميِّ فلأنَّهم يفتقدون ذلك، بسبب الضِّيق في الحرِّيَّات.

إذًا فالحرِّيَّة نعمة وكرامة لكن لا ينبغي أن تستغلَّ بهذا الشَّكل المهين والأسلوب الهابط، فالحرِّيَّة هي جوهر الأمانة والخلافة الإلهيَّة للإنسان، بما تمثِّل من قيم وأخلاق، وليست الحرِّيَّة استباحة للمحرَّمات والأخلاقيَّات، إنَّما الضَّابط الحقيقي للحرِّيَّة الإيجابيَّة والمسؤولة هي الكرامة والأخلاق، وإلَّا أصبحت الحرِّيَّة وبالًا على الحياة والمجتمعات.

تعاليم الإمام الصادق عليه السلام لشيعته:

ولذلك نقول: من المؤسف أن تجد الهوَّة والتَّباعد وأحيانًا التَّباغض والتَّحامل بين الإخوة المؤمنين لمجرَّد الاختلاف في الرَّأي أو التَّقليد أو أمر

آخر، والأشدّ هو بين العلماء الَّذين جعلهم اللَّه في مصافِّ الأنبياء ومحطّ تبليغ الدَّعوة، وممَّن يأخذ منهم النَّاس تعاليم الدِّين والإسلام، وهم القدوة والأجدر بالتَّحلِّي بالأخلاق، فالخطأ الصَّادر منهم لا يقارن بغيرهم، فكما قيل: «إذا أخطأ البقَّال قال النَّاس أخطأ البقَّال وفلان، ولكن إذا أخطأ العالم قالوا أخطأ رجل الدِّين، أي هو مضاف إلى الدِّين ويمثِّله، وهذه مصيبة كبرى في حقِّ الدِّين، وسبب نفور النَّاس من الدِّين. يقول الإمام الصَّادق عليه السلام: «كونوا لنا زينًا ولا تكونوا علينا شينًا»[1] هذا للعموم، فكيف بحال العلماء؟ وقول آخر: «كونوا دعاة لنا بغير ألسنتكم»[2]، وآخر: «رحم اللَّه من أحيا أمرنا، فقالوا: كيف؟ قال: تتعلَّمون علمنا وتعلمونه للنَّاس، فإنَّ النَّاس لو علموا محاسن كلامنا لاتَّبعونا»[3]. فهذه وصايا وتوجيهات في التَّأكيد على الأخلاق وأسلوب الدَّعوة والمعاملة، وليس فقط نقل الحقائق والتَّعاليم والمعلومات والخطب، وهذا ما أشار إليه وعناه الإمام عليه السلام في قوله: «كَنوا دعاة لنا بغير ألسنتكم»، أي بأخلاقكم، فتأمَّل رعاك اللَّه.

٤- القوة في التأثير:

فالأخلاق سلاح كما هي المبادئ، توأمان لا ينفصلان، وإلَّا أصبحت المبادئ مشوَّهةً ولا طعم لها ولا تأثير، ولذلك نجد تلك الأفكار الهدَّامة والتَّيَّارات المنحرفة عن الإسلام لكنَّها تحمل شعاره وتعاليمه، بينما هي تسعى للخراب والدَّمار والقتل، وتقوم بكلِّ الجرائم الَّتي لا يمكن أن

(١) الحكايات، ج٢، ص٩٣، مستطرفات السرائر، ج٣، ص١٦٣.
(٢) الكافي ٢/ ٧٨/ ١٤ ح٩.
(٣) ميزان الحكمة، ج١، ص٣٩٩.

نتصوَّرها، فهي تقتل على الهويَّة ولا تفرِّق بين أحد، فماذا قدَّمت للإسلام والبشريَّة؟ وما حقَّقت من تأثير إيجابي يذكر على صعيد الإنسان والأمَّة والعالم بأسره؟ فأين هي الأخلاق من كلِّ ذلك، فضلًا عن المبادئ الَّتي يحملونها ويتبنَّونها؟ إنَّها كارثة كبرى في حقِّ الدِّين والإسلام، وكذلك في حقِّ الانسانية جمعاء والأخلاق بصورة خاصَّة. ونتيجةً لذلك وقف العالم ضدَّهم، لأنَّهم شرّ مطلق، فأين هي الرَّحمة الَّتي أُرسل بها الرَّسول ﷺ الَّتي تجسَّدت في بعدين أساسيَّين وهما:

١- تلك المبادئ والقيم والمضامين الإيمانيَّة والإنسانيَّة والحضاريَّة، قال تعالى: ﴿**وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ**﴾(١).

٢- مبدأ الأخلاق، وهي القوَّة المثاليَّة في التَّأثير والمصداق لتجسيد تلك المبادئ الحقَّة، فلا معنى أن يحمل الإنسان مبادئ تفتقد إلى الأخلاقيَّات، فكلُّ مبدأ له أخلاق، ولولا ذلك لم يكن للمبادئ أثر وقوَّة في الحياة والبناء والتَّقدُّم والنُّهوض والتَّغيير، فما أروع الصُّورة وتكاملها حينما يجتمع المبدآن، أمّا الأخلاق بدون مبادئ فهي لا تثبت على حال ولا تستقيم في الحياة وفي كلِّ الظُّروف؛ لأنَّها في الغالب تكون نفعيَّةً ومن أجل مصالح ذاتيَّة. من هنا يؤكِّد القرآن على البعدين: قوَّة المبدأ والمنطق، كما في قوله تعالى: ﴿**أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَى لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ**﴾(٢).

---

(١) سورة الأنبياء، الآية ١٠٧.

(٢) سورة العنكبوت، الآية ٥١.

فهذه التَّعاليم هي رحمة للإنسان والبشريَّة والحياة الَّتي نعيش فيها، فهي من أكبر النِّعم على الإطلاق، فهي تمثِّل الهداية الرَّبَّانيَّة الَّتي نحقِّق من خلالها كلّ الأهداف والتَّطلُّعات الحضاريَّة، لكن من الضَّروريِّ هو تحقيق البنية الصَّالحة والمناخ الجيِّد من أجل أن تُؤتي ثمارها، فصلاح البيئة والأرض ضرورة للغرس، وليس الاكتفاء بالحبّ الجيِّد. وهذه الأرض هي الأخلاق، فهي القوَّة في النَّجاح والانتصار في الحروب ومواجهة التَّحدِّيات؛ لأنَّها انتصار في الحقيقة على الذَّات والنَّفس البشريَّة من شرورها وأنانيَّتها، وفجورها، وأطماعها، ففي الحديث: «من قويّ على نفسه تناهى في القوَّة»[1].

ولذلك يُخطئ من يفكِّر بأنَّ الأخلاق في السِّياسات أو المصالح هي حالة ضعف وانهزام، لو كان ذلك حقًّا لما انتصر الرَّسول ﷺ في دعوته، ولما قال في فلسفة بعثته: «إنَّما بعثت لأتمِّم مكارم الأخلاق»[2]، فأيُّ دين يقدِّم لنا مبدأ الأخلاق بهذه المكانة والفلسفة؟ خلافًا للأفكار المعادية للإسلام الَّتي تقول بأنَّ الإسلام انتصر بالرُّعب، فهل هناك حماقة أعظم من ذلك؟ وكما قال الشَّاعر:

داويت كل العلل في الناس إلَّا الحماقة أعيت من يداويها

إنَّ رسالة الإسلام عظيمة لأنَّها تختزل كلَّ عوامل القوَّة والتَّأثير في حياة البشر، ولكن من خلال كلِّ المبادئ وليس من بُعد واحد، أي نؤمن ببعض ونكفر ببعض حسب المصالح والأهواء، هذا الأمر هو المرفوض في الإسلام والقرآن، فالإسلام وحدة متكاملة ومنظومة قيميَّة لا تتجزَّأ وتنفصل،

(١) غرر الحكم ودرر الكلم، ص ٦٠٣.
(٢) مكارم الأخلاق، ص ٨.

فهي كالجسم مترابط الأعضاء، وكلّ عضو له وظيفته وأهمِّيَّته، بحيث إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء، وهذه هو مضمون الحديث الصَّحيح الَّذي ورد عن رسول اللَّه صلى الله عليه وآله.

فليس من الصَّحيح أن نأخذ بالدِّين في جانب ونتركه في جانب آخر إذا تعلَّق الأمر بالمصالح والأطماع والشَّهوات. وهنا يأتي دور وأهمِّيَّة الأخلاق وبُعدها الحضاريِّ، وفي كلِّ الأمور الاقتصاديَّة والسِّياسيَّة والاجتماعيَّة، وهذه بعض الجوانب الَّتي يكثر فيها البلوي والتَّنحِّي عن الأخلاق.

إنَّ الأخلاق هي الرُّوح في حياة الإنسان والمجتمعات، وإذا خرجت الرُّوح فلا يبقى إلَّا البدن، وهو مجرَّد إطار، يقول الرَّسول صلى الله عليه وآله: «مثل المؤمنين في توادِّهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد، إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسَّهر والحمَّى»[1]، فبدون الأخلاق لا يمكن نُحقِّق هذه الألفة والوحدة والقوَّة، والشُّعور بالآخرين من حولنا، فمن الصَّعب أن تُحقَّق هذه الوحدة والقوَّة المتَّزنة بدون عامل الأخلاق مهما توفَّرت من أسباب ومعطيات، ولذلك نُعبِّر عن هذه الرُّوح بقوَّة التَّأثير في كلِّ الجوانب، قال تعالى: ﴿**ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ**﴾[2]، فالنَّار تُطفأ بالماء وليس بالنَّار أو الحديد، لكنَّ القوَّة المادِّيَّة أو العسكريَّة لها مجالاتها ومحدوديَّتها، وليست مبدأً عامًّا، فتأمَّل.

وهنا يأتي الارتباط الوثيق بين التَّقوى في كلِّ الأبعاد وفي الأخلاق

(١) بحار الأنوار، العلامة المجلسي، ج٥٨، ص١٥٠.
(٢) سورة فصلت، الآية ٣٤.

بالخصوص، يقول الإمام علي عليه السلام: «التَّقوى رئيس الأخلاق»[١]، فهل يمكن تتصوّر رئيسًا بلا مرؤوس؟

٥- المنطلقات والتطلعات الحضارية:

ومن الخطأ أن ينصبَّ الاهتمام والتَّركيز على الجانب السَّلبيِّ من التَّقوى، أي الخوف من الوقوع في المعاصي، فهذا جانب لا يمثِّل تلك المساحة من الالتزام الصَّحيح بالتَّعاليم، أمَّا الجانب الأكبر والمهمّ هو السَّعي لتحقيق التَّطلُّعات الحضاريَّة المنشودة، خصوصًا على مستوى الأمَّة، الَّذي يعكس هويَّتها ودورها في العالم وبين الأمم، من خلال الاهتمام بالمدنيَّة والحضارة والتَّنمية والازدهار والتَّقدُّم، فهذا هو الهمُّ الأكبر لرسالة الإسلام والقرآن، وأن تعيد الأمَّة أمجادها وتاريخها العريق، أمَّا اليوم فهي تعيش تحت أسفل الجبل، وأمَّة متخلِّفة، تُحيط بها الصِّراعات والنِّزاعات في الدَّاخل والخارج، وليس هناك بصيص أمل للخروج من هذا المأزق حسب الواقع والمعطيات وليس حسب الآمال والتَّمنِّيات.

إنَّ المسلمين في الماضي والحاضر يملكون من قوى الخير والذَّخائر ما لا يملكه الآخرون، بدءًا من الإرث الحضاريِّ المتمثِّل في الدِّين والقرآن، إلى تلك النِّعم والخيرات الَّتي تحيط بالبلاد العربيَّة والإسلاميَّة، ليس لها حدود لكثرتها، فمن الَّذي يمنع من تحقيق هذا التَّقدُّم والازدهار؟

نعم، هناك عوامل غير مخفيَّة، بل هي ظاهرة للعيان وملموسة لا تحتاج إلى عناء من التَّفكير والبحث، لكنَّ ما نريد الإشارة إليه هو التَّخلُّف العامّ،

(١) غرر الحكم ودرر الكلم، ص ٤٥.

ومن أسبابه هو بُعدنا عن ثقافة الإسلام الشَّاملة للحياة، واقتصرنا على الاهتمام بالبعد الرُّوحيِّ والعباديِّ، كمهمَّة أساسيَّة، دون الاهتمام بثقافة البناء والتَّنمية، فالتَّنمية في العصر الحاضر من أهمِّ القضايا الحياتيَّة الَّتي تتَّصل بحياة الإنسان والمجتمعات بشكل مباشر، وقد أصبحت هذه القضيَّة هاجسًا لكثير من البلاد في كلِّ العالم، وعلى هذا الأساس فإنَّ الدِّين وقيمه وتعاليمه تدفع بهذا الاتِّجاه، من أجل:

أوَّلًا: تحقيق الكرامة الإنسانيَّة، فهي -أي التَّنمية- جزء وجانب مهمّ للكرامة؛ لأنَّ التَّخلُّف لا يتناسب مع كرامة الإنسان، ولذلك يمقت الإسلام الفقر، ويطالب الإنسان بالسَّعي والكدح، حتَّى جاء في الحديث: «إنَّ من الذُّنوب ذنوبًا لا يكفرها صلاةً ولا صدقةً، قيل: يا رسول اللَّه، فما يكفرها؟ قال: الهموم في طلب المعيشة»[1]، وبهذه السِّياسة الحكيمة يُقضى على الفقر والبطالة والفساد وقوع الجريمة.

ثانيًا: تحقيق الاكتفاء الذَّاتيِّ، فالمجتمع الَّذي يسعى لهذا الهدف سوف يُوظِّف كلّ إمكانيَّاته وطاقاته في سبيل ذلك. وهنا الفارق بين المجتمعات المتقدِّمة والمتحضِّرة في هذا المجال، أي المدنيَّة والتَّنمية والتَّطوُّر، وبين الدُّول المتخلِّفة، الَّتي تعتمد بشكل كامل على الاستيراد من الخارج حتَّى في أصغر الأمور، وكما قيل: حتَّى في إبرة الخياطة. فهل من الحقِّ والمنطق أن يكون هذا مصيرها؟

إنَّ سياسات التَّبعيَّة لتلك الدُّول تُعتبر من أكبر المشكلات والأزمات

(١) بحار الأنوار (ط - بيروت)، ج٧٠، ص ١٥٧.

في الوطن العربيِّ والإسلاميِّ، وإن تحرير الاقتصاد هو الخطوة الأولى.

إنَّ الإسلام في هذا الجانب يُعطي أهمِّيَّةً كبرى لبناء الإنسان، فهو رأس مال كلِّ المشاريع الحياتيَّة، وهو المحرِّك والدِّينمو وليس شيئًا آخر؛ ولذلك نجد تلك الدُّول المتقدِّمة تصرف الكثير من الأموال من أجل تنمية العقول والكفاءات في سبيل المعرفة والبناء والاكتفاء، لتصبح مصدِّرةً لغيرها، أمَّا نحن المسلمين نعمل عكس ذلك؛ ولذلك سياساتنا في مجال التَّنمية هي أقرب دائمًا إلى الفشل، لأنَّ أساس التَّخطيط لا يقوم على أساس صحيح، ولا يأخذ في الاعتبار دور الإنسان ومسؤوليَّته وتطلُّعاته في صناعة الاقتصاد الوطنيِّ، فكثير من أبناء الأمَّة لا يتمتَّعون بتلك الكفاءة المطلوبة، والسَّبب أنَّ المناهج العلميَّة والحياتيَّة تفتقر إلى الكثير من المقوِّمات والمؤهِّلات، بل تركِّز على الجانب الدِّينيِّ وفي إطار محدود، لا يتَّصل بثقافة الإسلام نحو الحياة والبناء والتَّنمية، ولا نحو المشاريع الحيويَّة الَّتي يتوقَّف عليها شريان الاقتصاد، وهذا الموضوع متشعِّب والبحث فيه يحتاج إلى دراسة متخصِّصة ومعمَّقة، أمَّا هنا فنشير إلى سياسة الإسلام العامَّة الَّتي تؤكِّد على حيويَّة المجتمع الإسلاميِّ في تحقيق التَّنمية:

١- بناء الكفاءات، أو ما يسمَّى اليوم بالتَّنمية البشريَّة، فالإنسان هو العنصر المهمُّ على كلِّ الأصعدة، فيجب إعداده من كلِّ النَّواحي العلميَّة والمهنيَّة، ممَّا يفتح للإنسان آفاق التَّفكير في تحديد مساره واختياره، وقدرته على المضي وتحقيق إرادته وذاته، فالمعرفة هي الأساس ثمَّ خوض التَّجربة كي يُتقن العمل، وليس الاكتفاء بتعليمه، بمعنى آخر: يجب توفير البيئة المناسبة من تحقيق مشاريع ووظائف لاستغلال الطَّاقات.

ومن الاهتمامات السِّياسيَّة الوطنيَّة النَّاجعة في بعض البلاد هو برنامج ابتعاث الشَّباب إلى الخارج لتلقِّي العلوم والدِّراسات في المجالات التي يحتاجها سوق العمل، لكنَّ تبقَّى المشكلات في التَّوظيف والاستحقاق بعد العودة، حيث الكثير لا يجد الفرصة المناسبة، وهذه النَّتيجة لها آثار عكسيَّة ومدمِّرة للإنسان أوَّلًا، لشعوره بالخيبة، وثانيًا خسارة وطنيَّة بسبب الصَّرف الطَّائل من الأموال وعدم الاستفادة من تحقيق التَّنمية.

إنَّ الإسلام يؤكِّد على همَّة الإنسان وإرادته في تحقيق الكفاءة والتَّقدُّم، لكن من الضَّروريِّ هو الإعداد وتوفير ما يلزم من تعبيد الطَّريق، ليخوض بعد ذلك معترك الحياة، ففي الحديث عن الإمام علي عليه السلام: «قدر الرجل على قدر همَّته»[١]، وآخر: «الإنسان حيث وضع نفسه»[٢].

إذًا المطلوب هو تحقيق البنية الصَّحيحة من الكفاءة والإعداد السَّليم للإنسان، كي يباشر العمل والدَّور المطلوب، والخطوة الأساسيَّة هي الاهتمام بالعلم والمعرفة الحياتيَّة في هذا الصَّدد.

٢- التَّأكيد على الانتماء الوطنيِّ: فشعور الإنسان بوطنه وإحساسه بأهمِّيَّة البناء ودور التَّنمية لتحقيق الاكتفاء، وكذلك تعبيد الطَّريق لبناء مستقبل واعد يضمن للأجيال كرامتها وقدرتها على المضي؛ يُعتبر من أهمِّ الأهداف الإنسانيَّة والحضاريَّة، فالإنسان من طبيعته الانتماء للأرض الَّتي وُلِدَ فيها وتفاعل مع أجوائها، وأكل من خيراتها، والتصق بترابها، ممَّا تُشكِّل قابليَّةً

(١) بحار الأنوار، ج٧٥، ص٩٣.
(٢) نهج البلاغة، الحكمة ٤٧.

وأرضيَّةً في طريق النُّموِّ للمشاعر الوطنيَّة، والَّتي تُستثمر من خلال التَّأكيد على ترسيخ هذه الثَّقافة، لكنَّ هذا الأمر يتطلَّب الخطط الدِّراسيَّة والمناهج العلميَّة لترسيخ هذه الثَّقافة لتسود وتصبح ذات تأثير إيجابيّ.

ومن أجل ذلك لا بدَّ من الاهتمام والتَّعريف بهذه المهمَّة في إطار (الواجبات والحقوق)، لتصبح المعادلة عادلةً في تحقيق الطُّموحات. ونجد في قصَّة نبيِّ اللَّه يوسف عليه السلام بعد أن أثبت جدارته وتبوَّأ المكانة العالية، فشُقَّ له الطَّريق للقيام بالأدوار المهمَّة الَّتي ترتبط بمصير ذلك المجتمع، وهو بناء الاقتصاد، وهو في مجتمع بعيد عن التَّعاليم السَّماويَّة، بالرَّغم من ذلك تكفَّل بهذا الدَّور، لشعوره بالانتماء والواجب، قال: ﴿**اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ**﴾[1].

والخلاصة من كلِّ ذلك: إنَّ الدِّين ليس فقط يُربِّي الإنسان على الالتزام الدِّينيِّ والتَّقوى، وإنَّما يُنمِّي فيه روح العمل والإبداع وتحمُّل المسؤوليَّة، وكذلك الطُّموحات العالية من خلال ترسيخ القيم البنَّاءة والتَّفكير الَّذي يقوده نحو بناء الحياة واستثمارها واستغلالها من أجل تحقيق كلّ التَّطلُّعات على كلِّ الصُّعد. فالمجتمع الإيمانيُّ هو الأحق في هذا المضمار، فالتَّقوى هنا هو توظيف الطَّاقات والإمكانات في طريق الإعمار والتَّنمية والرَّفاهية، والحضارة، فالحضارة الإنسانيَّة في حقيقتها هو استثمار الحياة في ظلِّ القيم والمبادئ والثَّقافات السَّليمة، لتحقيق الأهداف السَّاميَّة على صعيد الدُّنيا والآخرة. وهذه الإمكانات والنِّعم والخيرات ليست حكرًا على أحد أو

(١) سورة يوسف، الآية ٥٥.

مجتمع، لكن كذلك نحن مسؤولون عن تسخيرها، وليس فقط النَّظر والتَّفكير الَّذي يقودنا لتجلِّيات القدرة الإلهيَّة، فالقرآن يحذِّرنا من جهة من العبث والفساد لكلِّ هذه النِّعم في الأرض بسبب بُعد الإنسان عن المنهج الصَّحيح وقيم السَّماء فيقول: ﴿**ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ**﴾[١]، وفي الجانب الآخر يذكِّرنا بقيمة النِّعم الموجودة لإسعادنا، فيقول: ﴿**وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا**﴾[٢].

ومقتضى هذا التَّسخير هو الاستثمار والاستغلال الأمثل لتحقيق الازدهار والتَّقدُّم في ظلِّ التَّقوى من الانحرافات وكلِّ عوامل الشَّرِّ، قال تعالى: ﴿**وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آَمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنْ كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ**﴾[٣]، فالإيمان باللَّه في الآية هو إيمان بكلِّ المبادئ والقيم البنَّاءة الَّتي تهدف إلى الإصلاح والتَّقدُّم في الحياة، فهذا الإيمان يصبُّ في الجانب النَّظريِّ من الاعتقاد والتَّفكير، أمَّا التَّقوى فهي الجانب العمليُّ والالتزام، فهي تمثِّل المحرِّكات العمليَّة والدَّوافع نحو الخير وترسيخ الإرادات وتحقيق التَّطلُّعات، فهي تجنيد لكلِّ قوى الخير والطَّاقات، والدِّينمو الذَّاتيَّ.

أمَّا التَّركيز على التَّقوى كحالة سلبيَّة، وهو تجنُّب الانحرافات فهذا خطأ كبير وتصوُّر ضيِّق لمفهوم التَّقوى وآفاقها الرَّحبة. وهذا عامل من العوامل الَّتي ساهمت في تخلُّف الأمَّة وكلِّ البلاد والأوطان العربيَّة

(١) سورة الروم، الآية ٤١.
(٢) سورة الجاثية، الآية ١٣.
(٣) سورة الأعراف، الآية ٩٦.

والإسلاميَّة، وأبعدها عن هذا الدَّور والاستحقاق، لتصبح أمَّةً فقيرةً وضعيفةً ومتخلِّفةً، بينما تلك الأمَّة تتقدَّم وتُحرز النَّجاحات رغم انحرافها، لكنَّها اهتمَّت بدنياها.

وهنا نشير ونذكِّر بالأوَّليَّة والتَّحفيز لهذا الدَّور في الحياة واستغلال النِّعم، لنكون نحن السَّبَّاقون، قال تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ**﴾[1]، وقال: ﴿**قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آَمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآَيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ**﴾[2]، وقال تعالى: ﴿**فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ**﴾[3]، فلا يمكن أن نفهم من هذه سياق هذه الآيات هو فقط البعد عن المعاصي والذُّنوب، فهذه مفهوم ضيِّق وسلبيّ، وتعطيل لقوى الخير في نفس الإنسان، كما أنَّ الحياة الدُّنيا مسرح للجميع للمؤمن والكافر على حدٍّ سواء، كما قال: ﴿**كُلًّا نُمِدُّ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا**﴾[4]، لكنَّ المطلوب على هذا المسرح هو القيام بالدَّور المطلوب والتَّمثيل الصَّحيح في توظيف كلِّ الإمكانات نحو بناء جسور الحضارة المنشودة.

(١) سورة البقرة، الآية ١٧٢.
(٢) سورة الأعراف، الآية ٣٢.
(٣) سورة البقرة، الآية ١٤٨.
(٤) سورة الإسراء، الآية ٢٠.

رابعًا: الصوم والتنمية

الصيام والتنمية:

تعتبر التَّنمية هي إحدى القضايا والرَّكائز الَّتي تشغل تفكير العالم اليوم حتَّى الدَّول الكبرى، ولذلك هي تسعى من قبل وما زالت لفرض سيطرتها على مقدَّرات العالم والمجتمعات لتكوين ثروتها وتحقيق أهدافها المادِّيَّة من التَّقدُّم في هذا المجال وتحقيق أكبر من الرَّفاهية، وتعتبر الثَّقافة المادِّيَّة وإيقاعاتها الحياتيَّة ومغرياتها الدُّنيويَّة وأساليبها المنحرفة من أهمِّ العقبات والتَّحدِّيات في طريق الخير وإرساء القيم والمبادئ الحقَّة.

ولقد تأثَّر كثير من المسلمين بتلك الثَّقافة، ممَّا جعلتهم يتَّخذون موقفًا من قيم الإسلام وثقافته وتشريعاته، والطَّعن في مفاهيمه الحياتيَّة والحضاريَّة، فأصبحوا دعاة وأبواق للتَّعبير عن تلك الثَّقافة المعادية وذلك لتأثُّرهم بها، دون أن يلتمسوا عذرًا لأنفسهم من خلال الاطِّلاع على مبادئ الإسلام وفلسفته وحكمة تعاليمه وأهدافه الإنسانيَّة والحضاريَّة، وبذلك ارتكبوا جريمة في حقِّ دينهم، وذلك بتلميع صورة الغرب المادِّيِّ وحضارته الَّتي تمثِّل في جوهرها وحقيقتها الكفر والجحود والظُّلم والفساد.

أمَّا الإسلام الَّذي يؤكِّد على الحقِّ والفضيلة والمبادئ الخلَّاقة في

الحياة مثل العدل والحرِّيَّة والمساواة كأساس لإرساء السَّلام والسَّعادة والاستقرار فهو يُقدَّم بصورة مشوَّهة، وكما قال الشَّاعر العربيُّ المسلم أحمد شوقي:

يقولون في الإسلام ظلمًا بأنه يصدُّ بنيه عن طريق التقدُّم
فإذا كان حقًّا فكيف تقدَّمت أوائله في عهده المُتقدِّم
وإذا كان المسلم اليوم يجهله فما على الإسلام من جهل مسلم

إنَّ تأخُّر المسلمين وتخلُّفهم عن ركب التَّقدُّم والتَّطوُّر في الجانب المادِّيِّ ليس بسبب الإسلام وثقافته، ولكن هو بسبب الجهل والانحراف عن الدِّين، ممَّا دفع المسلمين للتَّأثُّر بغيرهم والانقياد إلى سياسات الأعداء والتَّبعيَّة لهم في تكريس التَّخلُّف والتَّقهقر والفشل، فتكرُست في حياتهم عقدة الحقارة.

ونجد هذا التَّأثير الواضح في أولئك الَّذين تشبَّعوا من ثقافة الغرب وارتووا من ثديه وعاشوا في أحضانه، وهم من يطلق عليهم في العصر الحاضر بالعلمانيِّين، والمقصود بهم من يفصلون الدِّين عن الحياة وعن السِّياسة والتَّنمية والبناء والتَّقدُّم. وهم كثر في بلاد المسلمين، والبعض منهم يعيش في الغرب إيمانًا بأنَّ لا تقدُّم ولا حضارة في ظلِّ الدِّين والدَّولة.

ومن هنا نجد الدَّعوات المغرضة والمضلِّلة منهم داخل وخارج البلاد الإسلاميَّة تبثُّ تلك الأفكار والتَّوجُّهات داخل الأمَّة، مثل تحرير المرأة، والمساواة في الإرث، والدَّعوة إلى الشُّذوذ والمثليَّة، والمطالبة بحقوق الإنسان، وذريعة إصلاح الاقتصاد عبر صندوق النَّقد الدَّوليِّ، والمعاداة للحجاب، وتحرير المناهج، وغير ذلك من المفاهيم الَّتي لا تنتهي عند حدّ.

فمن هذه المواقف المعادية والصُّورة المشوَّهة للإسلام هو القول بأنَّ تشريع الصَّوم حكم جائر وعقبة في طريق العمل والتَّنمية؛ لأنَّه يُعطِّل الطَّاقات ويحدُّ من ساعات العمل، فهل هذا صحيح؟[١]

إنَّ الصِّيام في الإسلام ليس بدعًا وتشريعًا جديدًا، فلمَّاذا لم يكن الصَّوم عقبةً في حضارات الأمم وتعطيل لمسيرتها التَّنمويَّة. نعم، هناك اختلافات في كيفيَّة الصِّيام وحدوده من رسالة لأخرى حسب الحكمة الإلهيَّة والمشيئة الرَّبَّانيَّة ومقتضيات الظُّروف، وما زالت تلك الأمم إلى اليوم وما تبقَّى منها من موروثات للتَّعاليم تتمسَّك بهذه الفريضة والسُّنَّة كاليهود[٢].

وهنا نشير إلى أهمية الصيام ودوره على كل الصعد:

أولًا: الإخلاص للَّه سبحانه:

فهو عبادة للَّه مثلها مثل بقيَّة العبادات المفروضة من صلاة وصيام وحجّ وغيَّر ذلك، وفي هذه العبادة يتجلَّى الإخلاص، وهو المطلوب من كلِّ عبادة، ولكن في الصَّوم يتكرَّس هذا الإخلاص بشكل أعمق وأشدّ؛ لأنَّه

(١) لقد أفتى الرئيس التونسي الراحل (بورقيبة) بتعطيل فريضة الصيام لأنه يُعطِّل العمل والنشاط في البلاد، وذلك في بداية الثمانينات.

(٢) يظهر من النُّصوص الموجودة في التَّوراة والإنجيل أنَّ الصَّوم كان موجودًا بين اليهود والنَّصارى، وكانت الأمم تصوم في أحزانها ومآسيها، فقد ورد في الكتاب وقاموس الكتاب المقدَّس: «الصَّوم بكلّ عامّ وفي جميع الوقات كان متداولًا في أوقات الأحزان والنَّوائب بين جميع الطَّوائف والملل والمذاهب». وكان اليهود يصومون لدى التَّوبة والتَّضرُّع إلى اللَّه، والصَّوم الأعظم كالكفَّارة كان على ما يبدو خاصًّا بيوم من أيَّام السَّنة بين طائفة اليهود، طبعًا كانت أيَّام أخرى مؤقَّتة للصَّوم بمناسبة تخريب أورشليم وغيرها. تفسير الأمثل للمرجع ناصر مكارم الشِّيرازيّ، ج ١، ص ٣٧٠.

عبادة لا أحد يطَّلع عليها، ومن هنا كانت الخصوصيَّة لهذه العبادة، حيث قال اللَّه تعالى في الحديث القدسيِّ: «الصَّوم لي وأنا أجزي عليه»[١]، وبذلك يتحقَّق الهدف الأسمى من الخلق والحياة، وهو العبادة الخالصة للَّه، يقول تعالى: ﴿**وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ**﴾[٢]. وكَّل شيء في هذه الحياة إنَّما سُخِّر من أجل هذا الهدف وفي سبيل تحقيقه، وكلَّ شيء لا يخدم هذا الهدف ولا يساعد على تحقيقه يُعدُّ عبثًا وبُعدًا وانحرافًا.

هذه هي فلسفة الحياة، فما قيمة البناء والتَّنمية والتَّطوُّر إذا كانت لا تخدم هدف الإنسان في الوجود، أو تكون سببًا للغفلة والكفر بالنِّعم؟! وما قيمة الرَّاحة والرَّفاهية والسَّعادة إذا فقد الإنسان علاقته مع اللَّه؟!

وهذا هو الفارق في النَّظرة والرُّؤية، ففي الرُّؤية المادِّيَّة يُصبح الإنسان أسيرًا لنزواته، وآلة أو برغيًّا في عجلة الاقتصاد، ويسعى لتحقيق أقصى شيء من المتعة الحياتيَّة، فهو أشبه شيء بالحيوان كما قال تعالى: ﴿**وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ**﴾[٣].

إنَّ قيمة الأشياء في الحياة إنَّما تُكتسب من غاياتها وحاجاتها وليس لنفسها، وإن قيمة الدُّنيا والمتع الحياتيَّة هو لتحقيق السَّعادة الأخرويَّة والمتعة الأبديَّة ﴿**وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا مَتَاعٌ**﴾[٤]، وهذا المتاع لا يكون إلاَّ بالتَّزوُّد بالتَّقوى، وهي الوقاية من كلِّ الانحرافات والأهواء الَّتي تُتَّبع، ولقد

(١) وسائل الشيعة، ج١٠، ص ٣٩٧.
(٢) سورة الذاريات، الآية ٥٦.
(٣) سورة محمَّد، الآية ١٢.
(٤) سورة الرَّعد، الآية ٢٦.

حذَّرنا القرآن من اتِّباع الأهواء الَّتي تقودنا إلى المهالك، فهل يعي الماديُّون والعلمانيُّون هذه الفلسفة الحياتيَّة أم إنَّهم فقط ﴿**يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ**﴾[١].

ثانيا: تقوية الإرادة:

إنَّ من فلسفة الالتزام بفريضة الصِّيام وبأحكامه في شهر رمضان هو من أجل الرَّدع والزَّجر، وَلْنَقُل: التَّقوى من ارتكاب المحرَّمات الكثيرة سواء في شهر رمضان أو في مسيرة الحياة، وإذا لم تكن عند الإنسان هذه الحصانة كيف يقاوم أهواءه وضغوط شهواته؟! من هنا فإنَّ اللَّه يُحرِّم على الإنسان الصَّائم بعض الطَّيِّبات والحلال في فترة محدودة بعد أن كانت مُحلَّله له في سائر الأيَّام والأزمان، ذلك من أجل تربية الإرادة من الوقوع في الحرام الذي يُهلك الإنسان ويشتُّت طاقته ويعمل على تدميره، فهل هذا عائق عن العمل، أم تعاطي المخدِّرات وشرب الخمور وبقيَّة المنكرات هي من أسباب العمل والنَّشاط؟!

إنَّ تقوية الإرادة هي أساس القوَّة في الإنسان، لمواجهة كلِّ الظُّروف الصَّعبة، وليس فقط القيام ببعض المسؤوليَّات الحياتيَّة واليوميَّة المعتاد عليها من عمل ونشاط وحيويَّة، ففي الحديث: «ما ضعف بدن عمَّا قويت عليه النِّيَّة»[٢]، وآخر: «من قويّ على نفسه تناهى في القوَّة»[٣]، فكثيرًا ما نرى من أصحاب الأجسام والعضلات مَنْ لا يقاومون الصِّيام أو الإتيان بالالتزامات؛

(١) سورة الرُّوم، الآية ٧.
(٢) من لا يحضره الفقيه، ج٤، ص ٤٠٠.
(٣) غرر الحكم ودرر الكلم، ص ٦٠٣.

لأنَّهم يفتقدون للإرادة، فإرادتهم خائرة، وهذا ما يُفسِّر الكثير من أسباب الانحرافات.

ثالثًا: إن الصيام تربية متكاملة:

فليس هو فقط من أجل الإمساك عن الأكل والشُّرب لفترة محدودة، وإنَّما هو تربية عامَّة للإنسان على مستوى السُّلوك والتَّفكير والأخلاق، فهو فلسفة إلهيَّة تقود الإنسان نحو الحياة الأفضل، وإن تأثير الصَّوم بالإمساك عن الطَّعام والشَّراب يُحقِّق هذا الأثر، وبذلك نحن نحتاج إلى الصِّيام كضرورة في حياتنا لا يمكن الاستغناء عنه من أجل بناء الذَّات، وتركيز الطَّاقات، وإطلاق التَّفكير، وتهذيب الأخلاق والمشاعر في النُّفوس، وتقويم الأبدان، ومن دون هذه العبادة لا يمكن تحقيق ذلك؛ لما للصَّوم من تأثير في إرادة الإنسان وإخلاصه للَّه ومقاومته لشهواته.

ومن هنا وردت الكثير من الأحاديث تتحدث عن تأثير الصِّيام في شخصيَّة الإنسان، على سلوكه وتفكيره وأخلاقه وغير ذلك، قال لقمان لابنه: «إذا امتلأت المعدة نامت الفكرة، وخرست الحكمة، وقعدت الأعضاء عن العبادة»[١]، وعن رسول اللَّه صلى الله عليه وآله: «لا تميتوا القلوب بكثرة الطعام والشراب، فإن القلب يموت كالزرع إذا كثر عليه الماء»[٢]، والآخر: «من لم يستطع منكم الباءة (الزواج) فليصم»[٣].

(١) جامع السعادات، النراقي، ج٢، ص٤.
(٢) تنبيه الخواطر، ج١، ص٤٦ - ٤٧.
(٣) القطب الراوندي في لب ا لألباب.

رابعًا: كما إن للصيام فوائد جمة:

في كلِّ المجالات الحياتيَّة والحيويَّة الَّتي يحتاجها الإنسان والمجتمعات، خصوصًا في عصرنا الحاضر، عصر التَّحوُّلات والتَّأثيرات المختلفة على الإنسان والبيئة.

وهنا نقتطف ما جاء في كتاب شهر رمضان والانفتاح على الذَّات للمفكِّر الإسلاميِّ حسن موسى الصَّفار يقول تحت «عنوان رمضان وعادات خاطئة»: والصَّوم له فوائد ومنافع عظيمة من النَّاحية الصِّحِّيَّة، حيث يتيح الصَّوم راحةً فسيولوجيَّةً لأعضاء الجسم من عمليَّات هضم الغذاء، كما يُعطي فرصةً لاستهلاك المدَّخر منه، وطرح السُّموم المتراكمة فيه، وتنشيط عمليَّات الاستقلاب الحيويَّة؛ لذا يهتمُّ الآن قسم من الأطبَّاء بما يُطلقون عليه (الصِّيام الطِّبِّيّ)، وقد صُنِّفت حوله كتب علميَّة متداولة ككتاب (التَّداوي بالصَّوم) لمؤلِّفه (هـ. م. شيلتون)، والَّذي تُرجم إلى العربيَّة ونشر عام ١٩٨٧م من قِبَل دار الرَّشيد، دمشق - بيروت.

وينقل العالم الرُّوسيُّ (ألكسي سوفورين) يقول في كتابه: «الصَّوم سبيل ناجح في علاج أمراض فقر الدَّم، وضعف الأمعاء، والالتهابات البسيطة والمزمنة، والدَّمامل الدَّاخليَّة والخارجيَّة، والسُّلّ والإسكيدوز، والرُّوماتيزم، وعرق النِّساء، وأمراض العين، ومرض السُّكَّر، وأمراض الكلِّيَّة والكبد»[1].

«وعلى الصَّعيد النَّفسيِّ فإنَّه دورة تدريبيَّة لتربية الإنسان على التَّحكُّم

(١) كتاب: الصَّوم طريقة حديثة لعلاج الأمراض، ص ٦٥، الطَّبعة الأولى، من كتاب تفسير الأمثل.

في رغباته وشهواته، حيث يمتنع بقرار ذاتيّ عن الطَّعام والشَّراب وسائر المفطرات مع ميله إليها أو حاجته لها في بعض الأحيان.

واجتماعيًّا: يتحسَّس الإنسان جوع الفقراء والمعدمين ويشعر بمعاناتهم وحاجاتهم.

وروحيًّا: فإنَّ التَّسامي على الرَّغبات والتَّفاعل مع الأجواء المباركة للشَّهر الكريم ينتج صفاءً روحيًّا وحيويَّة معنويَّة عالية»[١].

نعم، هناك عادات خاطئة وممارسات سلبيَّة ومفاهيم غير واضحة لفلسفة الصِّيام وأبعاده. يقول الشَّيخ الصَّفار في هذا المجال: «وما يؤسف له نموّ بعض العادات الخاطئة والحالات السَّلبيَّة الَّتي تُجهض آثار الصَّوم وتُقلِّل الاستفادة من بركات الشَّهر الكريم»، ثمَّ يشير بقوله: «لكنَّ ما تعوَّده الكثير في مجتمعنا هو اتِّخاذ هذا الشَّهر الكريم موسمًا للخمول والكسل، حيث يتدنَّى فيه الأداء التَّعليميُّ في المدارس والوظيفيُّ في الدَّوائر والمؤسَّسات، ويقضي قسم كبير من النَّاس فيه النَّهار نومًا واسترخاءً بحجَّة الصِّيام وكأنَّ الصَّوم داعٍ للكسل، أو بديلٍ عن العمل، فيوقف الإنسان حركته لكي يصوم، وتلحظ بعض التَّقارير انخفاض مستوى الإنتاجيَّة العمليَّة لدى قسم من المجتمعات الإسلاميَّة في شهر رمضان»[٢].

ثمَّ يتحدَّث عن أهمِّيَّة الصِّيام في الحفاظ على صحَّة الإنسان حيث يُعتبر من أهمِّ البرامج الوقائيَّة والعلاجيَّة للكثير من أمراض العصر وأخطرها

(١) شهر رمضان والانفتاح على الذات، المفكر حسن موسى الصفار، بصائر - ٢.
(٢) كتاب شهر رمضان والانفتاح على الذات (بصائر - ٢).

مثل مرض السُّكَّريِّ وأمراض القلب. «وأغلب مشاكل الإنسان الصِّحِّيَّة تأتيه من الاسترسال مع شهوة الطَّعام والشَّراب، وخاصَّةً في هذا العصر الَّذي تتفنَّن فيه وسائل الدَّعاية والإعلام لتشجيع حالة الاستهلاك، وتسعى مصانع ومتاجر الأغذية لإثارة رغبات النَّاس أكثر في ألون المنتجات الغذائيَّة، كما أنَّ طبيعة الحياة عند الكثيرين لا تستلزم بذل جهد وحركة لتصريف الطَّاقة الَّتي يوفِّرها الطَّعام للجسم. وتأتي فريضة الصَّوم لتلفت نظر الإنسان إلى ضرورة التَّحكُّم في طعامه وشرابه وضبط رغبته وشهيَّته، لكنَّ المؤسف جدًّا هو ما يسود حياة أغلب مجتمعاتنا حيث ترتفع وتيرة الاستهلاك الغذائيِّ في شهر رمضان، وحسب بعض التَّقارير الاقتصاديَّة فإنَّ استهلاك الدُّول الإسلاميَّة من الموادِّ الغذائيَّة يزداد في شهر رمضان، فقد أصبح الشَّهر الكريم موسمًا للأكل وانطلاق شهوة الطَّعام، وما أن يحين وقت الإفطار حتَّى يندفع الإنسان للمائدة بنهم وشره وكأنَّه ينتقم لبطنه من فترة صومه»[1].

ويخلص الكاتب إلى القول: «إنَّ علينا أن نُعيد النَّظر في برامجنا وعاداتنا الغذائيَّة مع تغيُّر نمط حياتنا، ولا يصحُّ أبدًا الاستجابة للرَّغبات والشَّهوات على حساب صحَّتنا ومستقبل حياتنا... وشهر رمضان ينبغي أن نتدرَّب فيه على الانضباط الغذائيِّ لنستفيد من فريضة الصَّوم العظيمة»[2].

وقد حثَّ الإسلام على الصِّيام ليس فقد لبناء الرُّوح وشحن المعنويَّات بما يُحصِّنها ويقيها من آفات المعاصي والذُّنوب، ولكنَّه أيضًا أشار إلى أهمِّيَّة تأثير الصَّوم على حياة الإنسان وعافيته، ليتسنَّى للإنسان التَّعرُّف على تلك

(١) نفس المصدر.
(٢) المصدر نفسه.

الآثار وطريق تحقيقها عن طريق الصَّوم، ولكيلا يتحوَّل الصِّيام إلى عبادة وممارسة من دون وعي واستفادة حقيقيَّة في برنامج الإنسان الرُّوحيِّ والحياتيِّ. يقول الرَّسول صلى الله عليه وآله: «صوموا تصحوا»[١]، وآخر: «المعدة بيت كلِّ داء والحمية رأس كلِّ دواء»[٢]، وأيضًا: «من كثر أكله قلَّت صحَّته»[٣].

وهذه الممارسات والعادات الخاطئة لا تتَّفق مع أهداف الدِّين ولا مع حكمة تشريع الصِّيام. بل ما نجده من إيجابيَّات عند الكثير من أهل الوعي والعلماء من زيادة نشاطهم وجرعة إقبالهم على الإنتاج في كلِّ المجالات العلميَّة والعمليَّة يؤكِّد قدرة الصَّائم على القيام بجميع مهامِّه وأموره الاعتياديَّة وزيادة على ذلك، ومدى تأثير الصِّيام في خلق تلك القوَّة الرُّوحيَّة والخفَّة البدنيَّة في تحقيق أقصى درجات النَّشاط والحركة والإنتاج في ميدان العمل والحياة. ونحن نقرأ عن الكثير من المؤلِّفين بأنَّ أغلب تأليفاتهم أُنجزت في شهر رمضان الكريم. فلا يمكن القول بعد ذلك بأنَّ الصَّوم هو تعطيل للتَّنمية والنَّشاط إلَّا إذا كانت تلك العادات الخاطئة والمفاهيم المغلوطة والممارسات في حياة الكثير من المسلمين سببًا في هذا الحكم، كما أنَّ التَّقصير ووقف النُّموِّ والتَّطوُّر في البلاد الإسلاميَّة ليس هذا سببه، بل هو تخلُّف عام أنتجته عوامل كثيرة من أهمِّها السِّياسات الحاكمة وليس أحكام الإسلام القويمة.

«ثمَّ إنَّ تأكيد الإسلام على قيمة العمل والوقت والإنتاج في حياة الإنسان وعمره من أجل آخرته لا يدع فرصةً للحديث عن سلبيَّة الصِّيام،

(١) عوالي اللآلي العزيزية في الأحاديث الدينية، ج١، ص ٢٦٨.
(٢) طب النبي صلى الله عليه وآله، ص ١٩.
(٣) غرر الحكم ودرر الكلم، ص ٦٤٦.

ولكن شتَّان بين الموقفين والنَّهجين، بين من يؤمن ويعمل ويتطلَّع إلى ثواب اللَّه وجنانه، وبين من يعمل من أجل دنياه فقط ومتعة الحياة بلا حدود وإيمان، ﴿**أَفَمَنْ وَعَدْنَاهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَاقِيهِ كَمَنْ مَتَّعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ**﴾[1]»[2].

إنَّ شهر رمضان تتجلَّى فيه روعة التَّشريع الإلهيِّ الَّذي يُكرِّس في الإنسان العبوديَّة الحقَّة والمطلقة للَّه سبحانه، وهو الهدف الأسمى من الحياة والوجود، ثمَّ هداية البشر نحو تلك الأهداف والمضامين الإيمانيَّة والرُّوحيَّة الَّتي تصوغ حياة الإنسان والمجتمعات بكلِّ المعاني السَّامية وفي ظلِّ الكرامة والتَّطلُّعات الحضاريَّة المنشودة.

(١) سورة القصص، الآية ٦١.
(٢) شهر الصيام والانفتاح على الذات، للمفكر الشيخ حسن الصفار.

خامسًا: فرحة العيد[1] ماذا تعني؟

يتساءل البعض: كيف لنا أن نفرح ونبتهج بالعيد، ونُظهر الأفراح والزِّينة وواقع الأمَّة؛ وحال المسلمين في كثير من العالم الإسلاميِّ يعيشون المآسي والفجائع والفقر؟ كما هو حال العراق وفلسطين وأفغانستان وغيرها لكنَّها الأبرز، فهل من الحكمة والأخوَّة الإيمانيَّة والرَّابطة الإسلاميَّة أن نحتفل بالعيد وهم يفتقدون إلى أبسط الأمور، ويعجز الكثير من الآباء والأسر في تلك الدُّول من توفير حتَّى الملابس المناسبة، بل لا يجدون أحيانًا توفير أقواتهم اليوميَّة؟

وللوقوف عند هذا التَّساؤل لا بدَّ من توضيح مفهوم العيد وماذا يعني لنا وكيف نحتفل به؟

أوَّلًا: الانتصار الأكبر على الذَّات:

إذا كان من الطَّبيعيِّ أن يفرح الإنسان بما يحقِّقه من إنجازات ونجاحات هنا وهناك، فمن المؤكَّد يشعر بهذه الفرحة من الأعماق حينما يكون الانتصار

(١) العيد من (العود)، فقلبت الواو إلى الياء كالعادة، وكذلك لعدم وجود الالتباس في كلمة العود من العصا.

على الأهواء والشَّهوات؛ لأنَّ الهوى هو أعدى الأعداء للإنسان، وهو الميدان الحقيقيُّ، يقول الإمام علي عليه السلام: «ميدانكم الأول أنفسكم فإنَّ قدَّرتم عليها كنتم على غيرها أقدر، وإن عجزتم كنتم على غيرها أعجز»[١].

فالفرحة بالعيد هي الشُّعور بهذا الانتصار ولكن على مستوى الذَّات والنَّفس، فبعد أن عاش المسلمون طيلة شهر رمضان أجواءً ربَّانيَّةً، وكانت مهمَّتهم فيها هو البناء الحقيقيّ للنَّفس والإعداد للحياة والتَّزوُّد للانطلاق، ومهمَّة التَّغلُّب على النَّفس ليس بالأمر السَّهل، بل هي مهمَّة شاقَّة تحتاج إلى المزيد من المعاناة التَّربويَّة والتَّزكية النَّفسيَّة والعلاقة الصَّحيحة والحقيقيَّة مع اللَّه سبحانه، أي الصِّدق مع كلِّ شيء.

وهذا الجهد هو ما وصفه الرَّسول صلى الله عليه وآله بالجهاد الأكبر، جهاد النَّفس، رُوي أنَّه بعث النَّبيُّ صلى الله عليه وآله بسرِّيَّة، فلمَّا رجعوا قال: مرحبًا بقوم قضوا الجهاد الأصغر وبقي الجهاد الأكبر، قيل: يا رسول اللَّه، ما الجهاد الأكبر؟ قال: جهاد النَّفس[٢].

فالقوَّة الحقيقيَّة على الأرض وفي الإنسان هي في قوَّة الإنسان حينما ينتصر على نفسه الأمَّارة بالسُّوء. ولا بدَّ أن نعرف أنَّ كلَّ مظاهر العجز الإنسانيِّ والفساد والدَّمار في الأرض هو بسبب فساد الإنسان وخضوعه لأهوائه الَّتي تقوده إلى ذلك، يقول تعالى: ﴿**ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ**﴾[٣]. كما أنَّ

(١) نهج البلاغة.
(٢) شرح أصول الكافي، المازندراني، ج ١، ص ٢٦٦.
(٣) سورة الرُّوم، الآية ٤١.

قوَّة الإنسان وقيادته وتحقيق خلافته في الأرض مرهون بهذه القدرة، لأنَّها أساس الصَّلاح والتَّغيير والسَّعادة والخير. يقول الإمام علي عليه السلام عن هذه القوَّة: «من قويّ على نفسه تناهى في القوَّة»[1]. من هنا نجد كيف أنَّ الإنسان وكذلك المجتمعات والحضارات مهما بلغت من قوَّة وسيطرت وبطرت في العيش وتقدَّمت في الإمكانات ليس بإمكانها التَّخلُّص من سلبيَّاتها وشرورها وفسادها إذا كانت ضعيفةً أمام أهوائها ونزواتها؛ لأنَّها سوف تحيد عن منهج الحقِّ والعدل والاستقرار والسَّلام.

ولذلك فإنَّ الانتصار على النَّفس هو انتصار للإرادة الإنسانيَّة، وانتصار للقيم الرَّبَّانيَّة وسيادتها في الحياة، وانتصار على الأعداء والأشرار والطَّواغيت من البشر، وانتصار الحقِّ على الباطل، والخير على الشَّرِّ، والفضيلة على الرَّذيلة. والعيد يمثِّل هذا المشهد والشُّعور بالتَّفوُّق الَّذي أراده اللَّه من العباد.

ثانيًا: الاقتداء بأهل البيت عليهم السلام:

إنَّ الشُّعور بالهداية والالتزام بنهج الحقِّ والسَّير والاقتداء بأهل البيت عليهم السلام يمثِّل شعورًا بالفرح والبهجة والاطمئنان، وهي نعمة تستحقُّ الوقوف والاحتفال والشُّكر والتَّقدير والظُّهور بزيِّ الانتصار. وحينما نقرأ الأدعية المأثورة عن أهل البيت عليهم السلام في يوم العيد نُدرك هذا المعنى للعيد، ففي الدُّعاء المستحبِّ قراءته في صلاة العيد: «اللَّهمَّ أهل الكبرياء والعظمة، وأهل الجود والجبروت، وأهل العفو والرَّحمة، وأهل التَّقوى والمغفرة، أسألك بحقِّ هذا اليوم الَّذي جعلته للمسلمين عيدًا، ولمحمَّد

(١) غرر الحكم ودرر الكلم، ص ٦٠٣.

صلَّى اللَّه عليه وآله ذخرًا وشرفًا ومزيدًا، أن تصلِّي على محمَّد وآل محمَّد، وأن تُدخلني في كلِّ خير أدخلت فيه محمَّدًا وآل محمَّد، وأن تُخرجني من كلِّ سوء أخرجت منه محمَّدًا وآل محمَّد صلواتك عليه وعليهم. اللَّهمَّ إنِّي أسألك خير ما سألك منه عبادك الصَّالحون، وأعوذ بك ممَّا استعاذ منه عبادك المخلصون».

إنَّه بيان واضح للشُّعور بالهداية من خلال الاعتراف بحقِّ اللَّه وعظمته وكبريائه وكرمه وجوده وعطفه وامتنانه، وتقدير ومكافأة للرَّسول وآله لأنَّهم سبب لهدايتنا والتزامنا بالدِّين والإسلام، ولولاهم لكنَّا من الضَّالِّين، فكان من الواجب الدُّعاء لهم برفع منزلتهم عند اللَّه. كما أنَّ الدُّعاء يتضمَّن الإصرار والسَّير والمضي في طريقهم والاقتداء بهم على ما تحمَّلوه في الحياة من الصِّعاب والابتلاءات والمخاطر. فأهل البيت عليهم السلام هم سفينة النَّجاة، فالمتقدِّم عنهم زاهق، والمتأخِّر عنهم مارق، واللَّازم لهم لا حق.

وإن الاهتداء لهذا الحقِّ من أكبر النِّعم والهداية، وإن السَّير والاقتداء بهم هو أساس النَّجاة مهما كلَّف ذلك من ابتلاءات وصعوبات وواجه الإنسان العقبات، فطريق أهل البيت عليهم السلام ليس مفروشًا بالورود، فهم خاطروا بأنفسهم وواجهوا كلَّ الامتحانات من أجل نصرة الحقِّ والدِّفاع عن المظلومين، فكيف ينبغي أن نُجسِّد هذا الولاء والطَّاعة والاقتداء، وأن نعيش مثل حياتهم ونقتبس من سيرتهم ونُجدِّد الرَّابطة والعلاقة معهم، ونحن نتساءل ومن خلال الدُّعاء: ما هو الخير الَّذي دخل فيه محمَّد وآله؟ فحياة أهل البيت كلُّها صعاب ومواقف واستقامة على الحقِّ وثبات، ولم يكونوا في بحبوحة من العيش، فهم أهل الزُّهد والمخمصة. وقد ورد عن أهل

البيت عليهم السلام: «من أحبَّنا أهل البيت فليستعد للفقر جلبابًا»[١].

ومن المستحبَّات المؤكَّدة في يوم العيد وليلته هو قول: «اللَّه أكبر، اللَّه أكبر، لا إله إلَّا اللَّه، اللَّه أكبر كبيرًا، وللَّه الحمد، الحمد للَّه على ما هدانا، وله الشُّكر على ما أولانا».

ثالثًا: إدخال السُّرور على الفقراء والمساكين:

إنَّ فرحة العيد هي تجسيد لمشاعر الحب نحو الآخرين، والإحساس بهم، وهو انعكاس للبناء الرُّوحيِّ والتَّزوُّد خلال شهر رمضان، فنجد المؤمن في هذا اليوم يجود بالعطاء ويساعد المحتاجين، ويعمل على تبرئة خواطرهم ومسكنة مشاعرهم وطمأنة قلوبهم.

وبحقٍّ فالعيد يمثِّل الموقف الإنسانيُّ النَّبيل والرَّابطة الأخويَّة والحالة الحضاريَّة الَّتي ينبغي أن تسود وتعمُّ؛ لما لها من تأثيرات إيجابيَّة في مسيرة الإنسان والمجتمع. فالعيد هو تجسيد للرُّوح الرَّمضانيَّة، ومن بعض حِكَم وعلَّل الصَّوم والصِّيام هو هذا الشَّعور كما في الحديث يقول الصَّادق عليه السلام: «أمَّا العلَّة من الصِّيام أن يستوي به الغنيُّ والفقير، وذلك لأنَّ الغنيَّ لم يكن ليجد مسَّ الجوع فيرحم الفقير؛ لأنَّ الغنيَّ كلَّما أراد شيئًا قدر عليه، فأراد اللَّه عزَّ وجلَّ أن يُسوِّي بين خلقه وأن يُذيق الغنيُّ مسَّ الجوع والألم ليرقَّ على الضَّعيف ويرحم الجائع»[٢].

من هنا ينبغي في هذا اليوم أن نُجسِّد هذا البعد بتوسيع دائرة الاهتمام

(١) نهج البلاغة، ص ٤٨٨.
(٢) بحار الأنوار (ط - بيروت)، ج٩٣، ص ٣٧١.

لكلِّ المحتاجين في العالم وبكلِّ القضايا الإنسانيَّة، حتَّى نواسي الآخرين، ونزرع فيهم الأمل والفرحة في هذا اليوم المبارك.

رابعًا: الاهتمام بالهيئة وبالمظاهر الحسنة:

ما يؤكِّد عليه الإسلام في هذا اليوم هو الاحتفاء بالعيد والظُّهور بالمظاهر الحسنة من اللِّباس والهيئة، بحيث يعكس تلك الرُّوح الوضَّاءة والصَّافية الَّتي تغربلت وتروَّضت بالعبادة والطَّاعة والالتزام، كما يحتاج الإنسان إلى ذلك من أجل مقابلة النَّاس ومصافحة المؤمنين، فالنَّظافة إبريق التَّقارب والمحبَّة.

وإن الاهتمام بهذه المظاهر الحسنة أمر مطلوب ومرغوب في كلِّ وقت؛ لأنَّ النَّظافة من الإيمان، ولكن يتأكَّد في هذا اليوم فهو من الاستحباب، لأنَّها مناسبة عظيمة وعبادة جليلة وسياسة شرعيَّة اجتماعيَّة حكيمة، تُوحِّد القلوب وتُؤنس النُّفوس وتُقرَّب بين النَّاس وتجمع شملهم في وحدة من المشاعر والمظاهر، في أجواء نقيَّة من كلِّ مظاهر الزَّيف والغرور والاستعلاء والتَّفاخر والمباهاة، وحينما تزول هذه المظاهر السَّلبيَّة وتنعدم فيها الفواصل المادِّيَّة سوف تسود الأحاسيس الإيجابيَّة وتنمو مشاعر الحبِّ والاحترام بدل مشاعر الكره والحقد والانتقام.

خامسًا: لكيلا يتحوَّل العيد إلى انتكاسة:

إنَّ أهمَّ ما يمكن الحديث عنه في مناسبة العيد هو كيف نحافظ على تلك المكتسبات الَّتي حقَّقناها خلال شهر رمضان الرُّوحيَّة والإيمانيَّة والعلميَّة والأخلاقيَّة والحضاريَّة؟

بعد أن عاش المسلمون شهرًا كاملًا في رحاب ضيافة اللَّه وكرمه ورحمته وفضله، واستمتعوا بهذه الرِّحلة الرَّبَّانيَّة الَّتي قادتهم إلى أجواء الإيمان والالتزام والدُّعاء والعبادة وقراءة القرآن وتزوُّدوا فيه القربات والطَّاعات، ها هم اليوم يحتفلون بأوَّل أيَّام عيد الفطر مبتهجين منيبين إلى اللَّه، تلهج قلوبهم بالتَّكبير والتَّهليل والتَّسبيح والشُّكر على النِّعم والهداية.

فمن أجل ذلك لا بدَّ من تذكير النَّاس بتلك المكتسبات لكي تتحوَّل إلى منهج في الحياة وسلوك في العلاقة ورؤية إلى المستقبل، فالعيد يمثِّل هذه الانطلاقة من جديد والخطوة الأولى لاستثمار كل ما جنيناه وتزوَّدنا به، وأن نكون في حلية جديدة، وروحيَّة مختلفة، وتطلُّعات أسمى.

ولكن للأسف قد يتحوَّل العيد إلى مظاهر ماديَّة بحتة، وانقلاب على تلك المكتسبات، فهذا حال الكثير من النَّاس، فبمجرَّد انتهاء رمضان يرجعون على ما كانوا عليه من العادات الخاطئة والممارسات المنحرفة، ورمضان بالنِّسبة لهم مجرَّد فترة استثنائيَّة موقتة، وفي يوم العيد ينصبُّ اهتمامهم بالمظاهر واللِّباس، والبعض يجد في العيد فسحةً لإشباع رغباته واتِّباع أهوائه دون رادع.

الإعلام في عالمنا العربيِّ والإسلاميِّ خطيئة:

وأوضح صور هي انتهاك شهر رمضان والانقلاب على تلك المكتسبات هو ما يقوم به الإعلام سواء في شهر رمضان أو في أيَّام العيد من تفريغ هذه المناسبات من مضمونها وأهدافها، ويتمُّ استغلالها بشكل سيِّئ، حيث تبثُّ تلك البرامج الهابطة والأفلام المحرَّمة والنَّدوات والحوارات مع نجوم

الطَّرب والغناء في العالم العربيِّ، وقيام المهرجانات والاستعراضات الفنِّيَّة والغنائيَّة، ومحاولة استقطاب النَّاس والشَّباب والتَّأثير عليهم بكلِّ الوسائل والدَّعاية، كما يتمُّ التَّركيز والتَّشجيع على السَّفر والسِّياحة في الدُّول والأماكن المتحرِّرة والإباحيَّة والَّتي تتوفَّر فيها أسباب الانحراف والضَّلال، وعند ذلك يتحوَّل العيد إلى انتكاسة في حياة الإنسان، وتتحوَّل هذه الفرحة إلى نقمة.

إنَّ العيد في حقيقته هو الانطلاقة الجديدة نحو الالتزام الصَّحيح والحفاظ على تلك المكتسبات، وليس الاهتمام بالمظاهر أو التَّمرُّد وارتكاب المعاصي والذُّنوب واستباحة المحرَّمات والتَّحلُّل من الالتزامات. من هنا جاء التَّأكيد على حقيقته، ففي الحديث عن علي عليه السلام أنَّه قال في بعض الأعياد: «إنَّما هو عيد لمن قَبِلَ اللَّه صيامه وشكر قيامه، وكلُّ يوم لا يُعصى اللَّه فيه فهو عيد»[1]، وفي خطبة له عليه السلام: «واعلموا عباد اللَّه، أنَّ أدنى ما للصَّائمين والصَّائمات أن يُناديهم مَلَكٌ في آخر يوم من شهر رمضان: أبشروا عباد اللَّه فقد غُفِرَ لكم ما سلف من ذنوبكم، فانظروا كيف تكونون فيما تستأنفون»[2].

وبهذا المفهوم للعيد نستطيع أن نجعل أيَّامنا وحياتنا أعيادًا وفرحةً تملأ الأرجاء والكون، وتعمّ السَّعادة الحقيقيَّة بين النَّاس، ويصبح العيد حينئذٍ رمزًا للتَّعبير عن هذه الرُّوح وتلك المكتسبات، بزينة الإيمان والأخلاق والمظاهر الحسنة الَّتي تبتهج إليها المشاعر والقلوب، وتلتقي فيها الأبدان في صورة إسلاميَّة أصيلة.

---

(١) نهج البلاغة، ص ٥٥١.

(٢) بحار الأنوار (ط - بيروت)، ج٨٧، ص ٣٦٢.

إنَّ مجيء العيد بعد شهر رمضان مباشرة ليس من قبيل الصُّدفة مثلًا، بل هو غاية الحكمة الرَّبَّانيَّة، حيث يُجسِّد المفهوم الصَّحيح للعيد، فهو يمثِّل التَّخرُّج من المدرسة والجامعة، بعد عناء من الالتزام والدِّراسة، كذلك هو شهر رمضان، فهو التزام وعبادة ونشاط وحيويَّة في كلِّ الأبعاد، وليس مثل تلك المناسبات الَّتي تهتُّك فيها الحرمات، من قبل أهل الفسوق.

خطبة الرسول الأعظم ﷺ
قبيل شهر رمضان المبارك

حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ إِبْرَاهِيمَ رَحِمَهُ اللَّهُ قَالَ: حَدَّثَنَا أَحْمَدُ بْنُ مُحَمَّدٍ الْهَمْدَانِيُّ قَالَ: حَدَّثَنَا عَلِيُّ بْنُ الْحَسَنِ بْنِ فَضَّالٍ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ أَبِي الْحَسَنِ عَلِيِّ بْنِ مُوسَى الرِّضَا، عَنْ أَبِيهِ مُوسَى بْنِ جَعْفَرٍ، عَنْ أَبِيهِ الصَّادِقِ جَعْفَرِ بْنِ مُحَمَّدٍ، عَنْ أَبِيهِ الْبَاقِرِ مُحَمَّدِ بْنِ عَلِيٍّ، عَنْ أَبِيهِ زَيْنِ الْعَابِدِينَ عَلِيِّ بْنِ الْحُسَيْنِ، عَنْ أَبِيهِ سَيِّدِ الشُّهَدَاءِ الْحُسَيْنِ بْنِ عَلِيٍّ، عَنْ أَبِيهِ سَيِّدِ الْوَصِيِّينَ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ قَالَ:

«إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ خَطَبَنَا ذَاتَ يَوْمٍ فَقَالَ: أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّهُ قَدْ أَقْبَلَ إِلَيْكُمْ شَهْرُ اللَّهِ بِالْبَرَكَةِ وَالرَّحْمَةِ وَالْمَغْفِرَةِ، شَهْرٌ هُوَ عِنْدَ اللَّهِ أَفْضَلُ الشُّهُورِ، وَأَيَّامُهُ أَفْضَلُ الْأَيَّامِ، وَلَيَالِيهِ أَفْضَلُ اللَّيَالِي، وَسَاعَاتُهُ أَفْضَلُ السَّاعَاتِ.

هُوَ شَهْرٌ دُعِيتُمْ فِيهِ إِلَى ضِيَافَةِ اللَّهِ، وَجُعِلْتُمْ فِيهِ مِنْ أَهْلِ كَرَامَةِ اللَّهِ، أَنْفَاسُكُمْ فِيهِ تَسْبِيحٌ، وَنَوْمُكُمْ فِيهِ عِبَادَةٌ، وَعَمَلُكُمْ فِيهِ مَقْبُولٌ، وَدُعَاؤُكُمْ فِيهِ مُسْتَجَابٌ، فَاسْأَلُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ بِنِيَّاتٍ صَادِقَةٍ، وَقُلُوبٍ طَاهِرَةٍ، أَنْ يُوَفِّقَكُمْ لِصِيَامِهِ وَتِلَاوَةِ كِتَابِهِ، فَإِنَّ الشَّقِيَّ مَنْ حُرِمَ غُفْرَانَ اللَّهِ فِي هَذَا الشَّهْرِ الْعَظِيمِ.

وَاذْكُرُوا بِجُوعِكُمْ وَعَطَشِكُمْ فِيهِ جُوعَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَعَطَشَهُ، وَتَصَدَّقُوا

عَلَى فُقَرَائِكُمْ وَمَسَاكِينِكُمْ، وَوَقِّرُوا كِبَارَكُمْ، وَارْحَمُوا صِغَارَكُمْ، وَصِلُوا أَرْحَامَكُمْ، وَاحْفَظُوا أَلْسِنَتَكُمْ، وَغُضُّوا عَمَّا لَا يَحِلُّ النَّظَرُ إِلَيْهِ أَبْصَارَكُمْ، وَعَمَّا لَا يَحِلُّ الِاسْتِمَاعُ إِلَيْهِ أَسْمَاعَكُمْ، وَتَحَنَّنُوا عَلَى أَيْتَامِ النَّاسِ يُتَحَنَّنْ عَلَى أَيْتَامِكُمْ، وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ مِنْ ذُنُوبِكُمْ، وَارْفَعُوا إِلَيْهِ أَيْدِيَكُمْ بِالدُّعَاءِ فِي أَوْقَاتِ صَلَاتِكُمْ، فَإِنَّهَا أَفْضَلُ السَّاعَاتِ، يَنْظُرُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ فِيهَا بِالرَّحْمَةِ إِلَى عِبَادِهِ، يُجِيبُهُمْ إِذَا نَاجَوْهُ، وَيُلَبِّيهِمْ إِذَا نَادَوْهُ، وَيُعْطِيهِمْ إِذَا سَأَلُوهُ، وَيَسْتَجِيبُ لَهُمْ إِذَا دَعَوْهُ.

أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّ أَنْفُسَكُمْ مَرْهُونَةٌ بِأَعْمَالِكُمْ فَكُّوهَا بِاسْتِغْفَارِكُمْ، وَظُهُورُكُمْ ثَقِيلَةٌ مِنْ أَوْزَارِكُمْ فَخَفِّفُوا عَنْهَا بِطُولِ سُجُودِكُمْ، وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى ذِكْرُهُ أَقْسَمَ بِعِزَّتِهِ أَلَّا يُعَذِّبَ الْمُصَلِّينَ وَالسَّاجِدِينَ، وَأَلَّا يُرَوِّعَهُمْ بِالنَّارِ يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعالَمِينَ.

أَيُّهَا النَّاسُ، مَنْ فَطَّرَ مِنْكُمْ صَائِمًا مُؤْمِنًا فِي هَذَا الشَّهْرِ كَانَ لَهُ بِذَلِكَ عِنْدَ اللَّهِ عِتْقُ نَسَمَةٍ وَمَغْفِرَةٌ لِمَا مَضَى مِنْ ذُنُوبِهِ، فَقِيلَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَلَيْسَ كُلُّنَا يَقْدِرُ عَلَى ذَلِكَ، فَقَالَ ﷺ: اتَّقُوا النَّارَ وَلَوْ بِشِقِّ تَمْرَةٍ، اتَّقُوا النَّارَ وَلَوْ بِشَرْبَةٍ مِنْ مَاءٍ.

أَيُّهَا النَّاسُ، مَنْ حَسَّنَ مِنْكُمْ فِي هَذَا الشَّهْرِ خُلُقَهُ كَانَ لَهُ جَوَازٌ عَلَى الصِّرَاطِ يَوْمَ تَزِلُّ فِيهِ الْأَقْدَامُ، وَمَنْ خَفَّفَ فِي هَذَا الشَّهْرِ عَمَّا مَلَكَتْ يَمِينُهُ خَفَّفَ اللَّهُ عَلَيْهِ حِسَابَهُ، وَمَنْ كَفَّ فِيهِ شَرَّهُ كَفَّ اللَّهُ عَنْهُ غَضَبَهُ يَوْمَ يَلْقَاهُ، وَمَنْ أَكْرَمَ فِيهِ يَتِيمًا أَكْرَمَهُ اللَّهُ يَوْمَ يَلْقَاهُ، وَمَنْ وَصَلَ فِيهِ رَحِمَهُ وَصَلَهُ اللَّهُ بِرَحْمَتِهِ يَوْمَ يَلْقَاهُ، وَمَنْ قَطَعَ فِيهِ رَحِمَهُ قَطَعَ اللَّهُ عَنْهُ رَحْمَتَهُ يَوْمَ يَلْقَاهُ، وَمَنْ تَطَوَّعَ فِيهِ بِصَلَاةٍ كَتَبَ اللَّهُ لَهُ بَرَاءَةً مِنَ النَّارِ، وَمَنْ أَدَّى فِيهِ فَرْضًا كَانَ لَهُ ثَوَابُ مَنْ أَدَّى

سَبْعِينَ فَرِيضَةً فِيمَا سِوَاهُ مِنَ الشُّهُورِ، وَمَنْ أَكْثَرَ فِيهِ مِنَ الصَّلَوَاتِ عَلَيَّ ثَقَّلَ اللَّهُ مِيزَانَهُ يَوْمَ تَخِفُّ الْمَوَازِينُ، وَمَنْ تَلَا فِيهِ آيَةً مِنَ الْقُرْآنِ كَانَ لَهُ مِثْلُ أَجْرِ مَنْ خَتَمَ الْقُرْآنَ فِي غَيْرِهِ مِنَ الشُّهُورِ.

أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّ أَبْوَابَ الْجِنَانِ فِي هَذَا الشَّهْرِ مُفَتَّحَةٌ فَاسْأَلُوا رَبَّكُمْ أَلَّا يُغَلِّقَهَا عَلَيْكُمْ، وَأَبْوَابَ النِّيرَانِ مُغَلَّقَةٌ فَاسْأَلُوا رَبَّكُمْ أَلَّا يُفَتِّحَهَا عَلَيْكُمْ، وَالشَّيَاطِينَ مَغْلُولَةٌ فَاسْأَلُوا رَبَّكُمْ أَلَّا يُسَلِّطَهَا عَلَيْكُمْ.

قَالَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عليه السلام: فَقُمْتُ فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَا أَفْضَلُ الْأَعْمَالِ فِي هَذَا الشَّهْرِ؟ فَقَالَ: يَا أَبَا الْحَسَنِ أَفْضَلُ الْأَعْمَالِ فِي هَذَا الشَّهْرِ الْوَرَعُ عَنْ مَحَارِمِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، ثُمَّ بَكَى، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَا يُبْكِيكَ؟ فَقَالَ: يَا عَلِيُّ، أَبْكِي لِمَا يُسْتَحَلُّ مِنْكَ فِي هَذَا الشَّهْرِ، كَأَنِّي بِكَ وَأَنْتَ تُصَلِّي لِرَبِّكَ وَقَدِ انْبَعَثَ أَشْقَى الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ شَقِيقُ عَاقِرِ نَاقَةِ ثَمُودَ فَضَرَبَكَ ضَرْبَةً عَلَى قَرْنِكَ فَخَضَبَ مِنْهَا لِحْيَتَكَ.

قَالَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عليه السلام: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَذَلِكَ فِي سَلَامَةٍ مِنْ دِينِي؟ فَقَالَ: فِي سَلَامَةٍ مِنْ دِينِكَ.

ثُمَّ قَالَ ﷺ: يَا عَلِيُّ، مَنْ قَتَلَكَ فَقَدْ قَتَلَنِي، وَمَنْ أَبْغَضَكَ فَقَدْ أَبْغَضَنِي، وَمَنْ سَبَّكَ فَقَدْ سَبَّنِي، لِأَنَّكَ مِنِّي كَنَفْسِي، رُوحُكَ مِنْ رُوحِي، وَطِينَتُكَ مِنْ طِينَتِي، إِنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى خَلَقَنِي وَإِيَّاكَ وَاصْطَفَانِي وَإِيَّاكَ وَاخْتَارَنِي لِلنُّبُوَّةِ وَاخْتَارَكَ لِلْإِمَامَةِ، فَمَنْ أَنْكَرَ إِمَامَتَكَ فَقَدْ أَنْكَرَ نُبُوَّتِي.

يَا عَلِيُّ، أَنْتَ وَصِيِّي وَأَبُو وُلْدِي وَزَوْجُ ابْنَتِي وَخَلِيفَتِي عَلَى أُمَّتِي فِي حَيَاتِي وَبَعْدَ مَوْتِي، أَمْرُكَ أَمْرِي، وَنَهْيُكَ نَهْيِي، أُقْسِمُ بِالَّذِي بَعَثَنِي بِالنُّبُوَّةِ

وَجَعَلَنِي خَيْرَ الْبَرِيَّةِ إِنَّكَ لَحُجَّةُ اللَّهِ عَلَى خَلْقِهِ، وَأَمِينُهُ عَلَى سِرِّهِ، وَخَلِيفَتُهُ عَلَى عِبَادِهِ»[1].

(١) الأمالي، الصدوق، ص ٩٣ - ٩٦.

قائمة المصادر

١. الاختصاص، محمد بن محمد المفيد، تحقيق: علي أكبر غفاري، ومحمود محرمي زرندي، الموتمر العالمي لألفية الشيخ المفيد - إيران، قم، الطبعة الأولى ١٤١٣هـ.

٢. الأمالي، محمد بن علي بن بابويه، كتابچى - طهران، الطبعة السادسة ١٤١٨هـ.

٣. الأصول الستة عشر، جمع من العلماء، الناشر: دار الشبستري للمطبوعات - قم، الطبعة الأولى ١٤٠٤هـ.

٤. بحار الأنوار الجامعة لدرر أخبار الأئمة الأطهار، محمد باقر بن محمد تقي المجلسي، دار إحياء التراث العربي - بيروت، الطبعة الثانية ١٤٠٣هـ.

٥. تحف العقول عن آل الرسول صلى الله عليه وآله، االحسن بن علي بن شعبة الحراني، علي أكبر غفاري، جماعة المدرسين - قم، الطبعة الثانية ١٤٠٤هـ.

٦. تفصيل وسائل الشيعة إلى تحصيل مسائل الشريعة، الشيخ محمد بن حسن الحر العاملي، مؤسسة آل البيت عليهم السلام - قم، الطبعة الأولى ١٤٠٩هـ.

٧. تنبيه الخواطر ونزهة النواظر المعروف بمجموعة ورّام، مسعود بن عيسى ورام بن أبي فراس، مكتبة الفقيه - قم، الطبعة الأولى ١٤١٠هـ.
٨. جامع أحاديث الشيعة، آغا حسين البروجردي، تحقيق: جمع من المحققين، منشورات فرهنگ سبز - طهران، الطبعة الأولى ١٤٢٨هـ.
٩. جامع الأخبار، الشعيري، محمد بن محمد، المطبعة الحيدرية - النجف، الطبعة الأولى.
١٠. الجامع الصحيح «صحيح مسلم»، أبو الحسين مسلم بن الحجاج بن مسلم القشيري النيسابوري، تحقيق: محمد ذهني أفندي - إسماعيل بن عبد الحميد الحافظ الطرابلسي- أحمد رفعت بن عثمان حلمي القره حصاري - محمد عزت بن عثمان الزعفرانبوليوي- أبو نعمة الله محمد شكري بن حسن الأنقروي، دار الطباعة العامرة - تركيا ١٣٣٤هـ.
١١. حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، أبو نعيم أحمد بن عبداللَّه الأصبهاني (ت ٤٣٠هـ)، مطبعة السعادة - بجوار محافظة مصر، عام النشر: ١٣٩٤هـ - ١٩٧٤م.
١٢. الخصال، محمد بن علي بن بابويه، تحقيق: علي أكبر غفاري، جماعة المدرسين - قم، الطبعة الأولى ١٤٠٣هـ.
١٣. دعائم الإسلام و ذكر الحلال والحرام والقضايا والأحكام، نعمان بن محمد المغربي، تحقيق: آصف الفيضي، مؤسسة آل البيت عليهم السلام - قم، الطبعة الثانية ١٤٢٧هـ.
١٤. الذريعة إلى حافظ الشريعة(شرح أصول الكافي)، رفيع الدين محمد بن محمد المؤمن الجيلاني، تحقيق: محمد حسين درايتي، دار

الحديث - إيران؛ قم، الطبعة الأولى ١٤٢٩هـ.
١٥. شرح أصول الكافي، محمد بن إبراهيم صدر الدين الشيرازي، تحقيق: محمد الخواجوي، مؤسسة الأبحاث الثقافية - طهران، الطبعة الأولى ١٤٢٥هـ.
١٦. الصحيفة السجادية، الإمام علي بن الحسين عليه السلام، نشر الهادي - قم، الطبعة الأولى ١٤١٨هـ.
١٧. طبّ النبيّ صلى الله عليه وآله، جعفر بن محمد المستغفري، تحقيق: علي أكبر إلهي خراساني، مكتبة الحيدرية - النجف، الطبعة الأولى ١٣٨٤هـ.
١٨. علل الشرائع، محمد بن علي بن بابويه، مكتبة داوري - قم، الطبعة الأولى ١٤٢٧هـ.
١٩. عوالي اللآلي العزيزية في الأحاديث الدينية، محمد بن زين الدين بن أبي جمهور، تحقيق: مجتبى العراقي، دار سيد الشهداء للنشر - قم، الطبعة الأولى ١٤٠٥هـ.
٢٠. عيون أخبار الرضا عليه السلام، محمد بن علي بن بابويه، تحقيق: مهدي اللاجوردي، نشر جهان - طهران، الطبعة الأولى ١٤٢٠هـ.
٢١. غرر الحكم ودرر الكلم، عبد الواحد بن محمد التميمي الآمدي، تحقيق: السيد مهدي رجائي، دار الكتاب الإسلامي - قم، الطبعة الثانية ١٤١٠هـ.
٢٢. الفقه المنسوب إلى الإمام الرضا، منسوب إلى علي بن موسى، الإمام الثامن عليه السلام، مؤسسة آل البيت عليهم السلام - مشهد، الطبعة الأولى ١٤٠٦هـ.
٢٣. الكافي، محمد بن يعقوب بن إسحاق الكليني، دار الحديث - قم،

الطبعة الأولى ١٤٢٩هـ.
٢٤. المحاسن، أحمد بن محمد بن خالد البرقي، تحقيق: جلال الدين المحدث، دار الكتب الإسلامية - قم، الطبعة الثانية ١٣٧١هـ.
٢٥. مستدرك الوسائل ومستنبط المسائل، حسين بن محمد تقي النوري، مؤسسة آل البيت عليهم السلام -قم، الطبعة الأولى ١٤٠٨هـ.
٢٦. معاني الأخبار، محمد بن علي ابن بابويه، تحقيق: علي أكبر غفاري، مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين بقم، الطبعة الأولى ١٤٠٣هـ.
٢٧. مكاتيب الأئمة عليهم السلام، علي أحمدي ميانجي، تحقيق: مجتبى فرجي، دار الحديث - قم، الطبعة الأولى ١٤٢٦هـ.
٢٨. مكارم الأخلاق، الحسن بن الفضل الطبرسي، دار الشريف الرضي - قم، الطبعة الرابعة ١٤١٢هـ.
٢٩. من لا يحضره الفقيه، محمد بن علي بن بابويه، تحقيق: علي أكبر غفاري، مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين بقم، الطبعة الثانية ١٤١٣هـ.
٣٠. نهج البلاغة، محمد بن حسين الشريف الرضي، تحقيق: فيض الإسلام، دار الهجرة - قم، الطبعة الأولى ١٤١٤هـ.
٣١. نهج الفصاحة (الكلمات القصار للنبي صلى الله عليه وآله)، أبو القاسم پاينده، دنياى دانش - طهران، الطبعة الرابعة ١٤٢٤هـ.
٣٢. الوافي، محمد محسن بن مرتضى الفيض الكاشاني، مكتبة الإمام أمير المؤمنين علي عليه السلام - أصفهان، الطبعة الأولى ١٤٠٦هـ.

المحتويات

الإهداء..... ٧
تمهيد شهر رمضان والبيئة الثقافية ٩
النظرة السوداوية..... ١١
الثاني: الآثار السلبية والاجتماعية (التحولات الاجتماعية)..... ١٩
١- هدم كيان الأسرة ١٩
٢- ضعف الروابط الاجتماعية ٢٢
الثالث: ثقافة الاستهلاك ٢٥
رابعًا: هدم الدين والأخلاق..... ٣١
مقدمة..... ٤٣
أ- علاقة الإنسان بربه..... ٤٩
ب- علاقة الإنسان بالدنيا ٤٩
ج- العلاقة مع الناس..... ٥٤
د- الأخلاق الإسلامية..... ٦٠
الفصل الأول: شهر رمضان والأمة..... ٦٧
شهر رمضان والأمة ٦٩
الأولى: القراءة المتأنية والتدبر..... ٧٢
الثانية: العمل والتطبيق..... ٧٥

٣- مرجعية أهل البيت عليهم السلام والقرآن ٧٧
نموذج في التفسير لأهل البيت عليهم السلام لا للحصر ٨١
أولًا: بناء الإنسان ٨٧
١- في الإخلاص للّـه ٨٩
٢- بناء الإرادة ٨٩
٣- الالتزام بالأخلاق الفاضلة ٩١
ثانيًا: بناء المجتمع الفاضل ٩٣
ثالثًا: آمال الأمة وتطلعاتها ٩٥
شهر رمضان والرحمة الإلهية ٩٩
الرحمة العامة والخاصة ١٠٠
روعة التشريع الإسلامي ١٠٤
١- مُفضَّل على كل الأوقات ١٠٦
٢- قبول الأعمال ومضاعفاتها ١٠٧
٣- فتح باب التوبة ١٠٧
٤- قيمة الصدقات والعطاء ١٠٩
٥- فضل قراءة القرآن ١٠٩
٦- قبول الدعاء وفضله ١٠٩
٧- قيمة الأخلاق الحسنة ١١٠
٨- ليلة القدر ١١١
رسالة العطاء ١١٩
أولًا: رسالة العلم ١١٩
ثانيًا: رسالة العطاء والإنفاق ١٢٥
الإمام علي عليه السلام والعدالة الاجتماعية ١٣٧
الدين ومبدأ العدالة ١٣٩

١- حفظ كرامة الإنسان ١٣٩
٢- العدل أساس الأمن والاستقرار ١٤٢
أخلاقيات الإسلام ١٤٣
الإرهاب ولغة العنف والتشدد ١٤٤
ثقافة العدالة الاجتماعية ١٤٤
الإمام علي عليه السلام رمز العدالة الاجتماعية ١٤٥
الفصل الثاني: آفاق التحول ١٥١
مدخل ١٥٣
المحطات الروحية في الإسلام ١٥٣
خصوصية التقوى في شهر رمضان ١٥٥
أولًا: شهر رمضان بين الحقيقة والشعار ١٦٣
بين الشكل والمضمون ١٦٥
١- الالتزام بفريضة الصِّيام ١٦٩
٢- التفقُّه في أحكام الصوم ١٧٤
٣- الإخلاص وتقوية الإرادة ١٧٨
توجيه ويقظة ١٨٠
٤- التسلح بثقافة القرآن ١٨٢
١- تخليد الذِّكرى ١٨٢
٢- كيفية العلاقة مع القرآن ١٨٨
ثانيًا: التحولات الاجتماعية ١٩٥
١- على الصعيد الشخصي ١٩٥
«البعد الأول: المراجعة الفكرية ١٩٨
البعد الثاني: المراجعة النفسية ١٩٨

البعد الثالث: المراجعة الاجتماعية والسلوكية ١٩٩
٢- البعد الاجتماعي..... ١٩٩
التربية والتنشئة الاجتماعية..... ٢٠٤
١- نقل التجربة ٢٠٨
٢- الأبناء أرضية صالحة لغرس القيم..... ٢٠٩
٣- وبناء على ذلك يجب المبادرة في التوجيه ٢١٠
٤- الاعتدال في التربية والتأثير ٢١٢
دعاء الإمام زين العابدين لوالديه ٢١٢
الأخلاق الإسلاميَّة وقوَّة التَّأثير وتأثير العلاقة ٢١٥
ثالثًا: مفهوم التقوى في القرآن ٢١٩
١- الوازع الدِّينيُّ..... ٢٣٤
٢- تحمل المسؤولية الاجتماعية ٢٣٨
٣- الأخلاق الإسلامية..... ٢٤٦
٤- القوة في التأثير ٢٥٣
٥- المنطلقات والتطلعات الحضارية..... ٢٥٧
رابعًا: الصوم والتنمية ٢٦٥
الصيام والتنمية ٢٦٥
أولًا: الإخلاص للَّـه سبحانه..... ٢٦٧
ثانيا: تقوية الإرادة..... ٢٦٩
ثالثًا: إن الصيام تربية متكاملة..... ٢٧٠
رابعًا: كما إن للصيام فوائد جمة..... ٢٧١
خامسًا: فرحة العيد ماذا تعني؟ ٢٧٧
أوَّلًا: الانتصار الأكبر على الذَّات ٢٧٧
ثانيًا: الاقتداء بأهل البيت عليهم السلام..... ٢٧٩

ثالثًا: إدخال السُّرور على الفقراء والمساكين ٢٨١
رابعًا: الاهتمام بالهيئة وبالمظاهر الحسنة..... ٢٨٢
خامسًا: لكيلا يتحوَّل العيد إلى انتكاسة ٢٨٢
الإعلام في عالمنا العربيِّ والإسلاميِّ خطيئة ٢٨٣
خطبة الرسول الأعظم ﷺ قبيل شهر رمضان المبارك ٢٨٧
قائمة المصادر ٢٩١
المحتويات ٢٩٥